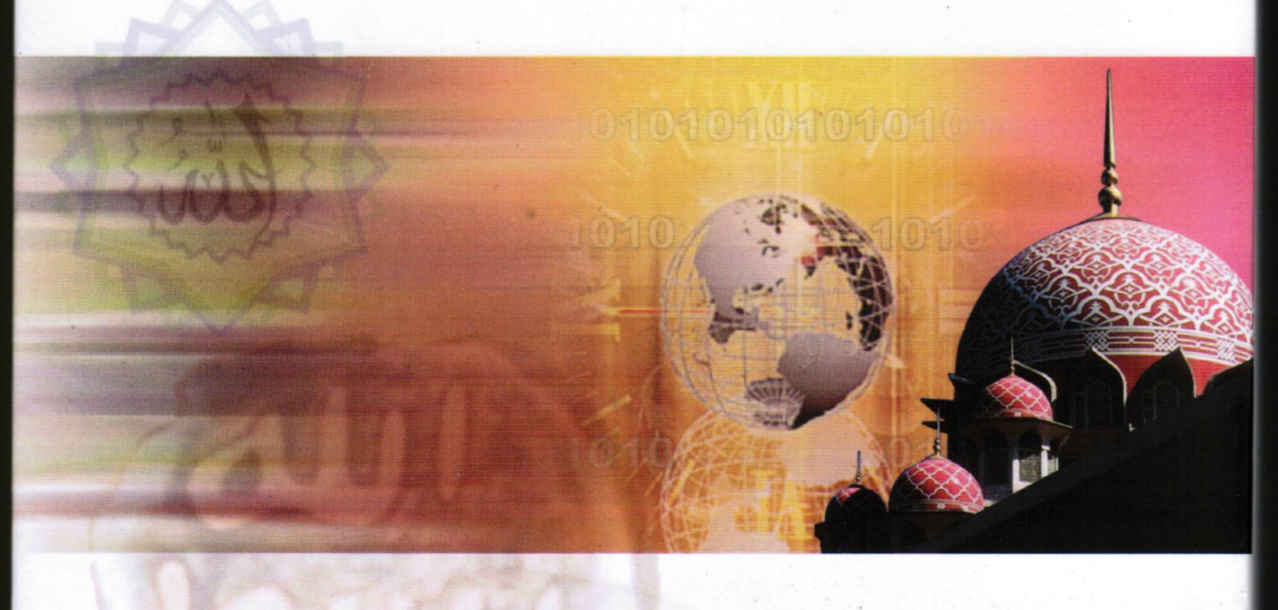
الإسلام

إعادة اكتشاف المستقبل



راشد شاز



الإسلام: إعادة اكتشاف المستقبل

الإسلام

إعادة اكتشاف المستقبل

راشد شاز



دار الحكمة
لندن

الطبعة الأولي
1427 هـ /2006م

الترقيم الدولي: 1-904923-36-4

نقله من الإنجليزية
تحت إشراف
الأستاذ محمد فاضل
القاهرة، جمهورية مصر العربية

دار الحكمة
للطباعة والنشر والتوزيع
88 Chalton Street
London NWI IHJ
Tel: +44-20-7383 0116
Email: hazim@hikma.co.uk
www.hikma.co.uk

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

مقدمة

هذا الكتاب يتحدث عن الإسلام وقد صدر بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. إن أحداث الحادي عشر من سبتمبر قد فتحت أمامنا عالمًا جديدًا من الفرص، وهذا على النقيض من الفكرة السائدة عن ذلك؛ إذ بدأ المسلمون في أنحاء العالم يتساءلون فيما بينهم ما الذي جعلنا نعيش على هامش التاريخ منذ زمن بعيد رغم أننا أصحاب الدين الخاتم؟ إن الأمم المتحضرة والمبدعة تجعل من أوقات المحن التي تمر بها لحظات مواتية لانطلاقها. هذا الكتاب منوط به أن يوجه دفة الأحداث إلى الاتجاه الصحيح.

منذ قرون والمسلمون معتادين على العيش في وهم الماضي. ما من شكٍ في أن ماضينا كان ماضيًا ساطعًا، إلا أن تأثيره علينا يتسم بالدعة والخمول؛ ففي أثناء محاولاتنا البائسة لاسترجاع المجد المفقود للأيام الخوالي، نقف دائمًا عند تمجيد الماضي ولا نتعدى ذلك. بل أصبح الماضي هو الملاذ الوحيد بالنسبة للكثيرِ من بيننا.

في الصفحات التالية، أحاول عن عمدٍ أن أعلن ثورتي على هذا الملاذ التقليدي؛ وهو أن نفرط في إعجابنا بالماضي أو وصفه على أنه كان عالمًا بلا تحديات. يجب علينا أن نواجه الحقائق القاسية ليس فقط في حاضرنا بل في الماضي أيضًا. إذا واجهناها فإن هذا سيكون هو العامل الوحيد الذي سوف يساعدنا في التعلم من أخطاء الماضي. إن ما يمثل الإسلام الخالص هو القرآن الكريم والثابت من سنة النبي محمد ﷺ، أما الجزء الباقي من الدين فهو مزيج بين الرسالة والتاريخ، والبحث عن السلوى والعزاء في الإسلام التاريخي كان ولا زال وسيبقى أمرًا مشكلاً.

إن العودة إلى الإسلام في صورته الخالصة يتطلب منا أن نستبعد فهمنا البشري والنفاية الفكرية التي تكونت عبر رحلة طويلة استمرت لقرون عديدة. لكن هذا ليس بالأمر السهل؛ ففي الماضي فشل كثير من العلماء الذين كرسوا حياتهم لدراسة القرآن، بل وتركوا لنا أجزاءً كبيرة من التفاسير، أن يصلوا مباشرة إلى القرآن الكريم أو أن يقدموا قراءاتهم الخاصة عن النص القرآني. ولو أنهم كانوا ناجحين لما كان هناك ضرورة للاعتماد فقط على الفقهاء الكبار في الماضي أو الادعاء بلا خجل أننا أحناف أو شافعية. إننا نعرف جيدًا أن الدين الإسلامي قد اكتمل خلال عهد النبي ﷺ وأن آراء الأربعة أو الخمسة فقهاء ليست وحيًا سماويًا، إلا أننا ننظر إليهم على أن مدارسهم هي الأركان المؤسسة للدين الإسلامي. إننا نفشل غالبًا أن ندرك أن هؤلاء الفقهاء الكبار، رغم تبحرهم في العلم وتقواهم، كانوا في الأساس بشرًا ربما يكونوا قد أخطئوا في فهمهم للنصوص. إن تنحية الأعباء الفكرية التي تتسم بها القرون الماضية هو المنهجية الوحيدة التي يمكن تطبيقها للوصول إلى هداية مستنيرة لعصرنا.

إن ظهور المدارس الفقهية بيننا قد أودى بنا إلى نوع من الدمار الكلي؛ فاليوم أصبح من الممكن لنا أن نُسقط الأنظمة الطاغية أو أن نفكك الإمبراطوريات العظيمة، ولكن عندما نريد خلق نظام بديل للأنظمة القائمة فسوف يكون من الصعب علينا أن نحدد أي المدارس الفقهية التي يجب أن نتبعها ونطبقها. هذا النزاع الداخلي هو السبب الرئيسي في أزمتنا التي تحتاج إلى التعامل معها في الحال وبنوع من الحرص.

قد يجد الشخص تكرارًا لأفكار متشابهة في هذا الكتاب، ولكن هذا يأتي كنوعٍ من الخيط الموحد بين عدة مقالات، حيث إن معظم المقالات كانت في الأساس مقالات افتتاحية في موقع فيوتشر إسلام دوت كوم. بل ربما يكون تكرار بعض الأفكار عاملاً مساعدًا في لفت انتباه القارئ. وعن عمدٍ، استبعدت من الكتاب الملاحظات والمراجع الأكاديمية حتى أجعل الكتاب أكثر متعة في القراءة، ومع ذلك احتفظت بالمناقشات الأكاديمية والاقتباسات من أجل تقديمها للقارئين المحبين أكثر للبحث ولكتاباتي المستقبلية حول هذا الموضوع.

راشد شا

إذا لم نستطع اليوم – رغم وجود القرآن الكريم بيننا – رؤية أي بصيص من ضوء الأمل في نهاية النفق المظلم، فإن هذا مرده إلى الحقيقة المتمثلة في أننا نعطي العلماء والفقهاء تقديرًا وتعظيمًا أكبر مما نعطيه للقرآن الكريم الذي أنزله الله على خاتم الأنبياء، وبدلا من أن نقترب مباشرة من القرآن الكريم، ونضيء عقولنا بما فيه، اعتبرنا أنه من الضروري أن نتحقق مما إذا كان اتجاهنا موثق ومدعوم بأقوال العلماء المسلمين الأوائل.

ماذا نفعل الآن؟

يمر البيت الإسلامي اليوم بمنعطف خطير. والمسلمون في أنحاء العالم يسألون أنفسهم: هل يجب علينا وضع صياغة جديدة لوضعنا التاريخي، أم سنترك أنفسنا للفناء على هامش التاريخ؟ والعقل المسلم مشوَّش لدرجة تبعث على الفزع إزاء هذا السؤال الحيوي الهام.

وبإمكان الذين هم على وعي بتاريخنا الممتد عبر القرون، أن يوضحوا حقيقة أن الخطر ليس جديدا علينا وإن كان فريدا من نوعه؛ ويمكنهم أيضا أن يخبرونا بأننا قد سبق وأن قاومنا أوضاعًا مأساوية مماثلة عبر تاريخنا الطويل. ومع أننا نواجه أزمة كبرى ربما تكون الخامسة من نوعها في تاريخنا الممتد، يبدو أنه ليس لدينا أية رؤية مستقبلية؛ أما الأزمات الأربعة السابقة فهي: الفتنة الكبرى التي أدت إلى استشهاد ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان، وتدمير ونهب بغداد حاضرة العباسيين، وسقوط غرناطة، ونهاية الخلافة العثمانية. إن التبعات النفسية لما يسمى "الحرب على الإرهاب" واحتلال العراق المباشر، واستعمار أفغانستان، وإخضاع ليبيا وإيران، والاستمرار في إهانة باكستان وغيرها من الشعوب الإسلامية في مواجهتها مع الإمبريالية الأميركية، وتغيير علمائنا ومفكرينا دائمًا لمواقفهم تجاه قضايا ذات أهمية استراتيجية ــ هذا كله قد عزز الإيمان بأن أزمتنا الفكرية أخطر بكثير مما تبدو للناظرين، وأن فكرنا الديني أكثر تشوشا مما يبدو للعيان. بل الحقيقة هي أننا لا نعرف أين نتوجه من موقفنا الراهن!

لقد ضللنا طريقنا كنتاج منطقي لخروجنا بمحض إرادتنا عن موقع السلطة والتوجيه الذي أسبغه الله تعالى علينا كخير أمة أخرجت للناس. إن الأزمة الأولى في تاريخنا - وهى الفتنة الأهلية التي أدت إلى تضعضع المركز - ألقت بقافلتنا على طريق الأزمات الأبدية. فمقتل الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله تعالى عنه) لم يؤد فقط إلى ضياع السلطة السياسية، بل أدى هذا الحدث الجلل إلى نفي البيئة المكانية للوحي، تلك البيئة التي عاش يتنفس فيها الجيل الأول من المسلمين. ومنذ ذلك الوقت ونحن المسلمون مستمرون في مسيرة تباعدية عن المركز تبعدنا عن النظرة الكلية إزاء الحياة والكون النابعة من خلال الوحي الإلهي. وبالتالي فإن رسالة الإسلام - تلك النظرية الثورية الصارمة لكرامة البشر وحريتهم والتي اجتاحت العالم في وقت من الأوقات - لم تعد جذابة بسبب الصبغة الجديدة للمسلمين التي اصطبغت بها الرسالة الإسلامية. واليوم عندما نحتاج وبشكل أكبر من أي وقت مضي إلى تلك النظرية الثورية الصارمة الساحرة – ناهيك عن القوة السامية للوحي - فى مواجهتنا للقوة التقنية التي تتمتع بها الإمبريالية الغربية المعاصرة نكتشف أن تلك النظرية قد تحولت إلى مجموعة من الطقوس التي لا حياة فيها.

ونحن الذين وكِّل الينا أمر قيادة التاريخ حتى نهاية الزمن، نجد أننا لسنا قادرين حتى على إدراك أن أزمتنا ذات بعد كوني. فالعالَم بدوننا محكوم عليه بالإخفاق لا محالة. ولكن قبل أن نتقدم لنتبوأ مكانتنا القيادية والإرشادية مرة أخرى، نحتاج إلى أن نقوم بترتيب بيتنا من الداخل، أو بعبارة أخرى أن نعيد استكشاف الضوء الرباني المنبعث عن الوحي الذي أنار لنا الطريق يوما ما.

إن حركة الصحوة الإسلامية التي انطلقت بصخب في النصف الثاني من القرن العشرين، وحالة الابتهاج العامة التي غمرت احتفالات الأمة ببدء القرن الخامس عشر الهجري، حملتنا على الوهم بأن الفجر الجديد على وشك البزوغ. كما أن ظهور منتديات إسلامية وحدوية في دار الإسلام قد قوى الاعتقاد بأن "كومنولثًا" إسلاميًا في المستقبل سوف يضع قافلتنا من جديد على طريق المجد. ولقد ساعد قيام الثورة الإسلامية في إيران عام 1979، وطرد الجيش الأحمر من أفغانستان وما تبعه من انهيار "إمبراطورية الشر" واستردادنا المعجز لدول آسيا الوسطى المسلمة، بالإضافة

إلى بعض العوامل الأخرى، كل ذلك قد ساعد على ترسيخ هذا الوهم. ووسط غمرة الأحداث السياسية المتلاحقة تناسينا أن نزاهتنا الأيديولوجية قد انحسرت، وأن عودتنا إلى مركز السلطة والإرشاد سيظل مجرد حلمًا ما لم نرمم من بنائنا الأيديولوجي، وما لم نعد إلى جوهر الوحي.

وحتى الذين رأوا ضرورة إحياء الأمة على أسس دينية، قد تاهوا هم الآخرون في مظاهر خارجية، أو على الأكثر انتهوا إلى تنفيذ رؤية فقهية شاملة مستعارة من زمن غابر. وليس بوسع نموذج "الكومنولث" الأجنبي، أو نموذج "الإسلام الفقهي" أن يقدما البديل للوحي الرباني، الذي وحده يتمتع بإمكانيات تحويل الأمة الى كيان واحد وإلى بنيان مرصوص كطليعة لوحدة البشرية.

إن العقل الفقهي في جوهره مثير للخلاف؛ فيبدو أنه يسعى إلى إخراج قدر أكبر من الناس من حظيرة الإسلام بأكثر مما يجذبهم إليها. إن الإسلام الفقهي - أو ما يمكن وصفه بالفكر الفتوي - في صورته الكاملة لا يوقف الصحوة الإسلامية فحسب، بل يدفعنا كذلك إلى صطدام مباشر مع غيرنا من الجماعات الدينية والنماذج الحضارية الأخرى. وتبقى المراكز الإسلامية الحديثة العهد في الحواضر الغربية في أحسن أحوالها قلاعًا حصينة للنزاع المذهبي وممثلةً للفرق التي أنشأتها بدلا من أن تمثل رسالةَ الإسلام العالمية. إن الدعوة القرآنية العامة في قوله تعالى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ﴾

من أجل التحالف مع الشعوب الأخرى ذات الفكر المماثل، لا تجد لها تأييدا من الذين انغمسوا في الفكر الطائفي.

لقد وفر لنا وجود المسلمين في الغرب فرصة نادرة للانطلاق "بثورة الوحي" إلي بيوت الغربيين. ولكن ضاعت هذه الفرصةَ الذهبية وسط الإسهاب في المجادلات حول المسائل الفقهية التي تسعى إلى إنشاء قلاع ثقافية للإسلام ذات التوجه السلفي؛ فالعقل الفقهي قد وضعنا في طريق لا خروج لنا منه رغم توقنا القوي الحالم لإحياء دار الإسلام؛ مما يجعلنا نجد أنفسنا في شرك فجر كاذب.

إنه من السهل اليوم إلصاق أية وصمة بالمسلمين الذين يجدون أنفسهم محاصَرين في فخ الأطماع الاستعمارية لكل من بوش وبلير. ويتساءل العديد منا ممن يلاحظ أن الذين يصارعون من أجل البقاء في جميع أنحاء العالم هم المسلمون وحدهم: هل الإسلام علَمٌ على الفوضى والإرهاب الغبي؟ وحتى أولئك المنهمكون في النضال من أجل البقاء تراودهم شكوك قوية عما إذا كانت هذه الإستراتيجية ستؤدي بهم حقا إلى النظام العالمي العادل الذي هو عنوان رسالة الإسلام. إن العقل الفقهي المتمرس على التفكير في إطار "الأبيض والأسود" وفي ضوء المصطلحات التي اجتذبت الأوساط الاجتماعية في العصر العباسي، قد فشل في استيعاب إشكاليات الوضع الجديد وتأثيراتها واسعة المدى على سيكولوجية المسلمين؛ فهذا العقل لم ينقسم فقط إلى أربع مفاهيم أو اتجاهات متوازية، بل وقف أمام عدد لا يحصى من الروايات المتناقضة لأحداث لا تعدو أن تكون ذات أهمية تاريخية. وإذا لم يعد هذا الفكر الفقهي إلى أصل الوحي الخالص، فسوف يضيف إلينا مآسٍ جديدة باحتكارهم لفهم الوحي كما حدث من قبل، على أنه الفهم الوحيد الصحيح للوحي.

وإذا كان النزاع السني الشيعي والحروب الدامية بين الأحناف والشافعية قد تسببا في سقوط الإمبراطورية العباسية في الماضي، فإن نزاعنا الداخلي اليوم مصدر إلهام مستمر لأعدائنا، وما ذلك إلا لأنه يتم إعداد علمائنا وفق مصطلحات طائفية صارمة لدرجة أنه يستحيل عليهم تقريبا فهم الهوية العالمية للإسلام إلا في إطار الفرق والطوائف. لقد انتهى بالنسبة إليهم النموذج الإبراهيمي للإسلام الحنيف.

إن عزلتنا لا يمكن أخذها باعتبارها قضية داخلية خاصة بنا؛ وذلك لأنها قد حرفت مسار التاريخ البشري بكامله. وبالتالي فنحن اليوم في أشد الحاجة إلى نقاش صريح ومخلص ودؤوب حول أسباب اضمحلالنا. وبدلا من الاعتماد على حكمة أرواح فانية، أو الاقتباس دون وعي من قول هذا عالم أو ذاك، فقد آن الأوان أن نخضع عقولَنا للنظر مليا في القرآن الكريم بحثا عن هدي جديد لزماننا. وقد يرى البعض هذه الدعوة مقيتة، أو نوعا من الكفر في أن نرى القرآن الكريم بروؤية جديدة دون الاستعانة بعقول الماضي العظيمة.

ولكننا على يقين من أن الذين يدركون الرسالة الأساسية لسيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، تلك الرسالة التي ذكرها القرآن صراحة، والقائمة على تحرير العقل الإنساني من الاستعمار وكذلك من كل أسر وأغلال - فكرية كانت أو غير ذلك - سيقدرون هذه الدعوة حق قدرها بكل تأكيد. إن القرآن الكريم لم يسبغ على أية شخص - كائنا مَن كان – حقا حصريا ليفسر وحده كلمةَ الله. بل إن النظرة القرآنية الشاملة للكون والإنسان ترى أن أية محاولة لاحتكار النشاط التفسيري أمر في غاية الكره بل يكاد يكون نوعا من الشرك.

وأما أولئك المولعون باستخدام مسميات نحو: "الفن الإسلامي"، الفلسفة الإسلامية"، العمارة الإسلامية" إلخ ... سوف يكون تحدياً كبيراً لهم أن يقروا أننا كـ "أمة مسلمة" لم نخول بإبداع ما قمنا به فعلاً من تشييد بغداد العباسية العظيمة، أو إسبانيا الإسلامية ذات البهاء؛ فالأمر لا يحتاج سوى أن يتحول المرء للنموذج الذي أصل له الإسلام ليدرك أن روعة الجمال المعماري لتاج محل والعجائب الأخرى للهند المغولية والتي تذكرنا أحيانا بماضينا المجيد ليست سوى انحرافا عن الدرب النبوي الأصيل.

نحو رؤية مستقبلية للإسلام

يقول الله تعالى في كتابه الحكيم:

﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ١٤ ﴾

(سورة التكوير 7-14)

لدى مطالعة هذه الآيات الكريمات من القرآن العظيم، يجد المرء نفسه أمام مشهد كوني يتجاوز ما بعد الحداثة مما يذكره على الفور بشبكة المعلومات الدولية؛ وهنا يختلط تصور الإنسان ليوم القيامة بهذا العالم الدنيويالدنيوى، هذا العالم الذيالذي طغت فيه الحياة الحديثة على الاتجاه التقليدي؛ ولا عجب أن يمكننا القرآن، وهو كلام الله تعالى، من تصور الماضيالماضي والحاضر والمستقبل في رؤية واحدة تشبه كثيراً النظر المفاجئالمفاجىء إلى صاعقة رعدية.

وما كان العجب من خلق فضاء افتراضي بعيداً عن عالم الحقيقة عجباً عادياً؛ فهو عالم يتفاعل فيه ملايين البشر فيفي مناقشة جادة ومدروسة لكل ما يوجد تحت الشمس من قضايا وموضوعاتالتي، مما يجعله ظاهرة تسهم وبشكل سريع في تشكيل رؤيتنا نحن بني الإنسان حتى أشد المحافظين بيننا لتلك القضايا؛ ففي عالم الإنترنت لا توجد تلك المرجعيات الدينية الرسمية التي يلجأ الناس إليها طلباً للموافقة على أداء عمل ما، كما أنه عالم يتعذر فيه تطويع الآراء المخالفة أو إخضاع أصحابها بقوة السلاح. ففي؛

وفي عالم الإنترنتالإنترنت ليس هناك مدينة عاصمة، ولا حاضرة في دائرة الضوء، أو مناطق مركزية وأخرى ضواحي؛ حقا إنه لأحد مشاهد مرحلة تقليدي حقيقيما بعد الحداثة حيث يتمتع العقل البشرى بالحرية في -بناء صورة ذهنية عبر -فيض من الخيوط الفكرية الطليقةفي؛ إنه عالم تقيّم فيه الأفكار على أساس جدارتها واستحقاقها إلىدوندونما أدنى اعتبار للمنبر الذي خرجت أيمنه أو تنتمي إليه؛ ونظراً لما مني به العقل البشري من إحساس عميق بالخير والشر، فإنه عرضة في هذا العالم الافتراضي لمواجهة الشيطان أو ملاقاة أعدائه علي حد سواء؛ وفيوفي خضم ما نراه من –وابل الإجاباتالإجابات التقليدية الثابتة المستقاة من الكتب والمصادر التقليدية القديمة والمعدة مسبقاً للرد على أسئلة بسيطة فإن هذا العالم مليء أيضاً بالكثير من القضايا المستحدثة التيالتي تدعونا أن نفكر فيها بشيء من الحداثة-، لقد ساهم عالم الإنترنت في خلق منبر جديد يضج بالأفكار التي تتنوع من مجرد الالدعايةدعاية الشكلية -للمناظرات الأكاديمية الجادة .

وكل هذا مهد الطريق لخلق مسرح يتسع لعقد مناظرات دولية حقيقية تتسم بالوضوح والحرية، ولظهور رسالة الله تعالى واضحة جلية دون اصطباغها بأي صبغة جغرافية أو ألوان محلية أو ثقافات قومية-؛ فالإسلام هو رسالة الله تعالى إلى البشرية، ومحمد ﷺ هو البشير النذير للعالمللعالم كافة، فأين يمكن لهذه الرسالة ونبيها أن يجدا تقديراً الأفضلأفضل مما يمكن أن يقدمه عالم الإنترنت؟ فالعقل المسلم التقليدي ما زال فيفي حيرة لأن الاتجاه الجديد أودى بالطرح القديم آذي-الذي كان يقسم -العالم إلى دار الإسلامالإسلام ودار الكفر إلى طي النسيان-؛ إذ بات من ضروب المحال العيش فيفي جزر منفصلة منغلقة –عن العالم ولا تتصل ببعضها؛ فهؤلاء المولعون بالنظر إليإلى العالم من وراء نظارة الثقافيثقافة أو بالتعرف على رسالة الله تعالى من خلال الثقافة العربية ربما لا يستريحون بالاتجاه الجديد الرامي إلىالرامي إلى الفهم الحر لرسالة الله تعالى من خلال صفحات الإنترنت الإنترنت بعد تحريرها من الصبغة الثقافية القومية؛ فالقول بأن الإسلامالإسلام دين شرق أوسطي والتخطيط التقليديأوسطي بات فكراً آخذاً في الذبول والتلاشي ونفس الشيء ينطبق على العرض التقليدي للإسلام الذيالذي يقدمه مفسروه المبجلون بعد أن ألبسوه عباءة الثقافة العربية.

ففي بعض أحقاب الضعف في تاريخ المسلمين، كان مفكرونا وعلماؤنا يعتقدون أن الطريق الوحيد لضمان بقاء الإسلام يكمن في حماية المظاهر الخارجية والأشكال التقليدية لأسلوب الحياة، وربما كان كتاب "اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم" لمؤلفه ابن تيميه "اقتضاء الصراط المستقيمتيمية -- والذي يعتبر محاولة بائسة -لإيقاف انحطاطنا -, هو الوثيقة الأكثر إفصاحاً عن تلك الرؤية التي لم توضع موضعها السليم؛ فنوعية الإسلام الذي ينبثق من أمثال هذه الأطروحات يعني في المقام الأول بمظهر اللباس والولع بالنأي عن "الآخر"؛ إن هذا التقليد الزائف عديم القيمة - وهو, مجرد إسناد جيد باعتراف ابن تيميهابن تيمية نفسه -- قد أصبح عاملاً فاعلاً في تشكيل العقل الإسلامي في عصر الانحطاط؛ إن ارتباط الإسلام بالثقافة العربية والنظر إليه من خلالها -قد أحدث شكوكاً خطيرة في دعوى عالمية رسالته، بل وأدى إلى وقف سير الدعوة في المناطق غير العربية؛ ولقد كان تأثير هذا الطرح شديدبالغ التأثير حتى وجد له صدى في أماكن مختلفة عبر العصور؛ ففي الهند مثلاً, نجد أن أحمد سرهندي وشاه ولي الله كانا يعتقدان أنه من الواجب على المؤمنين مقاومة أي شئ غير عربي واعتبار مكمن الفخر في كل ما هو عربي؛ ولكن مما يؤسف له أن هذا المظهر العربي الخاص بالنسبة للإسلام أضحى أمراً طبيعياً لدرجة أن كثير منا إلىاليوم لا يكاد يستطيع تصور المسلم الحقيقي من غير ثوب عربي أو زي شرقي.. فعلى مدى قرون طوال ونحن يقال لنا,أن لبس ثوب غير عربي أو قص الشعر بطريقة غير عربية قد يؤدي إلىإلي بطلان عقيدة المسلم، بل وحتى تعلم لغة أجنبية لم يكن عن ذلك ببعيد؛ واستناداً إلى دعاة هذا الفكر لهذه التقاليد الموضوعة أصبح تعلم اللغة الفارسية حراماً، وعلى ذلك فإن تلك الرؤية التحريمية,التحريمية بكل ما تنضوي عليه من مضامين, و ينبغي صل أن تنطبق في عصرنا على اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية واللغات الأجنبية الأخرى-؛ ذلك لأن ثمة اعتقاد خاطئ كان سائداً,، -وكما ارتآه ابن تيميه,تيمية، مفاده أن اللغة الفارسية تدخل المرء إلى مسالك النفاق، بل والأنكى من ذلك - حسب هذا الاعتقاد - أن المسلم إذا استوطن غير أرض المسلمين فإنه سيحشر يوم القيامة في زمرة الكافرين.

إن هذا العرض الجغرافي والثقافي لدين عالمي لم يلزم المسلمين فقط بالانضواء داخل حدودهم النفسية التي هي من صنع أيديهم، ولكنه أيضاً أوجد نوعاً من كراهية الآخر والخوف منه، الأمر الذي يناقض صحيح دعوة القرآن لخلق مجتمع كوني واحد على أساس التوحيد. لقد كان الداعمون للمنظور التوحيدي الجدد يدّعون أنهم دون غيرهم أول من عبد الإله الواحد الحق، غير مدركين لما ينطوي عليه هذا الاتجاه المنغلق من مضامين سلبية؛ فلقد اعتاد الموحدون الجدد أن يدفعوا بقولهم: "أجمع أهل السنة والجماعة أن المسلمين العرب لهم أفضلية على غير العرب"، وهذه المقولة غير المسؤولة إلى جانب أنها تمثل خيانة لتعاليم الإسلام فهي تعبّد الطريق لصراع العرب مع غير العرب، وصراع الشرق مع الغرب.

وفي ذلكم العالم دائم الانكماش بات الخيار الأوحد أمام المؤمنين أن يواكبوا غيرهم بالعيش في نفس الكوكب جنباً إلى جنب مع غير المؤمنين؛ مما يحدو بنا أن نعيد النظر في فهم الموحدين الجدد للإسلام؛ فبجلوس الشخص المؤمن في مقهى للإنترنت بمدينة عربية كالقصيم أو الرياض فإنه يتفاعل في نفس العالم مع ملايين من الغرباء عنه بالكلية؛ أي أمر يمكن أن يثير حفيظة البعض أكثر من أن يختلط المؤمنون بغير المؤمنين والرجال بالنساء في غرفة حوار إلكتروني خاصة؛ ورغم ما ينطوي عليه ذلك الحديث من مخاطر فقد أضحى أمر لا يمكن تفاديه.

ولا يمكننا لوم الموحدين الجدد دون غيرهم بتبني عقلية الفكر المنغلق؛ فهناك أيضاً الصينيون والهنود واليهود والأمريكيون، وكلهم يدعي حقاً منفرداً عن الآخرين في القرن الحادي والعشرين. فقد مرت بعض الأحايين التي أخذ كل منهم يفكر في دائرة فلكه القومي المحض بل وفي وطنية عدوانية؛ وكان السؤال الحيوي الذي فرض نفسه على الكثير منهم هو: لمن تكون الغلبة في القرن الحادي والعشرين؟ وفي وضع تسود فيه طنطنة القومية على تصور " الآخر"، فليس مستغرباً أن تشعر طائفة من المسلمين بعد انهيار "إمبراطورية الشر" أن المعوق الأوحد لقيام دولتهم هم "الأمريكيون الأشرار"؛ وعليه فإن عليهم أن يخططوا لسقوطهم؛ وبينما يبدو وجود هذا الاتجاه نتيجة طبيعية لما يجري في العالم؛ فإنه يضائل من أملنا في المستقبل؛ فلو تصور الملهمون من المسلمين المتدينين - والذين ما زال لديهم تصور ملتبس عن

تخويلهم مسئولية قيادة التاريخ حتى نهاية العالم - لو تصور هؤلاء مستقبل عالمنا من منظور الهيمنة، فأين يستطيع المرء أن يجد ملجأ حينئذ؟! لقد جاء الإسلام لتحرير البشرية من كافة أنواع الهيمنة، ولو آل الأمر بالمسلمين أن يكونوا في مواقع الهيمنة بدلاً من "هيمنة الآخر"؛ فإن ذلك سوف يقوض جوهر وجودهم.

لقد حان الوقت أن نبلور رؤية مستقبلية لعالم لا تتاح فيه الفرصة لطائفة بعينها أن تهيمن دون غيرها على مجريات الأمور، بل عالم يتوحد فيه الجميع كأسرة واحدة تعبد الإله الواحد؛ بهذا المنحى المعتدل ولطرح رؤية الإسلام قدماً وبشكل فاعل، بات لزاماً على المسلمين أن يخرجوا من دائرة تقوقعهم التقليدية. وإذا لم ندرك أننا أيضا لدينا رؤوساً تعلو هاماتنا كتلك التي كانت لأسلافنا، وأن وظيفة رؤوسنا لا تكمن في وضع القبعة أو الطربوش عليها؛ فإننا لن نستطيع أن ننحي الغثاء الفكري الذي جعلْنا نجمعه بمحض إرادتنا طوال قرون من الإبحار الفكري السحيق؛ وأما أولئك المولعون باستخدام مسميات نحو: "الفن الإسلامي"، الفلسفة الإسلامية"، العمارة الإسلامية" إلخ ... سوف يكون تحدياً كبيراً لهم أن يقروا أننا كـ "أمة مسلمة" لم نخول بإبداع ما قمنا به فعلاً من تشييد بغداد العباسية العظيمة، أو إسبانيا الإسلامية ذات البهاء؛ فالأمر لا يحتاج سوى أن يتحول المرء للنموذج الذي أصل له الإسلام ليدرك أن روعة الجمال المعماري لتاج محل والعجائب الأخرى للهند المغولية والتي تذكرنا أحيانا بماضينا المجيد ليست سوى انحرافا عن الدرب النبوي الأصيل.

فالعقل التقليدي الذي ينظر إلى الإسلام على أنه "عبق التاريخ" يقر أيضا بأنهاأيضاً بأنه "دين سماويسماوي"، ويرى أن الوصف الأخير يجب أن يفهم في تناغم كامل مع المعنى الأول، الأمر الذي يشكل تحدياً هائلاً أمام عودتنا إلى الإسلام القويم. لقد تولدتتولدت في أذهاننا القاصرة تشويشاتتشويشات هائلة عن طبيعة الإسلام ووظيفته؛ فنجد على سبيل المثال أن محاولة إحياء الثقافة العربية أو الثقافةالثقافة الشرقية في الغرب قد أظلتهاأظلتها قداسة دينية؛ فحركات التحرر القومي في مختلف أنحاء العالم يتجشمها المسلمون -كنوع من الجهاد تفرضه عليهم التكاليف الشرعية؛ وحقاً فإن الأمة الإسلامية اليوم هي أسوأ الضحايا على الإطلاق لطغيان بوش وبليرالاستبداديتين.؛ وكذلك فإن الواقع يقول أن أمة دائمة المصاب بجراح جديدة لها

الحق في أن تكافح وتقاوم ما~~ا~~ استطاعت إلى ذلك، ولكن رؤية مستقبلية وتطلعاً لكل ما نصبوا ~~إليها~~إليه كأتباع لآخر الشرائع السماوية يجب أن تكون أعمق من مجرد عمليات الخلاص الذاتي~~-~~، فلا ريب أنّا كنا من انتهكت ~~آدميتهم~~آدميتهم في خليج جوانتانامو وسجن أبو غريب، ومن أحرقوا أحياء في شوارع ~~جو جارات.~~ جوجارات؛ إن دمنا هو الدم المسفوك بشكل يومي في فلسطين وبقاع أخرى؛ وكذلك يجب أن لا ~~-~~ننسى في أقصى لحظات انفعالنا ~~أننا~~أننا لن ننزل ~~بالآخرين~~بالآخرين ما فعلوا بنا؛ حاشا لله!~~.~~ فنحن لا نستطيع أن ننغمس ~~في~~في مثل هذا ~~الانتهاك~~الانتهاك الآدمي للبشر أو أن نزهق أرواح الأبرياء؛ وهذا هو مصدر قوتنا.

ففي عالم أرسى فيه القادة الدينيون - ومنذ زمن طويل - طريقة تناول أي قضية على من منظور مجتمعي يهدف لحماية مصالح المجتمع ~~-~~في المقام ~~الأولا~~الأول أكثر مما يعنى بحماية الحقيقة، فإن مناشدة علماء المسلمين وحدهم أن ينظروا إلى ما وراء مصلحة المسلمين أمر قد يدهش الكثيرين؛ وبالرغم من ذلك، فإذا كنا نشعر ~~بالأزمة~~بالأزمة التي يواجهها ~~الإنسان وإذا~~الإنسان ونعي مسئولياتنا تجاه ديننا فإننا لا نستطيع ~~أن~~أن ندع ~~الأيام~~الأيام تمر تباعاً ونحن قابعين في حصن إسلامنا - أي كوننا مسلمين - على أمل أن يأتي ~~مجيء~~اليوم الذي سوف يكون فيه كل ~~شيء على ما يرام.~~شيء على ما يرام.

وقد أدى غلق باب المناقشة في أمور القرآن وإحاطته بسياج حديدي إلى تحجر العقل المسلم؛ فلم يكن أمام الشخص المسلم في العصور التالية سوى أن يكتسي بثوب الفقه السائد في الدولة العباسية ببغداد. وبما أننا نحيا في القرن الحادي والعشرين فإنه يتملكنا شعورٌ غير مريحٍ بأن الذين يتولون شؤون ديننا هم عظماء الماضي والذين ماتوا منذ فترة طويلة ولذلك لا يمكننا إلقاء اللوم عليهم علي عدم معرفتهم الكافية لعالمنا الحاضر. فنحن المسلمون - ولقرون عديدة - نعيش بلا رائد ولا عقل متفتح يساعدنا على التفاعل مع النص القرآني. قال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان:30)

ولكننا في الحقيقة أمة تعاني من الجهل بحقيقة الاعتصام بكتاب الله. وفي الوقت الذي توصل فيه معظمنا إلى حد اعتبار العلوم القرآنية الكثيرة التي جاءت بعد القرآن امتدادا طبيعيا له، اعتقدنا خطئًا أن إعادة صياغة الإسلام من الناحية الفقهية تعني مجرد عمل نسخة مبسطة منه وتطبيق أحكام الفقه مدعين أن الأقوال الفقهية المأثورة السابقة لها نفس المكانة العظيمة التي يتمتع بها القرآن نفسه. فمثل هذه الآراء المغلوطة والتي تمنع المحاولات الإنسانية الناجحة للتفسير تخلق هواجس خطيرة عن طبيعة ونطاق أي حضارة مستقبلية للإسلام.

غياب لغة الحوار

مع رسوخ جذور الهيمنة الأمريكية على العالم بقوة أصبح يتردد الآن على مسامعنا مصطلح الإسلام على الطريقة الأمريكية، الأمر الذي جعل زعيم إيران الروحي علي خامنئي يعبر عن استياءه قائلاً "إن هذا النوع من الإسلام نوع رجعى يتفق مع المبادئ الأمريكية والأهداف الغربية". فهذا القلق الذي يساور الخامنئي وغيره من قادة العالم الإسلامي له ما يبرره. فقد شهدت الأعوام الأخيرة تطورًا مفاجئًا للمفهوم الحديث للمنقذ الذي سوف يخلص هؤلاء المسلمين الذين ينظرون إلى الإسلام من خلال المنظور الفاسد للسياسة الخارجية الأمريكية والذين يطلقون على السيد بوش لقب "منقذ العالم الإسلامي"؛ فبالنسبة لهم، بل وربما الأنسب بالنسبة لهم، أنه جاء "للتحرير وليس للحرب". وهناك العديد من المسلمين الذين يعيشون في الولايات المتحدة الأمريكية يؤيدون علانية، إن لم يكن يحثون على، تلك الفكرة التي تدعي أن غزوالعراق هوالملاذ الوحيد لإصلاح العالم العربي. علاوة على أنه يوجد الكثير من المتحمسين جاهزون للوقوف بجانب صفوف المقاتلين الأمريكيين من أجل الولايات المتحدة الأمريكية، والأنكى من ذلك أنهم يعتبرونه نوع من التكليف الإلهي والواجب القومي؛ إذاً، هذا هوالإسلام على الطريقة الأمريكية .

ومع ذلك، واستنادا إلى تلك الخطب الرنانة والتي نسمعها سواء في الرياض أوالقاهرة أوإسلام أباد، فإن الكره الإسلامي تجاه الولايات المتحدة الأمريكية لم يصل إلى حد التطرف. والصوت الإسلامي السائد والغالب يرى أن ما يجري في العراق لا

يعد فقط مجرد صراع بين المستبد والمضطهد، أوبين المتسعمر وضحايا الاستعمار، ولكنه ينظر إلى القضية على أنها معركة بين الإسلام والكفر، أي أنها جهاد. فالذي يجري في العراق الآن مأساة مفجعة حقا، لكن النظرة الأحادية لمجريات الأمور تعد تبسيطًا شديدًا للآراء العديدة المعقدة المثارة حول القضية بأسرها. ومن بين البعثيين والإسلاميين والقوميين من وجد في حركة المقاومة فرصة لإعادة ترتيب أولويات جدول أعماله المتواضع. وحقيقة، لابد ا من مقاومة الإمبريالية بكافة أشكالها، ولكن كي نتمكن من تدعيم وتقوية جبهة المقاومة، يجب علينا عدم تحريف مضمون النصوص الدينية. وفي المستقبل إذا تضاربت المحصلة النهائية لهذه المقاومة مع النتائج المتوقعة من الجهاد – وهذا ما يحتمل حدوثه في القضية العراقية كما حدث في قضية المجاهدين الأفغان – فسوف يضيف المزيد إلى خيبة أمل معسكر الإسلاميين. وقد بالغ العلماء الوهابيون المحدثون قليلاُ في حبهم للعراق حينما قاموا مؤخراً بإصدار فتوى تعلن أن المقاومة في العراق تعتبرجهادًا إسلاميًا، وواجبًا دينيًا على المؤمنين كافة. ومع ذلك، فالجماعة الوهابية الجديدة ليست وحدها هي التي تستخدم، أوبالأحرى تسيئ استخدام المفرادات الدينية، فنفس الشئ ينطبق على علماء الاتجاهات السائدة والمنظمات الدينية المعاصرة. فهم أحيانا يعبرون عن مصداقيتهم بمدى ما يظهرونه من حماس للجهاد وأحيانا أخرى يفضلون التزام الصمت بدعوى الحفاظ على مصالح الأمة.

والموضوع الذي نحن بصدد مناقشته هنا ليس تحديد جانب الصراع الذي يجب أن ننحاز إليه، ولكنه يكمن في كيفية استغلال مشاعرنا الدينية للتعامل بأمانة شديدة مع القضايا الحيوية التي يجب أن نتناولها بشكل مستمر. إن عدم الأمانة الفكرية أواللامبالاة قد تبدوأنها تدعم الكفاح في وقتنا الحالي ولكنها على المدى البعيد تؤدى إلى ضعضعة الأساس الأيديولوجي الذي تقوم عليه مبادئنا. فالمفرادات الفتوية التي تهدف إلى إخماد أي نقاش يقوم على أسس سليمة قد تركت المسلمين المعنيين في شتات فكري، فكيف يكون الإسلام الذي يبيح للمسلمين الامريكين الاشتراك في الحرب التي شنتها الولايات المتحدة الأمريكية على العراق هونفسه الدين الذي يطالب

المسلمين في أنحاء أخرى من العالم بالاستبسال من أجل مقاومة نفس الجيش الاستعماري.

وسواء كان المسلمون من معتنقي الإسلام على الطريقة الأمريكية أومن نظرائهم من أتباع الجماعة الوهابية أوحتى من الملالي في إيران، فهم جميعا يعوزهم فهم نقطة هامة، وهي أنهم بدلاً من أن ينظروا إلى الموضوع من خلال وجهة نظر جديدة وطبقاً للمنظور القرآني، فقد ساروا على الطريق الخطأ من خلال هذا النوع من المعرفة الفتوية التي لا تعطي مساحة كافية لطرح المزيد من الاسئلة أوالمناقشات المثمرة. فلا يلزم أبدا حشوالتفكير الفتوي بمصطلحات فقهية منغلقة تماما وترفض دائما أية إعادة للتفكير؛ حيث يرتكز العقل الفتوي بشكل أساسي على الأهواء والرغبات الشخصية فيما يحب وما لا يحب. وهذه النوع المنغلق يقف عائقًا أمام أية إمكانية لوجود نقاش مبدع داخل البيت الإسلامي في قضايا بالغة الأهمية، مما يؤدي بنا إلى طريق مسدود؛ وهذا ما يمكن أن نطلق عليه "غياب لغة الحوار". وهوفي واقع الأمر، أساس كل الأزمات والمتسبب في وجود حلقة مفرغة تدور فيها الأمة منذ قرون طويلة. ويتطلب هذا الموقف منا أن ننظر إلى القرآن نظرة مجددة نستطيع من خلالها أن نجد إجابة جديدة، ولكن غياب لغة الحوارالخلاق بيننا يعرقل أية فرصة لتحقيق ذلك.

ودعونا الآن نشرح ذلك، ففي باكستان - وأثناء فترة رئاسة أيوب خان- كان الموضوع الشاغل الذي تم طرحه على طاولة النقاش هو"إذا كان لباكستان أن تصبح دولة إسلامية فأي المذاهب الفقهية الأربعة أوالخمسة سيتم تطبيقه رسميا؟". ومع إدراك العلماء التام للخطر الداهم المتوقع من هذا الموضوع، إلا أنهم ببساطة فضلوا تجنب أي حوار جاد حول هذه المشكلة الحيوية مبررين ذلك بأن الفقه الحنفي يجب أن يتم تطبيقه رسميا باعتباره مذهب أغلبية المسلمين في باكستان. وإننا بذلك نتجاهل حقيقة هامة وهى أن أنصار كل مذهب من المذاهب الفقهية سيظلون متمسكين به لأنهم يعتقدون أن المذهب الفقهي الذي يتبعونه هو الأقرب إلى الصواب ولذلك فإنهم لا يريدون التخلي عن وجهة نظرهم. وتتطلب عملية تأسيس باكستان حديثة وإرساء الواقع الجديدة في القرن العشرين من مفكري وعلماء الإسلام سبر أغوار الأسس النفسية والتاريخية والسياسية والاجتماعية لصراع المدارس الفقهية الأربع التي تنظر

إلى الوحي باعتباره مجموعة من التعليمات المقننة، بل والمتحجرة والتي لا تعطي أية مساحة لبدء أي حوار قرآني خالص مجددًا. ولو قدر لهذا الحوار أن يبدأ في دولة باكستان المستقلة لاكتست تلك الدولة بحلة جديدة مغايرة تماما لما هي عليه الآن.

ولا يجب علينا أن نغفل حقيقة أن القرآن هو نبع الحوار الذي لا ينضب أبدًا، فهو دعوى إلى التأمل والتدبر وطرح التساؤلات والاستنباط في محاولة مستمرة للوصول إلى الكمال الذي لا يمكن بلوغه. فقد شاع استخدام لفظ "قل" في القرآن ردا على لفظ "يسألون" مما يشير إلى حقيقة أن القرآن لا يطالبنا أن نبقى مكبلين بالقيود التي يفرضها الفكر الفتوي على العقل. ولكن القرآن يحثنا على ان نفتح قلوبنا وعقولنا لاستقبال كلام الله دائما حيث يقول

﴿ .... أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (محمد 24)

كما يدعونا أن نستغل قدراتنا العقلية التي وهبنا الله إياها. فكل إنسان مطالب بأن يستخدم عقله، فمجرد الاعتماد على المعرفة التي أرسى دعائمها من مات من العلماء السابقين لا تمثل بداية سليمة لكل من يتحرى الحقيقة. فالطريقة التي كان يتعبد بها السلف، بغض النظر عن مدى ما كانوا عليه من ورع وتقوى وعظم شأن، لا تختلف عن الاستعباد العقلي للمشركين الذين يستحقون لعنة الله حيث إنهم قالوا

﴿ ... وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (الشعراء 74)

فإثارة التساؤلات والحوارات فيما يتعلق بدور الإنسان ومكانته في هذا الوجود لا تتوقف حتى بعد أن يسلم الإنسان وجهه لله تعالى. فالفهم العميق للكون والخوف الذي يستحضره هذا الفهم إلى ذلك القلب الوجل من خشية الله يمنح الإنسان القوة اللازمة للقيام بدور قيادي، فالله تعالى يقول في كتابه العزيز

﴿...إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْ ...﴿٢٨﴾ ﴾ (فاطر 28)

والمؤمن بصفته جزء لا يتجزء من الخطاب القرآني لا يقنط أبدا من محاولة الوصول إلي إجابات مبتكرة، حتى في أحلك لحظات الكوارث التي تواجهه.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (البقرة 214)

وقد أدى غلق باب الحوار داخل البيت الإسلامي إلى تمزقنا إربا. فقد جعلت قدسية النص القرآني وقوة التوحيد التي لطالما فرض عليها الفقهاء والمفسرون ومن بَعدِهم المؤرخون والمحدِّثون سياجًا كبيرًا يبعدنا عن محاولة فهم القرآن بطريقة جديدة خلاقة وجعل منها عملية مستحيلة. وقد كان هذا السياج محكما لدرجة أننا عندما نتحمس لأن نقترب من القرآن نجدنا قد انسقنا دون أن ندرى إلي التقليد الأعمى للسلف الصالح. وهذه هى الصورة التي نقلها لنا القرآن عن أمة سابقة جردت من أصالتها ومن التفكير الإبداعي وحكم عليها أن تحيا حياة القردة عندما قال:

﴿ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴾ (الأعراف: 166)

فوجود الحوار داخل جدران البيت الإسلامي يحمل بين طياته وعدًا بدحض الهويات الدينية المزعومة كالحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية... الخ. فلوكنا ورثنا حوارًا دينيا لا ينضب من الفقهاء الأجلاء الذين نعتبرهم الينبوع المقدس للدين ومجموعة من الناس المعينين من قبل السماء، لكان الموقف مختلف تماما. فنحن لا نستطيع أن نغض الطرف عن العوامل التاريخية المسئولة عن تمجيد المدارس الفقهية الأربع في القرن التاسع. فإقرار هذه المدارس الأربع من بين أربعين مدرسة فقهية كان حلاً وسطًا يهدف إلى إنهاء النزاع الداخلي؛ لذلك لا نستطيع أن نعتبر ذلك منطقة مقدسة ولا يجب أن نعتبرها كذلك. فإذا ما كانت هذه المدارس الفقهية الأربع قد أعطيت الحق في صياغة دستور حياتنا استنادًا إلى فهمهم الخاص للوحي، فهل نستطيع أن ننكر مثل هذا الشرف علي مذهب خامس أو سادس بسبب ظهوره في فترة زمنية لاحقة؟ ومما لاشك فيه أن هناك محاولات جادة بذلت في الماضي لكسر جمود الحوار الديني ، فابتداءً من الظاهري إلى ابن حزم ومن ابن تيمية إلي محمد بن عبد الوهاب تم بذل العديد من المحاولات لكسر قيود الجمود في الفكر الإسلامي. وعلى الرغم من أن هذه

المحاولات لم تؤتي ثمارها المرجوة، إلا أنها مهدت الطريق أمام حركات الإصلاح التالية. ولا ينبغي علينا الاستهانة بهذا السياج الحديدي الذي أحاط به الوهابيون الحرم المكي واقتضاب المذاهب الأربعة الموجودة فيما يتعلق بأمور الصلاة إلى مذهب واحد. ومع ذلك فقد كانت هذه الحركة المفعمة بالحيوية والقوة قد حولت رموزهم الثوريين كإبن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب إلى قادة طائفين مما أدى إلى تضاؤل آمال العودة إلى نقاء الإسلام الأصيل.

وقد أدى غلق باب المناقشة في أمور القرآن وإحاطته بسياج حديدي إلى تحجر العقل المسلم؛ فلم يكن أمام الشخص المسلم في العصور التالية سوى أن يكتسي بثوب الفقه السائد في الدولة العباسية ببغداد. وبما أننا نحيا في القرن الحادي والعشرين فإنه يتملكنا شعورٌ غير مريحٍ بأن الذين يتولون شؤون ديننا هم عظماء الماضي والذين ماتوا منذ فترة طويلة ولذلك لا يمكننا إلقاء اللوم عليهم علي عدم معرفتهم الكافية لعالمنا الحاضر. فنحن المسلمون - ولقرون عديدة - نعيش بلا رائد ولا عقل متفتح يساعدنا على التفاعل مع النص القرآني. قال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا﴾ (الفرقان:30)

ولقد أكد لنا النبي (صلى الله عليه وسلم)، كما جاء في معنى الحديث أن الله يرفع مكانة الأمة التي تعتصم بالقرآن. ويتساءل المرء عن سبب تردي حال الأمة الإسلامية، والتي دائما ما تجد نفسها في منحدر منزلق. ولن يستطيع أحد أن يضاهي حبنا للقرآن بداية من الحرص على تلاوته وحفظه عن ظهر قلب وصولا إلى نشر طبعات فاخرة مزخرفة منه، ولقد بنينا تراثًا لا تستطيع أمة أخرى غيرنا أن تدعي مثله. ولكننا في الحقيقة أمة تعاني من الجهل بحقيقة الاعتصام بكتاب الله. وفي الوقت الذي توصل فيه معظمنا إلى حد اعتبار العلوم القرآنية الكثيرة التي جاءت بعد القرآن امتدادا طبيعيا له، اعتقدنا خطئًا أن إعادة صياغة الإسلام من الناحية الفقهية تعني مجرد عمل نسخة مبسطة منه وتطبيق أحكام الفقه مدعين أن الأقوال الفقهية المأثورة السابقة لها نفس المكانة العظيمة التي يتمتع بها القرآن نفسه. فمثل هذه الآراء

المغلوطة والتي تمنع المحاولات الإنسانية الناجحة للتفسير تخلق هواجس خطيرة عن طبيعة ونطاق أي حضارة مستقبلية للإسلام.

ولن يتحقق لنا السمو بالقرآن إلا إذا كنا مستعدين للتفاعل مع النص القرآني بأنفسنا، وإذا ما تحلينا بالشجاعة والبسالة اللازمة لقبول تحديات الوحي. فالقرآن هو دعوة عامة وكتاب شامل ومصدر لتخفيف آلام البشرية جمعاء. فهو يحث على تفتح العقول، والتسامح العظيم، واحترام وتقبل الآخر، كما يدعو إلى نشر العدل والحفاظ على كرامة الجميع. فالنموذج الحقيقي للتوحيد يمَّكن المؤمن من النظر إلى الجنس البشري كله على أنهم عباد إله واحد يحتاجون إلى المواساة والنجاة، وفي نفس الوقت ينظر إلى نفسه على أنه يمكنه مساعدة البشرية باعتباره من أتباع نبي الله (صلى الله عليه وسلم). فالأمم التي تسيطر على العالم اليوم قد تجسدت فيها هذه الأهداف بصورة أفضل منا؛ وهذا هو السر وراء قيادتهم للعالم. وبينما نحن ممزقون في سجال المناقشات الفقهية، نجد انه من الصعب منح حق حياة كريمة للأشخاص الذين ينتمون إلى مجتمعات دينية أخرى أو حتى للمسلمين الذين ينتمون لاتجاهات مختلفة.

وكان سقوط حركة طالبان بمثابة فاجعة محزنة للأمة، ولكن هذه هي سنة الله وقوانين الطبيعة. فكيف يتسنى لهؤلاء الذين لا يستطيعون أن يحتضنوا إخوانهم وأخواتهم في الدين، أن تعهد إليهم مسئولية قيادة العالم. وبعيدا عن أي من تلك الاعتراضات والتغييرات الفقهية علينا أن نعيد صياغة وجهة النظر القرآنية العالمية لمفهوم سيادة السلام والعدل للجميع. وإذا لم نجعل مرجعيتنا الأساسية في جميع القضايا للقرآن، فسوف تظل وجهات النظر المتضاربة عن الإسلام تطاردنا، وسوف تظل شعارات "الإسلام هو الحل" و"القرآن هو الحل" مجرد شعارات جامدة، وسوف يظل يُنظر للمسلمين على أنهم أمة متحجرة انتهى فيها أي إبداع عقلي.

ومن الطبيعي أن يقودنا ذلك إلى طرح سؤال آخر هو: كيف يمكن لأمة رفعها الله لتقود العالم وتمثلت شرعتها الوحيدة في تقديم يد العون لبقية الأمم وهداية البشرية جمعاء وإرشادها أن تصبح هي نفسها طرفًا في الصراعات الدنيوية الحقيرة؟ وخلال القرون الكثيرة الماضية، رأى أنصار الإسلام الدين الإسلامي من منظور المقاومة بشكل أساسي، فبدلاً من تقديم الإسلام للعالم على أنه رسالة سلام ورحمة وظهور المسلمين بمظهر الإحسان والخيرية إلى البشرية جمعاء، أخذنا على عاتقنا مهمة الدفاع عن الإسلام، ويُعد مثل هذا التصور للإسلام من منظور المقاومة بمثابة انحراف واضح عن الدور الذي اختاره الله لنا، مما أجبرنا على الابتعاد طواعية عن قيادة العالم.

هل هناك إمكانية للتنوير من جديد؟

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝ ﴾

إن سراب المدركات الحسية هو إحدى لعنات العصر الحديث؛ ففي عالم الأوهام التي يخلقها الإعلام، حُرم الإنسان من حق المعرفة، ومن رؤية الأشياء كما هي على حقيقتها، الأمر الذي أودى بنا إلى أن نفقد الإدراك الكامل للأزمات الكبيرة التي نعيشها في عصرنا الحاضر، كما أدى إلى التهديد البيئي لكوكب الأرض وتحول الإنسان إلى آلة على يدي ذلك المارد الرأسمالي المعروف باسم "العولمة". وقد عاد الإنسان في أصفاده مرة أخرى، ولكن الأصفاد التي تكبله هذه المرة لا تتراءى للعيان. وقد أدى موقفٌ مشابه حدث من قبل إلى إرسال أنبياء الله لهداية الناس بنور الوحي وجعلهم يرون الأشياء كما هي، كما قال رسول الله ﷺ "اللهم أرني الأشياء كما هي".

ولقد اصطفى الله تعالى أنبيائه بالنور والبصيرة التي لا تضاهى، وعُهد إلى أتباعهم برؤية شاملة جديدة أو، فلنقل، تجربة تغيير النموذج المعرفي. هذه الرحلة من الظلمات إلى النور، كما بينها القرآن الكريم، تجعل الأعمى يرى وتملأ النفس القانطة بحماس جديد للحياة. وهذا المجتمع الذي ظل يرقد في سبات عميق ويتبوأ مكانة متدنية لفترة ليست بالقصيرة قد شهد تجدد الحياة مع قدوم أنبياء الله. وتأتي قصة عيسى عليه السلام كما ذكرها القرآن الكريم كأحد الأمثلة التي بينت أن مجئ نبي من أنبياء الله قد جعل أعمى البصيرة يرى بنور الإيمان ومن مات قلبه يحيا بهذا النور.

وهؤلاء الذين يعيشون على متن طائرة مادية، غير مدركين للأهداف النبيلة للحياة، ويمرون بهذا التغيير لدرجة أنهم يشعرون أنهم أقل اتصالا بالأرض منهم بالسماء. واستخدم القرآن الكريم مثل الطائر الذي خُلق من الطين وعندما نفخت فيه الروح طار إلى السماء، وهي المصدر المجازي للروحانية. ويخبرنا الله تعالى في موضع آخر في القرآن أنَّ القدرة على رؤية الأشياء كما هي لا تعتمد على إدراكاتنا الحسية المجردة؛ قال تعالى:

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾

ولأننا نبعد عن عصر خاتم الأنبياء بفترة زمنية تصل إلى حوالي أربعة عشر قرنًا، يراودنا الآن شعورٌ بعدم الارتياح لأن الظلام قد حلَّ بنا مرة أخرى؛ ومع زيادة صعوبة الرؤية من خلال التلاعب الماكر بالصورة الإعلامية في العالم المعاصر. وهو إدراك يستند إلى الصورة نحمله معنا طيلة حياتنا، حيث يعتقد معظمنا أن الرؤية هي ما تريدنا الكاميرا أن نراه فقط، ونذهب إلى المكان الذي تذهب إليه الكاميرا، كما تعلمنا أيضًا أن نعتمد على إدراكنا الحسي فقط الذي يجعل القلوب التي في الصدور لا تعمل. صحيح أنَّ بيننا أمة تحيا وتعتبر نفسها هي الوريث الحق لخاتم الأنبياء وتزعم أنها هي التي تحمل الرسالة الخاتمة، **"شفاء لما في الصدور"**، ولكنهم لا يريدون حتى أن فتحوا كتاب الله بأنفسهم، واكتفوا بأن ينظروا إلى القرآن بأعين العلماء السابقين، الذين ماتوا منذ زمن بعيد ولا يستطيعون، بسبب عدم علمهم بمجريات الأمور في عصرنا، أن يخبرونا بكيفية إحداث هذا التنوير في بيئتنا. ولأنَّ القرآن مازال محصورًا في فهم السابقين له، فإن السلف والأمة وكذلك باقي العالم محكوم عليهم بالعيش في الظلمات متخذين نفس المنهج الذي تبعه روبنسون كروزو، تلك الشخصية التي ألفها الكاتب الإنجليزي دانيال دوفو، وينتظرون قدوم مسيحٍ يخلصهم.

وربما يبدو علي المسلمين في هذا العصر أنهم أمة مثبطة الهمة فليسوا وحدهم الذين طال بهم الأمد في انتظار المسيح، بل وقد كانت أسطورة المسيح سببًا في إحداث المزيد من الفوضى في الدوائر اليهودية والمسيحية، بصورة أخطر من أي مكان آخر. وربما تزهوا المسيحية فخرًا بكونها أكبر ديانة علي وجه البسيطة انطلاقًا

من العدد الهائل لمعتنقيها ولكن الحقيقة هي أن المد المسيحي يعاني حالة من التراجع منذ قرون.

وبداية من المذهب الكاثوليكي الذي بسط نفوذه علي المجتمع في فترة من الزمن وحتى ظهور الرأسمالية الليبرالية، أبدت المسيحية درجة كبيرة من التساهل جعلتها الآن تبقي علي كاهنٍ مثلي في منصبه. وفي غرب ما بعد المسيحية، كما يراه الكثير منا وهم علي صواب، فإن رحلتنا من أجل تحقيق تلك المُثل البشرية التي طالما كانت محببة إلي نفوسنا والتي تتمثل في الحرية والاستقلال قد أودت بنا في نهاية المطاف إلي الحالة التي وجدنا أنفسنا عليها؛ واقعين تحت رحمة الليبرالية الفاشية.

أما أولئك الذين جال بخاطرهم، ذات مرة، بأن ظهور عالم متحرر قائم علي أسس ديموقراطية أصبح وشيكًا وبأن التاريخ يسير بسرعة لبلوغ نهايته المحتومة لم يجانبهم الصواب في هذا الرأي. فنهاية الحرب الباردة أو وترسيم الستار الحديدي (بين الاتحاد السوفيتي وأوروبا الغربية) قد ألقي الضوء علي مفارقات عديدة للرأسمالية أكثر من تلك الاختلافات المتعلقة بالدولة الاستبدادية، فلم يعد من الصعب الآن رؤية الوجه القبيح للرأسمالية ولا رؤية أسباب ثراء الولايات المتحدة وعلي حساب من كان ذلك الثراء.

ويقدر عدد سكان الولايات المتحدة بنحو ثلث عدد سكان الهند ومع ذلك فهم يستهلكون أكثر من ثلث موارد العالم ولو أن الشعب الهندي طمح إلي مثل ذلك المستوي المعيشي فإن باقي سكان المعمورة سيموت جوعًا لا محالة. ولا يدعم العقلاء في شتى أنحاء العالم هذا الافتراض غير الأخلاقي. إلا أن نير الليبرالية الفاشية كان بالغ السطوة لدرجة أنه لم يعد الإنسان وحده هو الذي يشعر بالعجز، بل إن الرأسمالية الإنجيلية قد وظفت الله سبحانه وتعالى لخدمة أغراضها حيث ظهرت عبارة "ليبارك الرب أمريكا".

إن العالم الآن يسير بسرعة شديدة نحو نقطة النهاية ولن يقوي أحد علي السيطرة علي تلك المحاولات الخرقاء للسعي وراء الليبرالية الفاشية. تسود في الشرق بعض حالات السخط والاعتراضات إلا أنها ليست بتلك الفعالية التي تمكنها من وقف أي تهديد يوجه للمذهب الرأسمالي الذي أشاع مبدأ العولمة في جميع أرجاء كوكب

الأرض. وتسود الآن علي نطاق عالمي حالة من العجز التام الذي أوقع البشرية في قبضة النازية الألمانية أو الفاشية الإيطالية ثم في المناطق المتمركزة حولها.

ومع ذلك فهذا ليس إلا وجهًا واحدًا من أوجه القضية، إذ أن إلقاء اللوم علي الآخرين لما ألم بنا من ويلاتٍ ليس انصافًا ولن يصل بنا إلي أية نتيجة، فلماذا أفلت زمام التاريخ من أيدينا تمامًا وأصبح العالم بأسره، بما فيه نحن المسلمين، واقعًا تحت رحمة الرأسمالية الفاشية؟ ذلكم هو السؤال الذي يجدر بنا أن نكف عن التهرب منه لأمد بعيد والذي يستحق اهتمامنا العاجل والجاد.

ومن الطبيعي أن يقودنا ذلك إلى طرح سؤال آخر هو: كيف يمكن لأمة رفعها الله لتقود العالم وتمثلت شرعتها الوحيدة في تقديم يد العون لبقية الأمم وهداية البشرية جمعاء وإرشادها أن تصبح هي نفسها طرفًا في الصراعات الدنيوية الحقيرة؟ وخلال القرون الكثيرة الماضية، رأى أنصار الإسلام الدين الإسلامي من منظور المقاومة بشكل أساسي، فبدلاً من تقديم الإسلام للعالم على أنه رسالة سلام ورحمة وظهور المسلمين بمظهر الإحسان والخيرية إلى البشرية جمعاء، أخذنا على عاتقنا مهمة الدفاع عن الإسلام، ويُعد مثل هذا التصور للإسلام من منظور المقاومة بمثابة انحراف واضح عن الدور الذي اختاره الله لنا، مما أجبرنا على الابتعاد طواعية عن قيادة العالم.

وقد نفخر بكوننا أمة النبي الخاتم وحملة أخر الرسالات السماوية ولكننا على أرض الواقع لم نعد الأمة التي تحتل مركز الصدارة، وربما تزعم منتدياتنا الإسلامية التقليدية بأننا ورثة المعرفة الإلهية ولكنها ليس لديها صلة حتى الآن بالعالم التكنولوجي الحديث, فلم يعد العالم يعتمد علينا، بل أصبحنا نحن الذين نعول عليه؛ فدائما ما وضعتنا أفكارنا المغلوطة عن المعرفة، مثل النظر إلى العلوم الإسلامية باعتبارها المعرفة الكاملة، على حافة منزلقة. أما الراغبون في الخروج من مثل هذا المأزق ممن يودون أن يجعلوا من المستحيل ممكنًا في غمرة حماسهم الديني فإنهم ويفتقدون إلى المنهجية المناسبة لذلك، وحيث إن الكثير من تراثنا الديني والفقهي يعمل على توظيف لغة المقاومة، فقد أخبرونا عن كيفية الموت في سبيل الإسلام ولكنهم لم يوضحوا لنا كيف نحيا من أجله، علاوة على ذلك، فهناك أناس يعيشون بيننا من

أولئك الذين قد لجئوا إلى المُثل التحررية الغربية أثناء محاولاتهم للبحث عن فجر جديد. فمن الصعب عليهم تقدير لغة المقاومة بينما على الجانب الأخر لم يعد بمقدورهم اكتشاف النموذج القرآني للرحمة، فرؤيتنا للإسلام على أنه مجرد حركة سياسية جعل من الصعب علينا العثور على نموذج الرحمة المفقود؛ فالإسلام كحركة سياسية صاحب إطلاقها صخب كثير في عصرنا الحاضر، قد ركز إلى حد بعيد على تطبيق الشريعة أو بعث الحياة من جديد طبقًا لوجهة نظر كبار علماء الفقه السابقين، وقد نقل ذلك لنطاق أوسع من العالم صوره ظهر فيها الإسلام كما لو كان لا يملك شيء جديد ليقدمه ويرجع ذلك إلى أن المسلمين كانوا غير مؤهلين لفهم القرآن من منظور مجدد، فقد أدى التطبيق الأعمى للشريعة (الفقه) إلى بروز رؤية فقهية طائفية عن التاريخ الماضي. وفي غمرة حماسنا للشريعة، لم نعبأ حتى بالتحقق مما إذا كان كبار العلماء القدامى قد جسدوا التعاليم الإسلامية فعلاً أم أن صياغتهم قد تأثرت إلى حد بعيد بمحيطهم الاجتماعي الخاص بهم، وأراد الراغبون في إضفاء الشرعية على حكمهم الاستبدادي في المقام الأول إخضاع الشريعة طوع بنانهم.

والشريعة كما فهمتها ومارستها طالبان أو كما تبناها تحالف مجلس العمل الموحد في باكستان أو كما قام قادة الجماعة الإسلامية مؤخرا بمناصرتها أثناء الميثاق الباكستاني قد أقنعتنا فقط بأن الحركات الإسلامية لا بد أن تنبع من الأوساط الفقهية للعصر العباسي، ولم يستطيعوا حتى الآن أن يفهموا الإسلام بطريقة أخرى مغايرة للغة المقاومة أو تقديم رسالة الإسلام للعالم الخارجي بلغة أكثر اتساعًا من الإحسان ورحمة الله التي لا تنضب أبدًا، فلو فهمنا الإسلام بلغة الرحمة، فإنه سيظهر لنا باعتباره الملاذ الآمن لجميع النفوس البائسة والقلوب المحطمة في بحثها عن العزاء، على العكس من ذلك، تؤدي لغة المقاومة إلى غرس بذور الضغائن الطائفية في داخل بيت الإسلام. وسواء في باكستان أم تونس أم الجزائر أم مصر أم في أي مكان وظفت فيه الحركات الإسلامية لغة المقاومة، أدى ذلك إلى انقسام المجتمع المسلم على نحو خطير، وعلى الرغم من أن الحركة الإسلامية هي ظاهرة تنتمي للقرن العشرين والتي نتجت عن الهجمات الاستعمارية إلا أنها تبدو ظاهرة وستنتهي. وينطبق نفس الشيء على السلفيين الجدد، الذين كانوا يومًا ما مناصرين للمنهج الإبداعي في تناول

القرآن والسنة والذين أدى اعتمادهم على ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب، للآسف، إلى تقديس الرموز أو عقلية منغلقة كما وصفها القرآن:

﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (الشعراء، 74)

فنحن نعاني من أزمة ذات وجهين، ففي الوقت الذي يعيش فيه العالم في ظل التراجع المستمر للرأسمالية الفاشية، انهمك أتباع خاتم الأنبياء في خوض معركة الدفاع عن بقائهم، على الرغم من وجود آخر الرسالات السماوية التي أرسلها الله بيننا، وعلى الرغم من اعتمادنا المفرط على علم السابقين من البشر، وعلى المحاولات التفسيرية لأساطين العلم، فنحن المسلمين نفتقد إلى رؤية مستقبلية إبداعية نابضة بالحياة. إن مجرد فكرة قيامنا بمحاولة فهم الوحي بأنفسنا، في سياق حياتنا الخاصة لم ترد حتى بمخيلة أولئك الذين يواصلون إلقاء الخطب حول الدولة الإسلامية النموذجية، فالخطاب الإسلامي في عصرنا الحالي الذي - على حد قول سيد قطب - يسلط الضوء على "المنطق الوجداني" قد ضيق المجال أمام أية محاولة لطرح أي تساؤل عقلاني أو نقدي. وإذا استخدمنا تعبير من تعبيرات "كانط"، فقد عزز ذلك بيننا ظهور حالة من "عدم النضج الطوعي" في محاولاتنا لفهم الوحي، فرؤيتنا للوحي هي رؤية من الخبرة الماضية التي كانت قد أضاءت لنا الطريق فيما مضى منذ أربعة عشر قرنًا. في الأغلب الأعم، يعد ذلك مجرد جزء من هويتنا التاريخية وليس تجربة ملموسة، فنحن ننظر للقرآن بوصفه معين لا ينضب لتراث عظيم من النور وليس كأنه نورٌ في حد ذاته، نتيجة لذلك، وعلى مدار العديد من القرون، تعاني الأمة من حالة مستمرة من التردي، فهي تتراجع من النور إلى الظلمات.

ومع الظلام يوجد شعور بعدم الأمان والشك تجاه المستقبل، وإذا ما حل هذا الظلام فلن يكون له علاج إلا نور الوحي، قال تعالى:

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (البقرة: 17)

إن الأمم التي حرمت من نور الوحي محكوم عليها أن تعيش في خوف دائم من المجهول،

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ...﴾ (البقرة: 19)

فومضات البرق بدلا من أن تنير لهم الطريق، تحجب أبصارهم عن الرؤية،

﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ....﴾ (البقرة: 20)

فهو في الظاهر يمكنهم من الرؤية لبرهة، ثم ينساقون وراءه انسياقًا بلا معنى، فإذا ما أفل النور عادوا إلى الجمود. وفي الحقيقة لا يوجد ما يعكس وضعنا الحالي أفضل من هذه الوصف القرآني.

إن خطورة الموقف تتطلب منا أن نضع حدًا لرحلتنا العكسية من النور إلى الظلمات، ومثل هذه المهام العظيمة لم يقم بها في الماضي سوى الأنبياء، وبما أنه لن يُبعث نبي في الوقت الحاضر، وأصبحت آخر الرسالات كأنما هي النبي الغائب، فإن علينا نحن أتباع النبي محمد أن نعمل على خلق تنوير جديد. وطالما ظل كتاب الله بيننا، وطالما امتلكنا الجرأة والشجاعة لأن ندرسه بأنفسنا، فإنه لن تُستبعد أمكانية ظهور التنوير الجديد.

إن الظلام الروحي الذي حل بالعالم اليوم ليس نوعًا من عبادة الأوثان أو أشكال الخرافات الأخرى، ولكنه شكل تحول فيه الإنسان إلى آلة، ونوع من الحياة العادية التي نشأت نتيجة لعجزنا التام عن رؤية الاشياء كما هي، فالإعلام لم يكن أبدًا بهذه القوة، ولم يعتمد الإنسان من قبل على مثل هذا السيل من الصور المرئية. فدعاء النبي ﷺ "اللهم أرني الأشياء كما هي" لم تكن هناك حاجة ملحة له بقدر ما نحن بحاجة إليه الآن. وتتطلب منا رؤية الأشياء كما هي أن ننأى عن كل المعوقات سواء كانت سيكولوجية أم تاريخية أم دينية، وأن نبدأ بالاعتماد على نفوسنا الناضجة، وهذا في الواقع يحتاج إلى درجة عالية من التنوير الناضج، والمساعدة الإلهية التي لا تدع مجالًا لأي شكل من أشكال الغموض كما جاء في القرآن الكريم:

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: 38)

وعلى أية حال فإن كتاب الهدى والنور قادر على خلق فجر جديد، شريطة أن نهجر تمامًا تقديس الأسلاف، وأن تملأنا الثقة بأنفسنا آملين في نصر الله وأن نعود إليه وإلى

وحيه عز وجل، فهو وحده نصير المؤمن، وهو الذي يخرجه من الظلمات إلى النور كما قال تعالى:

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (البقرة: 275)

وكما قال:

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٩ ﴾ (الحديد: 57)

واليوم كذلك إذا ما تحلى أتباع آخر الرسالات السماوية بالشجاعة للتعامل مع الوحي بطريقتهم الخاصة، فسوف يجدون في غمرة هذا ميلاد تنوير جديد، وفي هذه الحالة سوف يجدون العون الإلهي الذي وعدهم الله به

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ۝٤٣ ﴾ (الأحزاب: 43)

وحقيقة فإن الأمة ينتابها شعور بأنها قد شارفت على النهاية، أو ربما نشعر بأننا مثل نبي الله يونس الذي وقع في ظلمة بطن الحوت، لا يعرف كيف يجد مخرجًا من هذا الموقف، ومع ذلك فإن هناك تنويرًا جديدًا دائمًا ما يطرق أبوابنا شريطة أن نمتلك الشجاعة كنبي الله يونس في الاعتماد على الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ ﴾ (الأنبياء: 87)

○

إن محمدًا ﷺ لم يؤسس أمةً جديدةً؛ ولكنه بدلاً من ذلك، وبعيدًا عن الهوية أو الاسم الجديد، فإن حديثي العهد بالإسلام كان عليهم أن ينأوا عن أي هوية دينية زائفة – سواءً أكانت يهودية أو مسيحية – عليهم فقط أن يكونوا مسلمين كما كان المسلمون في عهد رسول الله "صلي الله عليه وسلم". إن إعادة إحياء مفهوم الأمة العالمية التي تعبد إلهًا واحدًا ليست رؤية عادية؛ لأن النداء الجماعي في قوله تعالى "كونوا ربانيين" أو الدعوة العامة لعبادة الله قد خلقت قدرًا هائلاً من القوة والنشوة. ومادام المؤمنون لا يزالون مدركين لهويتهم الربانية فهم لا يرون أنفسهم إلا على أنهم نقطة التقاء للرسالات الكبرى السابقة؛ فهم باب مفتوح تلوذ به جميع الأنفس الباحثة عن العزاء والسلوى.

إعادة بناء الأمة الإسلامية
ميراث إبراهيم

الإسلام ليس هوية يمكن أن تقصرها جماعة ما على نفسها دون غيرها؛ لكنه يعني الخضوع طوعًا وبشكل غير مشروط لله جل وعلى؛ فهو باب مفتوح لكل من يجدون سلوى وعزاءًا في وحدانية الله. هذا النداء للخضوع طوعًا لإرادة الله؛ الذي عبر عنه جميع الأنبياء الحق وأتباعهم المخلصين عبر العصور، يجب أن يتبناه مسلمو عصرنا؛ ولكن هذا لا يعني عدم إعطاء المسلمين الخاضعين في الرسالات السابقة الأخرى دورًا في حياتنا المعاصرة. فإن وجود حركة للدعوة لثورة عالمية؛ لجعل العالم أسرة واحدةً تعبد إلهًا واحدًا؛ لا يمكن أن توصد الباب أمام المسلمين الذين نجدهم في الرسالات الأخرى.

وأي قراءة موضوعية للقرآن الكريم لا يمكنها إغفال الموضوع المهيمن الذي دعا إليه جميع الأنبياء من إبراهيم إلى محمد أو من قبلهم؛ ألا وهو الدعوة إلى عبادة الله الواحد؛ واعتناق نموذج الحياة الذي يتبعه المسلمون الذين أسلموا وجوههم لله؛ أي المسلمين الحنفاء. ولهذا؛ فليس من قبيل العجب أن يجعل القرآن الإيمان برسل الله جميعًا شرطًا مسبقًا لاكتمال الإيمان؛ فالمؤمنون مطالبون بأن ينظروا إلى الأنبياء على أنهم حاملين لنفس الرسالة الإلهية، وليس على أنهم مؤسسين لأمم معينة:

﴿ ... لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ (البقرة: 136)

والأنبياء في الوحي الإلهي يشكلون مجموعة واحدة لا يمكن فصلها وكوكبة من القادة الذين أوحى إليهم الله وأرسلهم لهدية البشرية؛ فلا يمكن أن نفهمهم ورسالاتهم بمعزل عن بعضهم البعض. والقرآن الكريم يجعل ذلك جزءًا لا يتجزأ من عقيدة المسلم فعليه أن يؤمن بجميع الأنبياء السابقين ورسالاتهم؛ ولقد أخبرنا أن ما تبقى من الأمم السابقة هم حلفاؤنا بالفطرة. ولما كان محمد ﷺ لم يأت برسالة جديدة ولكنه جاء ليحي دين إبراهيم "عليه السلام"؛ فقد حث القرآن الكريم المؤمنين على أن ينظروا إلى رسالة محمد ﷺ على أنها نقطة التقاء لجميع الرسالات السابقة.

إن محمدًا ﷺ لم يؤسس أمةً جديدةً؛ ولكنه بدلاً من ذلك، وبعيدًا عن الهوية أو الاسم الجديد، فإن حديثي العهد بالإسلام كان عليهم أن ينأوا عن أي هوية دينية زائفة – سواءً أكانت يهودية أو مسيحية – عليهم فقط أن يكونوا مسلمين كما كان المسلمون في عهد رسول الله ﷺ. إن جميع أولئك الذين يزعمون أنهم الورثة الشرعيون لميراث إبراهيم من بين اليهود والنصارى أو أولئك المتشبثين في استمالة الناس إلى جانبهم واعتناق ديانتهم، قد أخبروا بصراحة وجلاء أنه لا خير في هذه الشعارات الزائفة؛ فإبراهيم لم يكن يهوديًا أو مسيحيًا، بل كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين؛ ولذلك فإن جميع من يريد لإله واحد يجب أن يتبع نهجه (آل عمران: 135). فلو أن محمد ﷺ وأتباعه جاءوا بهوية جديدة تخالف اليهود والنصارى، لأضعفت هذه الحركة من مكانته كنبي للعالمين، وكرد فعل معارض لأولئك الذين يدعون إلى اعتناق اليهودية أو النصرانية؛

﴿ ... كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَـٰرَىٰ ﴾ (البقرة: 135)

فإن على حديثي العهد بالإسلام أن يلتزموا بديانة إبراهيم:

﴿... دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ (الأنعام: 161)

وعلى عكس ما يدعوا إليه اليهود والنصارى الذين يضفون كثيرًا من الأهمية على طوائفهم الدينية؛ على حديثي العهد بالإسلام أن يعبدوا الله في حياتهم دون إتباع طوائف معينة. والقرآن عندما يحث الناس على أن يكونوا ربانين

﴿ ... كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾ (آل عمران: 79)

أي أن يكونوا أمةً تسلم أمرها كله لله أو أن تأخذ صبغة الله؛ هدفه أن يقنع الناس بنفس النقطة وهي عبادة الله الواحد، فلم يأت نبي على مر التاريخ لإرساء قواعد ملة خاصة به أو دعا الناس إلى عبادته نفسه. والقرآن الكريم يخبرنا، مرةً بعد مرة، أن جميع الأنبياء بالرغم من اختلاف أمكانهم وأزمنتهم يدعون إلى نفس الرسالة (آل عمران: 68). ولأن محمد ﷺ يطرح جوهر الرسالة الإبراهيمية؛ فأين يجد المرء قدوةً أخرى يتبعها؟ (آل عمران: 68).

ولهذا فإن محمدًا ﷺ عندما يذكر في القرآن؛ يذكر على أنه ليس رائدًا لديانةً جديدة؛ ولكنه رسول للعالمين؛ بشيرًا أو نذيرًا ورحمةً للعالمين. وفي الفترة المتقدمة من الإسلام لم يكد المرء يسمع حتى بمصطلح "الأمة المحمدية" ونفس الحال في فترات الضعف في الرسالات السابقة حيث لم تكن الهوية الدينية مثل اليهودية والنصرانية أو البوذية معروفةً. وهذه الهوية المبنية على أساس الشخصية قد استغرقت قرونًا وآجالاً لكي تتطور إلى ما هي عليه الآن، ولقد كرس كل الأنبياء جهودهم كافةً لكي يجعلوا الناس تعبد إلهًا واحدًا؛ لكي يقيموا مجتمعًا عادلاً يعبد الله وحده لا شريك له في ملكه، ويعملوا على جمع الناس تحت عباءة التوحيد على اعتبار أنهم عباد لإله واحد. والنبي ليس حكيمًا عاديًا؛ لأن الله أعطاه الكتاب والحكمة، وليس من المتوقع منه أن ينهمك في صياغة مبادئ العبادة أو أن يدعو الناس إلى عبادته، لأن الله اختاره لدعوة الناس إلى عبادة الله وحده وأن لا يقدموا أنفسهم إلا على أنهم عباد الله ﴿ ... كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾ (آل عمران: 79)

و كما أُخبرنا فإنه على المجتمعات حديثة العهد بالإسلام، مثلهم مثل كل المسلمين في جميع الأزمنة، أن يؤمنوا بجميع الأنبياء كشرط أساسي لصحة إيمانهم؛ بل ويجب عليهم أن لا يفرقوا بين أحد من رسل الله. (آل عمران: 84)

إن إعادة إحياء مفهوم **الأمة** العالمية التي تعبد إلهًا واحدًا ليست رؤية عادية؛ لأن النداء الجماعي في قوله تعالى "كونوا ربانيين" أو الدعوة العامة لعبادة الله قد خلقت قدرًا هائلاً من القوة والنشوة. ومادام المؤمنون لا يزالون مدركين لهويتهم الربانية فهم لا يرون أنفسهم إلا على أنهم نقطة التقاء للرسالات الكبرى السابقة؛ فهم باب مفتوح تلوذ به جميع الأنفس الباحثة عن العزاء والسلوى؛ وهذا التأكيد غير العادي على هوية المسلمين الذين يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئًا يعطي حديثي العهد بالإسلام جانبًا أيدولوجيا سرعان ما يبث فيهم قوة لا تقدر. وبالرغم من أن نظرة العرب كانت لها جذور متأصلة في التقاليد العربية؛ إلا أن تغير هذه النظرة كان لها تأثيرًا كبير عليهم حتى أنهم يظهرون على أنهم مجموعة من البشر توحدهم عبادة إله واحد حيثما ذهبوا وبذلك أصبحت جميع الهويات الجغرافية واللغوية والثقافية والعرقية غير ذات معنى بالنسبة لهم. وبانقضاء حقبة المسلمين الأوائل، ظهر لنا جليًا وبالتدريج كما لو أن الثقافة العربية هي الصبغة الطبيعية للإسلام؛ بل إن البعض اعتبر أن عظمة الإمبراطورية العباسية هي الوجهة المنطقية للحركة الربانية. وانحياز العرب أو العصبية قد أصبحت حجر الأساس للمسلمين الذين جاؤوا فيما بعد، يحاكونه ويقلدونه؛ بل أن خروج الموالي عن الكيان الأخوي الجامع للمسلمين وتحولهم إلى الوصاية الاجتماعية قد جعلنا نعتقد أنه يجب على غير العرب من الآن فصاعدًا أن يقصروا أنفسهم على حدود الحركة الإسلامية وليس في جوهرها. إن الإمبراطورية التي تم تأسيسها على العصبية العربية التي تزعم تفوق بعض العشائر العربية قد ترك حيزًا ضيقًا لباقي الرسالات الأخرى لتنضم إلى الإسلام. إن فكرة عبادة الله وحده التي تظلل الجميع قد تحولت الآن إلى فكرة المجتمع الذي يتركز حول شخصية النبي فقط. وكانت هذه حالةً صريحةً في منح ولاء لمن لا يستحقه أو ما أطلق عليه القران الكريم كلمة "غلو". إن فكرة الأمة الجديدة التي تدور حول فكرة النبي العربي؛ قد قللت من عدد الداخلين في زمرة الإسلام إلى درجة اعتبار ذلك كما لو كانت حالة مجتمع عادي

آخر؛ وأصبح المسلمون مثلهم مثل اليهود والمسيحيين؛ لا يزيدون عن كونهم جزءًا آخر من شريعة إبراهيم. إن انغلاق العقل المسلم بهذه لطريقة لم يحول المسلمين فحسب عن الإسلام الصحيح ولكن غير أيضًا العالم بأكمله من حولهم.

إن الأمة الإسلامية تسير الآن في عصر تدهور مستمر وعلماؤها في حالة من النفي العقلي؛ ومع ذلك فإن العصر الذهبي لبغداد العباسية أو حضارة الأندلس المسلمة المزدهرة ومغال الهند العظيمة أو الشجاعة العسكرية للإمبراطورية العثمانية قد خلق بعض الوهم والخداع عن حالتنا المتدهورة؛ وهكذا هزمت الأمة الإسلامية – الأمة المحمدية - الإسلام؛ فإن ظهور فكرة الإسلام الطائفي أو الأمة المحمدية قد مهد السبيل - في الحقيقة – إلى موت الأمة المبنية على الإيديولوجية؛ ذلك لأن صبغة الله لم تعد هي الهوية الوحيدة للمسلمين. ولأن المسلمين أجبروا أنفسهم على العيش في سجن نفسي من صنع أنفسهم، فإنهم جعلوا فكرة الأمة هي الفكرة الأساسية لمحور تفكيرهم واهتمامهم؛ وليست دافعًا للعبادة. إن مفهوم طائفية العبادة قد تشعب أيضًا إلى عقائد فرعية وقد وجد حديثو العهد بالإسلام هويات جديدة يمكنهم أن يتشبثوا بها. إن العداء الداخلي بين الشيعة والسنة وبين الحنفية والشافعية؛ لم يؤد فقط إلى سقوط الإمبراطورية المحمدية؛ ولكنه قد أضفى كثيرًا من اللغط الأيدولوجي؛ الأمر الذي جعل من المستحيل أن نحدد من هو الممثل الحقيقي للإسلام، هذا الأمر، الذي انحرف بالبيت الإسلامي، كان شعورًا عامًا. أما أولئك الذين جاءوا لإصلاح الموقف فقد ركزوا بشكل رئيسي على إعادة توجيه الأمة المحمدية نفسها. وما كان يرى على أنه سبب اعتلال الأمة الإسلامية؛ أصبح يرى الآن على أنه السبيل إلى علاجها.

لقد استخدم القرآن الكريم مصطلح "الأمة المسلمة" بدلا من اطلاق لفظ الأمة المحمدية التي تنبع نتيجة للتشبث ببعض الأفكار العقائدية وذلك كما يتضح من دعوة إبراهيم الخالدة لربه في القرآن الكريم حينما قال:

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (سورة البقرة 128)

وهذا ماوصى به إبراهيم بنيه وكذلك يعقوب عليهما السلام:

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (سورة البقرة 132)

فالمفهوم القرآني للأمة المسلمة يشمل المسلمين كافة بغض النظر عن الاختلافات الجغرافية أوالخلفيات التاريخية أو الحضارية، وهذا المفهوم هو الكوكب الوضاء الذي ينير الطريق لجميع الأنبياء و أتباعهم المخلصين، وبالطبع يضم المفهوم الاشمل للامة المسلمة اهل الكهف و نماذج يحتذى بها للمرأة المسلمة مثل السيدة مريم أم السيد المسيح و زوجة فرعون و سائر الامم المؤمنة التي ذكرها القرآن أو لم يذكر. على الرغم مما ذكره القرآن جليا، فمازال هناك من يصرون على ترديد مقولة أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً ؛ و القرآن يتحدى مثل هذه الأفكار المغلوطة صراحة في قول الله تعالى:﴿ ...قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ...﴾ (البقرة: 140)

فالادعاء بأن إبراهيم يهودياً أو القول بأن محمد هو مؤسس الأمة المحمدية يعتبر بهتاناً وإثماً عظيماً. يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿... وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ...﴾ (البقرة 140)

هل يمتلك البعض ممن يصرون على إن الأمة المحمدية الحالية لا تضم إلا مجموع أتباع الأمة الإسلامية التي تعيش تحت لواء الإسلام - الشجاعة الكافية لاستثناء إبراهيم وذريته وأسيا زوجة فرعون و مريم من حظيرة الإسلام ؟ فالنجاة تكون حق قاصر على المسلمين فقط، حيث انه لا ينبغي على من اسلم وجهه لله عز وجل و يتبع الصراط المستقيم ان يساوره القلق بشأن النجاة ؛ فهو حق ممنوح لجميع افراد الأمة المسلمة التي تؤمن بإله واحد باعتبارها المفهوم الاشمل للأمة الإسلامية . وعلى العكس، يتم حرمان من يرغب عن إتباع ملة إبراهيم حنيفا من ذلك الحق على الرغم من انتماءه إلى بيئة مسلمة أو نشأته في كنف أسرة المسلمين حيث يقول الله عز وجل:﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ... ﴾

كما يقول الله تعالى أيضا:

﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ ... ﴿٧٣﴾ ﴾ (المائدة 73)

تعتبر مثل هذه الآيات الكريمة وما شابهها بمثابة دلالة واضحة على ان مجرد الانتماء إلى زمرة المسلمين اوحتى وجود علاقة دم معهم لا يشكل قاعدة كافية للنجاة. ولذلك كان اليهود والنصارى يدعون أنهم أبناء الله المقربين وعباده المختارين الذين طردوا ظلما من رحمته:

﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ (المائدة 18)

واذا تأملنا سورة الأنبياء نجد التأكيد على ان اللفظ القرآني "الأمة المسلمة" يضم بصورة اشمل بيت المسلمين:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ (الانبياء 92)

إنها سلسلة طويلة من الأنبياء والرسل منذ سيدنا إبراهيم إلى سيدنا لوط مرورا بسيدنا سليمان و يعقوب و إسماعيل و إدريس و ذو الكفل و ذو النون و ذكريا ويحيى و السيدة مريم. في حقيقة الأمر، إن كل هؤلاء ينتمون إلى جماعة واحدة على الرغم من محاولة الاجيال اللاحقة تقسيمهم إلى فئات مختلفة:

﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ ...﴿٩٣﴾ ﴾ (الانبياء 93)

وهناك العديد من الآيات القرآنية التي تؤكد على ان جميع من يخضع لعبادة الله امة واحدة وذلك بالطبع يناقض كلام معتنقي الفكر الطائفي او ممن يحتمون وراء ستار العبادة الطائفية. والقرآن يقر بأن هؤلاء الأشخاص ينتمون إلى امة واحدة:

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ ... ﴿٢١٣﴾ ﴾

ويمكن تفسير ذلك بشكل أفضل من خلال الآية الكريمة:

﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (النحل 120)

وإبراهيم نفسه يعتبر نبراسًا لجميع المسلمين في كل العصور والازمان. و من المستحيل الطعن في اسلام إبراهيم لله حيث انه لم يقم بنسج عقيدة من وحي خياله ولم يقم بتشكيل العقائد المسيحية او اليهودية؛ فأتباع ملة إبراهيم هم بلا شك جزء لا يتجزأ من الأمة المسلمة بمفهومها الاشمل.

وقد ظلت هذه الرؤية االشاملة للامة المسلمة قائمة حتى في عصور ضعف الحكم الإسلامي، وقد ظل هذا المفهوم الاشمل ثابتاً حتى في اثناء فترات الحروب الضارية و النضال الشرس عندما كان على المسلمين مجابهة احزاب اليهود والنصارى. وقد حذرنا القرأن مرات عديدة من الوقوع في شرك التعميم فهناك الكثير من أهل الكتاب الذين مازالوا متمسكين بالحقيقة﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ ... ﴿١٥٩﴾ ﴾

(الاعراف 159)

حيث نجد من بين أهل الكتاب أناس يتسمون بالبر والتقوى لله ؛ هؤلاء الذين يقومون ليلهم لتلاوة كلام الله ، كما انهم يسجدون لله في خشوع كما قال الله في سورة ال عمران:

﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ (ال عمران 113)

واذا كانت هوية الجماعة لا تعتبر سببا للنجاة فهي ليست ايضا مبررا للادانة. فهناك أناس يعيشون بينكم ممن يخافون الله فهؤلاء يحق عليهم قول الله في كتابه الكريم:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات 13)

في ذلك اليوم- اليوم الاخر- سوف تتحمل كل نفس مسئولية اعمالها فقط:

﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الحجرات 38)

ومثل هذه الآيات تكون بمثابة إشارات كافية إلى حقيقة أن المسلمين لله يمثلون امة واحدة وهم الذين ينعم الله عليهم من فضله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (البقرة 62)

وتوسع هذه الآية الكريمة دائرة الناجين من النار لتشمل أتباع الأنبياء الآخرين وأصحاب الرسالات السماوية الأخرى لذلك تعتبر هذه الآية لغزًا طالما حير الكثير من علماء المسلمين والفقهاء وكانت سببا لنشوب العديد من الخلافات التي لا يمكن حلها؛ وفي الوقت الذي يؤمن فيه أبو حامد الغزالي وراشد رازا والطبطبائي بفكرة ان رحمة الله تتسع لتشمل المسلمين من أصحاب الرسالات السماوية الأخرى، فإن أغلبية علماء المسلمين يرفضون هذه الفكرة ويعتبرونها دليلاً على الكفر حيث يتساؤلون في سخرية عن موقع سيدنا محمد ﷺ!

وكلما زاد عدد المسلمين الذين ينظرون لسيدنا محمد على أنه مؤسس امة جديدة، زادت الصعوبة بالنسبة لهم في رؤيته نقطة التقاء لاتباع ملة إبراهيم. وهم بذلك يتجاهلون حقيقة أن الإسلام، وهو دين الله المختار الذي قام كافة الأنبياء المخلصين بنشره عبر التاريخ يركز في الأساس على عبادة الله جل وعلى، ونجد أن القديس أوغسطس هو صاحب الفكرة اللاهوتية بأنه لا خلاص بدون "يسوع". ففي واقع الامر نجد أن هؤلاء الذين يضعون سيدنا محمد في مكانة مشابهة أو ممن يبالغون في التواكل على شفاعته يعدون مذنبون لأنهم بذلك قد اتبعوا اتجاه أوغسطس.

وعلى النقيض من فكرة مسيحية أوغسطس التي تؤمن بإن الخلاص هو حق قاصر فقط على المسيحين نجد ان القرآن يحذرالانسان من اصدار مثل هذه الافتراءات في هذا الموضوع بالغ الدقة، بل يجب علينا ان نبقى صامتين ليس فقط بخصوص أهل الكتاب الذين نعتبرهم حلفاءنا الطبيعين ولكن ايضا بالنسبة لهؤلاء المذنبين بتهمة الكفر؛ فهذا يعتبر حق من حقوق الله تعالى حيث انه يقول في كتابه العزيز:

﴿...إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ...﴿١٧﴾ ﴾ (الحج 17)

وكما خلق الله الناس ينتمون الى شعوبا وقبائل متعددة ليتعارفوا فيما بينهم كما يقول في كتابه العزيز:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ ﴾ (الحجرات 13) نجد ان حكمة الله تقتضي ان ينتمي عباده الى خلفيات وهويات مختلفة:﴿... ۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (المائدة 48)

اذا وجد المسلمون لله الواحد انفسهم يسلكون مسالك شتى في سبيل طاعة الله لا يجب ان يساورهم القلق بشأن ذلك؛ والقرآن يشهد على حقيقة أن التوراة والانجيل ما هي الا كتب سماوية أتت من نفس المصدر قد يجد فيها المرء هداية ورشاد. والذين يدعون انفسهم من ورثة الانبياء لا يجب ان ينغمسوا في خلافتهم لدرجة تجعلهم يقررون من هم أهل النار ومن الفائزين بالنجاة منها. عوضا عن ذلك، يجب ان نقوم بمجاهدة أنفسنا لنستبق الخيرات؛ حيث إن الله تعالى هو وحده هدف جميع البشر حيث إنه هو وحده القادر على أن يدلنا على حقيقة الأمور التي تكون محل خلاف بيننا.

لم يتعرض المسلمون الاوائل لمناقشة مثل هذه القضايا على الرغم من إدراكهم الكامل للمكانة المتفردة التي يتبوؤها محمد ﷺ في التاريخ ، ولكنهم على العكس اتخذوا من اتباع الرسالات السماوية السابقة أنصارا طبيعيين لهم ومن الممكن أن يجمعهم منهج حياة مشترك

﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (آل عمران 64)

وبإعتبارهم يلعبون دوراً قيادياً دائمًا، فقد ضرب المسلمون الأوائل أروع الامثلة في التسامح لتقبلهم دخول الكثيرين من اتباع الرسالات السماوية السابقة إلى حظيرة

الإسلام. فالحركة الإسلامية الحديثة كانت تفتح الباب على مصرعيه لدخول كل من يريد التسابق في فعل الخيرات، وعلى الرغم من ذلك، كان يتم دائما تذكير المتعصبين بالفكر الطائفي أو هؤلاء الذين يظهرون اهتمامًا مفرطًا لهويتهم اليهودية أو المسيحية، بأنه لن يجازيهم الله خيرًا عن أفعالهم إلا إذا التزموا بتعاليم التوراة الصحيحة:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (المائدة 68)

وبالرغم من ادعائهم بأنهم ممثلين للعقائد اليهودية و المسيحية، إلا أنهم قد أضفوا على أنفسهم بعض صفات الألوهية وانغمسوا في تطبيق فكرة طائفية العبادة. ومثل هؤلاء الأشخاص من أصحاب العقول المنغلقة لا يمكن أن نتوقع منهم أي خير، ومن الأفضل ألا نتخذهم أولياء من دون الله كما قال الله في كتابه العزيز:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ .. ﴿٥١﴾ ﴾ (المائدة51)

ولا ينبغي علينا التعميم في تطبيق مثل هذه الاحكام. فالله تعالى يذكرنا في القرآن الكريم:﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ **(آل عمران 113)**

وبما أن المسلمين الأوائل قد اعتبروا أهل الكتاب هو أنصارهم الطبيعيين فلم يجدوا حرجا في مخالطتهم والتعامل معهم في إطار المجتمع وقد جعل القرآن طعامهم حلاً للمسلمين

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾

ففي ظل مجتمع موحد بالله وقائم على أساس التقوى والمكانة السامية للدعوة لأن نكون ربانيين، ما كان يستطيع أحد أن يتصور أنه سيأتي اليوم الذي يصيب المسلمين انفسهم ما أصاب أصحاب الرسالات السابقة لدرجة تجعل من الصعب اعتبار أنفسهم

حاملي الرسالة الربانية، بل الأكثر من ذلك أنهم اتخذوا من كينونتهم المسلمة مجرد هوية ثقافية أكثر من كونها خضوع مطلق خالص لوجه الله تعالى. وللاسف ، فقد أسهمت بعض العوامل التاريخية والثورات السياسية في تفاقم هذه الكارثة التي حلت بالمسلمين؛ وبالتدريج، بدأت الهوية القومية الإسلامية في احتلال الصدارة بدلاً من الهوية الربانية، وبالتالي أدى ذلك إلى انغلاق العقل المسلم، وبعد ذلك وجد المسلمون أنفسهم محاطين بخضم من النصوص التاريخية المشكوك في صحتها والأحاديث غير الصحيحة التي عليهم الاعتماد عليها في تشكيل الهوية المسلمة الجديدة للقرون التالية. وقد أدى تحول الأمة التي من المفترض انها تحمل رسالة التنوير للعالم كافة حتى قيام الساعة -من أمة مسلمة إلى أمة محمدية- إلى انبثاق مجموعة مستحدثة من الاراء الطائفية حول مفهوم الأمة ورسولها، وقد سار المسلمون الحاليون على نفس نهج أصحاب الرسالات السماوية السابقة حينما بالغوا في التواكل على كونهم خير أمة أخرجت للناس، كما بالغوا في الاعتماد على فكرة أن نبيهم أعلى الأنبياء مقامًا. وباعتبارهم حاملي القرآن الكريم، فقد رفض المسلمون من قبل تقبل الادعاء غير المنطقي الذي ادعاه اليهود بأنهم لن تمسهم النار سوى أيامًا معدودات وأن الجنة سوف تكون مثواهم الخالد بغض النظر عما اقترفوه من ذنوب، ولكن في واقع الامر فقد قام المسلمون الان بتكرار نفس الاقاويل حول أنفسهم.

ولقد تواترت الروايات التي شكلت العقلية الإسلامية حول الامتياز الذي خص به الله عز وجل نبيه محمد ﷺ عن سائر الأنبياء في الشفاعة لامته للنجاة يوم القيامة. في ذلك اليوم الموعود الذي لن يستطيع أي نبي من الأنبياء السابقين بما فيهم إبراهيم وموسى وعيسى والأنبياء الأخرين طلب الشفاعة ولو لفرد واحد، نجد أن محمد ﷺ من خلال ذلك الامتياز الذي منحه الله إياه يرفع راية الحمد لله ويمكنه عندئذ أن يشفع لأمته بأسرة لدخول الجنة. كما توحي بعض الأحاديث التي تروي دخول المسلمين جميعا الجنة بشعور عام بأن أمة محمد ﷺ جمعاء سوف تدخل الجنة بنفس الطريقة التي سيدخل بها أنبياء بني إسرائيل. إن تصور وجود إله ظالم ونبي غير عادل على حد سواء لا يدع أمام المسلمين خيارًا آخر سوى الاحتماء نفسيا داخل قوقعة من صنع أيديهم، الأمر الذي يعد خطأ جسيماً. وقد أدت فكرة تفرد محمد ﷺ وتميزه عن الأنبياء

السابقين إلى جعل البعض يصورونه على أنه بطل طائفة دينية معينة، فهؤلاء ممن يظنون أنهم عندما يصورونه كبطل عظيم للأمة المحمدية يقومون بالمبالغة في الثناء عليه كانوا في حقيقة الامر يمطرونه بوابل من أشد وأسوأ أنواع الإهانات.

نبي العالمين العظيم الذي وصفه القران بأنه رحمة للعالمين- وكما اخبرنا المفترون،- أنه عندما واتته المنية لم يكن قلقا سوى على أمته، فعلى فراش الموت ظل يردد أمتي أمتي ، كما انه في يوم القيامة - كما روت الأحاديث- سوف يحسن استخدام حق الشفاعة الذي منحه الله إياه لصالح امته. فإذا تم اعتبار النبي ﷺ أنه شخص يعمل في سبيل تحقيق الخير للأمة المحمدية فقط، فكيف يمكن توقع الخير من أتباعه الذين من المفترض ان يحملوا رسالة خير للبشر أجمعين من بعده.

والشرك له قدرة عجيبة على التوغل في عقول المؤمنين من خلال الإيمان نفسه، وهذا ليس جديدًا في تاريخ الإنسانية؛ فعبادة الشمس والقمر والشجر خير دليل علي الشرك الذي يفهمه أقل العقول إدراكا. ومع ذلك فإن الدعوة إلى الطائفية باسم الدين، أو تقديم تفسيرًا خاصًا للإيمان بالإيمان نفسه، ثم الانحناء احترامًا له، وهو عمل لا تنطوي معانيه على دليل لأحد.

هل من سبيل للخروج من هذا الشرك؟

يقع المسلمون جميعًا اليوم في قبضة الشرك وما ينبعث عنه من شرور، ويكمن السبب الرئيسي في سقوط المسلمين وتخلفهم عن المكانة العليا التي تؤهلهم لقيادة العالم في انحرافهم عن طريق التوحيد القويم. فما ينزل من عقوبات ببعض الأمم التي اتخذت من الشرك منهاجًا لها، وكذلك والطريقة التي ضلوا بها طريقهم في هذه الحياة، يمكن رؤيته بوضوح في الحال التي عليها المسلمين الآن في جميع أنحاء العالم.

وخلال السنوات القليلة الماضية بدا المفكرون المسلمون في حالة ضجر وسألوا أنفسهم عما إذا كان الله قد تخلى عنهم. وبعد ذلك كله، ما السبب الرئيسي الذي جعل دماء المسلمين رخيصة إلى هذا الحد الذي نراه في عالمنا الحالي وكذلك السبب وراء تدنى درجة اعتزازهم بأنفسهم؟ وقد أصبح هذا السؤال ملحا، خاصة في أعقاب الأحداث المرعبة التي نطالعها في أفغانستان والعراق. ونجد الحاجة ملحة لان نسأل أنفسنا، لماذا حجب الله نعمه وفضله عن أصحاب الدين الخاتم؟ هذا السؤال مازال في الواقع في حاجة إلى إجابة مقنعة.

والحقيقة إننا أصبحنا بعيدين عن رحمة الله – مثلنا مثل بني إسرائيل في ذلك - ورغم ذلك مازلنا نوهم أنفسنا بأننا مازلنا أفضل الأمم عند الله على الرغم من أنه يتضح جليا في التقدير الالهى للأمور إننا لسنا من أهل الحل والعقد في هذا العالم.

ومما يدعو للأسف أن كل ما نحن فيه من ضلال ينبثق من تديننا الزائف، لذلك لا يصعب على عامة الناس فقط بل وعلى المتخصصين أيضًا إدراك الحقيقة والعمل على إنصافها. كما إننا نزعم أن الأمة برمتها قائمة على الإيمان، أو علي الأقل أن هناك الكثير من الأنشطة التي تحدث في المجتمع باسم الإيمان، لكن إذا ما نظر المرء بعين الواقع فسوف يدرك أن ذلك ما هو إلا وهمٌ عظيم.

فالتوحيد يجمع الإنسانية برباط واحد، بينما يمزقها الشرك إربا. فطريقة التفكير التي يؤيدها ويساندها مفهوم التوحيد تضع في تصورنا فكرة الإله الواحد والبشرية جمعاء ككيان واحد؛ وعلى العكس من ذلك نجد أن الشرك قد أفسد على العقول بهجتها عندما تحرى كل الذرائع لتمزيق البشر إلى آلاف القطع. وهذه الرسالة هي ذاتها التي أرسلت على أتباع الأنبياء السابقين، لكنهم قد مزقوا أنفسهم إلى طوائف صغيرة بتفسيرهم للرسالة السماوية على أهوائهم. ويصرح القرآن بان ظهورالنبى محمد ﷺ قد شهد نهاية الطائفية وإحياءً لمجتمع توحيدي؛ قال تعالى ﴿... فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ... ﴾ (آل عمران: 103) والشرك له قدرة عجيبة على التوغل في عقول المؤمنين من خلال الإيمان نفسه، وهذا ليس جديدًا في تاريخ الإنسانية؛ فعبادة الشمس والقمر والشجر خير دليل علي الشرك الذي يفهمه أقل العقول إدراكا. ومع ذلك فإن الدعوة إلى الطائفية باسم الدين، أو تقديم تفسيرًا خاصًا للإيمان بالإيمان نفسه، ثم الانحناء احترامًا له، وهو عمل لا تنطوي معانيه على دليل لأحد.

وإذا ما نظر المرء إلى الأمة الإسلامية جمعاء سوف يتساءل عن سبب تصارعها مع نفسها؛ فإذا كان هذا الصراع في بعض الأحوال بسبب اللغة، فإن الكلمات والمراسيم تستخدم في أحيان أخرى كوقود لإشعال فتيل تلك المعركة. فالمسلمون الذين ينتمون لطائفة معينة لا يشعرون بتأنيب الضمير إذا قتلوا مسلمًا ينتمي لطائفة أخرى حتى لو كان هذا أثناء صلاتهم داخل مسجد واحد. والمنتديات الإسلامية التي تعمل في مختلف أنحاء العالم باسم الدين يقتصرون على نشر وجهة النظر الخاصة بالطائفة التي ينتمون إليها، وأحيانا ما يستشهدون بالقرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ ويكون هدفهم الحقيقي من وراء ذلك إثبات أن الطائفة التي ينتمون إليها هي وحدها

التي على حق وأن ما عداها باطل، وهذه ليست ظاهرة قاصرة على الهند وحدها، ولكنها موجودة في أي مكان في العالم، ولا تستثنى من ذلك المجتمعات الإسلامية في أوروبا وأمريكا حيث لاتكون الطائفية أقل حدة. وحقيقة، فإنهم قد شغلوا أنفسهم بعبادة المذهب الذي ينتمون إليه، بدلا من عبادة الله. ويبدوا أن الفرقة أو الطائفة التي ينتمون إليها قد استبدلت الإله الذي يعبدونه، واقروا صحة شرح وتفسير الدين الذي يصدر عن شيوخهم وكأنه قد صدر من النبي نفسه. ويشير القرآن إلى مثل هذه الآية في قول الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ... ﴾ (الأنعام: 159)

فلقد تمت صباغة التزامنا بعقيدتنا في الوقت الحالي بطائفية من جميع الأنواع، فإن كافة مدارسنا، المنقسمة على أنفسها، مشتركة في نشر الأفكار الطائفية، كما أن مجتمعنا بالكامل مقسم على أساس مدارس مختلفة من الفكر مثل المدرسة الحنفية والمدرسة الشافعية وغيرها من المدارس. فمن اليسير على المرء أن يدرك بنزعته التي تميل إلى الانقسام، إن الأمة ما برحت منفكة من ذلك الرباط المقدس أو (حبل الله) الذي يربط بينها وبين الله تعالى. فلا يوجد في العالم بأسره من يدعو البشرية لعبادة الله الواحد، وياتى النداء من على كل منبر مسجد ومنبر مدرسة ليدعوا الناس لاتباع طائفة معينة، لأن هذه الطائفة تؤمن بالعقيدة الحقيقية. ولا يدور في خلد هؤلاء الذين ينادون بمثل هذه الدعوات أنهم يقومون بنشر أسوأ أنواع الطائفية باسم الإسلام. ونتساءل عن السبب وراء ذلك، فرغم وجود القرآن، يعتقد التابعون لمختلف الطوائف والمدارس الإسلامية بأنه من الضروري اتباع الكتب التي كتبها قادتهم حتى يتسنى لهم استكمال رسالتهم الدينية! هل لازال من الضروري الاستعانة بالكتب التي كتبها الشراح أو العلماء أو الفقهاء، حتى مع وجود القرآن؟ وقد ذكر القرآن ذلك صريحا في قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (آل عمران 105)

وبعبارة أخرى، نجد أن القرآن يحذر المسلمين من أن يصبحوا مثل هؤلاء الذين وقعوا فريسة للطائفية، رغم كل النصائح الصريحة التي وجهت إليهم، لأن ذلك سيؤدي إلى العقاب الشديد.

إن الأزمة الطاحنة التي يمر بها المجتمع الإسلامي الآن ما هو إلا نتيجة حتمية لانغماس تلك الأمة في الانشقاقات والخلافات الداخلية. فحينما قدس أتباع هذا الدين مبدأ الطائفية بدعوى تفسير الدين انغمسوا بدورهم في فكرة طائفية العبادة. ويذكر القرآن أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل جميع الأنبياء بدين واحد وحثهم على الاعتصام به وعدم التفرق فيه إلى طوائف؛ قال تعالى:

﴿ ...أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ... ﴾ (الشورى: 13)

ولذلك فقد بعثت رسالة محمد ﷺ لتشمل البشرية جمعاء بما في ذلك أتباع إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام؛ حيث بقي الكثير من الشعائر المشتركة بينهم، وعلى الرغم من ذلك فقد انهمكوا في الممارسات الطائفية باسم الدين. ولقد غالى أصحاب الديانات السابقة في ادعائهم بأن من أراد أن يضمن مكانه في الجنه ما عليه إلا أن يتبعهم، ولذلك فقد طلبوا من الناس أن لا يكونوا إلا يهودا أو نصارى. ولقد عبر القرآن عن هذا المعنى، اذ يقول الله تعالى:

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ...ۗ ﴾ (البقرة: 135)

فهؤلاء الذين ينظرون إلى أنفسهم بكل اقتناع على أنهم مسلموا العصر، قد انخرطوا في الحقيقة في معركة جدال فيما بينهم تستنزف قواهم جميعًا. وسوف يدعي بنو إسرائيل أنهم هم الفئة الوحيدة الثابتة على الصواب ويحطون من شأن النصارى، في الوقت الذي يدعي فيه النصارى نفس الشيء. ولقد صرح القرآن بان هذه الطائفية وذلك الاختلاف مناقض للدين وتعاليمه. أما بالنسبة لأتباع الأنبياء السابقين الذين انشغلوا في معركة الاستنزاف هذه ويعانون من ويلاتها، قدم لهم النبي محمد ﷺ رسالته السمحاء التي لا تتماشى مع أهوائهم في أن يكونوا إتباع يهوه أو المسيح، ولكن تدعوهم إلى أن يكونوا ربانيين ولا يتبعون إلا ملته؛ قال تعالى:

﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ (آل عمران: 79) وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ (البقرة: 138)

إن السور الأول التي نزلت من القرآن الكريم كانت تحث مسلمي ذلك الوقت (بني إسرائيل والنصارى) – أي أتباع الأنبياء الأولين – على التحرر من قيود العنصرية، حيث يقول الله جل وعلى:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (آل عمران: 67)

فدعوة رسول الله ﷺ إلى التوحيد جعلت مسلمي ذلك الوقت يؤمنون بأن المعتصمين بالتوحيد الخالص لا يمكنهم أبدًا أن يدعوا للنزعة الطائفية، حتى لو كانت هذه النزعة نابعة من أي نبي؛ لأن ما أراده الله لم يكن أن يجعل الناس يهودًا أو نصارى، ولكن ربانيين حقًا.

كيف يتسنى للكتاب الذي لا يسمح بالطائفية، حتى لو كانت نابعة من نبي، أن يسمح لأتباعه بأن يكَّونوا طوائف شتى أو فرقا مختلفة بأسماء قادتهم؟ فلقد قلبنا الآية القرآنية التي تدعونا إلى أن نكون ربانيين "كُونُوا رَبَّانِيِّينَ" رأسًا على عقب، ويجب أن نسأل أنفسنا كيف تسنى لأتباع النبي محمد ﷺ أن يقبلوا بتقسيم مجتمعهم إلى طوائف متعددة مثل الحنفية والشافعية والشيعة والسنة والباريلوي والديوباندي والسلفية وغير ذلك؟ كيف يُعقل أن يتحول الأناس الذين كانوا معروفين بإخلاصهم الشديد لفكرة التوحيد أن يشاركوا في نوع من أسوأ أنواع العنصرية، حتى إنه بدأ يصبح جزءًا عاديًا من حياتهم؟ لماذا لا تستطيع الطوائف الإسلامية المختلفة والمنشغلة بعبادة عقيدتها- وللأسف فهذا دأب معظم المسلمين اليوم - أن ترى التأكيد القرآني الصحيح بأن من اختلقوا الفرق و قسموا أنفسهم شيعًا ليسوا من الرسل في شيء؛ قال جل وعلى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

وكان الرعيل الأول من المسلمين يقدرون حرية الفكر أيما تقدير، فكانوا يعرفون جيدا أن الكل سواسية أمام الله عز وجل، ومسئولية القيادة أو تقديم الإرشاد للآخرين لا تصل بالقادة إلى منزلة مقدسة، أو مكانة تعلو فوق مكانة البشر العاديين، والمسلمون أنفسهم يعتبرون أنه من حقهم نقد أفعال قادتهم وأقوالهم، وتدقيق أقول علمائهم، لدرجة أن امرأة بدوية من عموم الناس تجرأت على أن تختلف في الرأي مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أثناء خطبة الجمعة

هل الدين مجرد مجموعة من الطقوس والأزياء الاحتفالية؟

يواجه المجتمع المسلم أزمة حادة، يمكن أن ندرك حدتها من خلال ما يثيره كل إنسان، سواء كان قائدا أو فردا عاديا من عامة الناس من تساؤل: لماذا لا نرى أي بصيص من الضوء في نهاية النفق المظلم، رغم وجود القرآن بيننا؟ لماذا تعيش الأمة التي وكلها الله لقيادة العالم أزمة أيديولوجية عميقة رغم وجود القرآن، وتعاليم العلماء والمفسرين؟ بعد الصدمة النفسية التي أعقبت حوادث النازية المعروفة في معسكرات الاعتقال في Auschwitz برز هذا السؤال بين اليهود أيضا، وهو كيف لله أن يهجر "شعبه المختار" ويتركه وحده ليدافع عن نفسه؟ وسأل العلماء والمثقفون اليهود أنفسهم أنه إذا أُبيدت أمة اليهود من على وجه الأرض، عندئذ ماذا يعني التاريخ بالنسبة لهم، فاليهود الذين اعتادوا لفترة طويلة أن يعيشوا في قلب التاريخ، كان عليهم أن يدركوا حقيقة أن أمتهم قد سقطت من مقعد القيادة والهداية، والفرق الأساسي بين اليهود والمسلمين هو أنه بينما كان إسقاط اليهود قرارًا إلهيًا، فإن سقوط المسلمين هو انحراف تاريخي يمكن أن يُعالج بالعودة إلى الوحي الإلهي الذي جاء به خاتم الأنبياء؛ ومع ذلك، ومن سخرية القدر أنه بدلا من أن تقوم الأمة المسلمة بتقييم وضعها تقييمًا نقديًا، وتحاول أن تضيء طريقها بعون من تعاليم الوحي الإلهي، صارت هذه الأمة سجينة التاريخ، وقد جعل هذا من الصعب على أهلها أن يمسكوا بزمام هذا الزيف التاريخي، وأن يدركوا مدى ما هم فيه من تدهور وتراجع.

إن العالم الآن يمر بأسوأ الأزمات في تاريخه، فهناك تغييرات لا حصر لها - وهي ليست دائما إلى الأفضل - قد حدثت في مختلف بلدان العالم باسم التطور، لقد حاولت القوى ضيقة الأفق بطريقة مجردة من أية مبادئ أخلاقية أن تبسط نفوذها، مما أدى بالتالي إلى غموض مستقبل المجتمع الدولي، وتلوث البيئة، وتراكم ثروة العالم وتكدسها في يد عدد محدود، واحتكار السلع من قبل الشركات متعددة الجنسيات، وكبت الحريات الفكرية من خلال السيطرة على وسائل الإعلام والتلاعب بها، وإجبار الناس على ألا يسمعوا أو يشاهدوا سوى ما تريدهم بعض القوى المهيمنة أن يسمعوا ويشاهدوا، وهذا بعض مما هو واقع في عصرنا مما يصعب التعامل معه؛ فموقف العداء لله عز وجل الذي يتخذه "صُناع السياسة" قد حول العالم إلى أتون ذري، وأضحت مصادر الثروة الفكرية والاقتصادية الخاصة بالبشرية تستخدم لتدمير الحياة البشرية بدلا من الحفاظ عليها.

وفي ظل هذه الظروف كان من المتوقع من ورثة آخر الرسالات السماوية أن يتقدموا لتوجيه البشرية المضطربة، ومع هذا فإن الحقيقة الواضحة هي أنه بالرغم من أن الله قد اخبرهم أنهم "خير أمة أخرجت للناس"، فإنهم منصرفون في صراع من أجل الوجود، ولا شك في أن الموقف الحالي الذي يسود العالم، يتطلب على وجه السرعة أن يقوم هؤلاء الذين يخشون الله بواجب الإرشاد، فإذا لم تظهر الأمة المسلمة - مثلها مثل بقية الأمم - الشجاعة الكافية لمواجهة هذا التحدي، فكيف لها أن تميز نفسها عن بقية الأمم الأخرى، بصفتها وريث آخر الرسالات الإلهية.

وفي الفترة الأخيرة وبمناسبة انعقاد مؤتمر برلمان أديان العالم، سنحت لي الفرصة أن أسافر إلى أسبانيا وأقيم هناك على قمة جبل "مونتسيرات" في أحد الأديرة النصرانية، وكان يقيم في نفس الدير بعض قادة السيخ الدينيين، وراهب هندوسي من "ماني بور"، وقد لاحظت أن الراهب الذي استيقظ مع بزوغ الفجر، قد انهمك تماما في ضبط هندامه، وزينته بعناية فائقة وتركيز كامل، فهو يضع الصبغة البيضاء على جبهته ويمدها إلى أنفه، حتى بدا للناظر، من خلال وجهه البشري، أنه زعيم ديني بكل تأكيد!

ومن ناحية أخرى كان الزعيم السيخي مشغولا بضبط طول ملابسه، التي أصبحت طويلة إلى حد ما بمساعدة صديق له، وذلك حتى يتمكن من المشاركة في برلمان أديان العالم كزعيم سيخي بحق، يرتدي عمامته الشهيرة المميزة؛ كان هناك عدد كبير جدا من الأزياء الدينية الملونة، الرداء الأسود للرهبان البنديكتيين، وطاقية اليهود، والساري الأبيض الطويل للبراهما كوماري، والجلباب العربي، والطربوش الذي يرتديه بعض علماء المسلمين، وقد أضاف البعض أمام أسمائهم لقبًا تشريفيًا مثل "نيافة"، بينما أصر البعض الآخر على أن يسبق اسمه كلمة "المبجل" أو "الأب"، وإذا كان البعض يصف نفسه بالحاخام فقد وصف البعض الآخر نفسه بلقب "مولانا"، كما أن البعض رأى أنه من المناسب أن يكتب أمام اسمه بعناية فائقة كلمة "الإمام".

في مثل هذا الاجتماع الذي ضم رجال دين مبجلين، كان مثل هذا الإصرار على التفنن في ضبط الثياب وعرضها بهذه الطريقة يترك المرء في حيرة من أمره إن لم يُصب بخيبة أمل، وقد سألت الراهب الهندوسي الذي يجلس بجواري عن سبب هذا الإصرار من جانب رجال الدين في التفنن في ارتداء مثل هذه الأزياء الخاصة، كلٌ حسب جماعته أو طائفته، ونحن هنا في برلمان أديان العالم، لأن هذا يؤكد على الإحساس بالاختلاف بين الأديان؛ وبعد كثير من النقاش والجدل في هذا الأمر، خرج عليّ الراهب بالجواب الصريح قائلا: "إن الناس ينظرون إلينا بوصفنا هداة لهم وقادة لهم، وهم يريدون رؤيتنا في الصورة النموذجية التي يكون عليها الزعيم والمرشد، وهي صورة تختلف بالطبع عما تكون عليه صورة رجل الشارع العادي. من الواضح أن كل هذا الاهتمام بالزي، هو نتيجة لما يتصوره عامة الناس عنا، وإلا فما علاقة الزي بالتقوى والورع؟"

لا شك أن الراهب الهندوسي لا يمكن أو يلام وحده على هذا الأمر مع استمرار هذه الطقوس الخاصة بالأزياء، فجميع الزعماء الدينيين وأئمة الطوائف الدينية قد عانوا كثيرا أثناء ارتداء الأزياء الخاصة بهم، والتي تميزهم عن عموم الناس، وتظهرهم كرجال دين أو ربانيين من أول نظرة ودون أدنى شك، أما عموم الناس فقد يصعب عليهم أن يقرروا ما إذا كان من يرتدي هذا الزي رجلا من لحم ودم مثلهم،

يتنفس مثلهم من تحت هذه الملابس الثقيلة المهندمة، وما إذا كانت وجهات نظره وأفكاره يمكن أن تخضع للنقد والتدقيق**!!**

يُقال إنه حين قدم الضابط الروماني لاعتقال المسيح عيسى عليه السلام، كان من الصعب عليهم التعرف على المسيح لأنه كان يجلس بين أتباعه، وقد اعتمد على إشارة يهوذا الخائن عند قبلة التبجيل، وقد كان عيسى قبل كل شيء نبيا وجيها مميزا؛ وحتى خلفاء النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يرغبوا في أن يتخذوا أي وسيلة غير طبيعية تميزهم أو تجعلهم يختلفون عن الناس العاديين، وكثيرا ما كان زائرو المدينة المنورة يعبرون عن دهشتهم من مظهر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو يتعامل معهم مرتديا ملابس عادية لا تميزه عن غيره، ودون أي مظهر من مظاهر القوة، ودون حاشية أو بطانة تحيط به، وكان الرعيل الأول من المسلمين يقدرون حرية الفكر أيما تقدير، فكانوا يعرفون جيدا أن الكل سواسية أمام الله عز وجل، ومسئولية القيادة أو تقديم الإرشاد للآخرين لا تصل بالقادة إلى منزلة مقدسة، أو مكانة تعلو فوق مكانة البشر العاديين، والمسلمون أنفسهم يعتبرون أنه من حقهم نقد أفعال قادتهم وأقوالهم، وتدقيق أقول علمائهم، لدرجة أن امرأة بدوية من عموم الناس تجرأت على أن تختلف في الرأي مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أثناء خطبة الجمعة، وبالمثل فإن القادة والعلماء اعتبروا أنفسهم أناسا عاديين من لحم ودم، مثلهم مثل أي فرد في المجتمع، وأنهم ليسوا أبدا من جنس يفوق البشر، كما أنهم لم يلقبوا أنفسهم بأي لقب، ولم يرغب عامة المسلمين أيضا في أن يروا أناسًا مثلهم، يحيطون أنفسهم بهالة من التبجيل والتقديس، ولأن المسلمون كانوا يقدرون حرية الفكر، فإنهم سعوا إلى الهداية من خلال ما ورد في كتاب الله، وليس من خلال أقوال قادتهم أو علمائهم، وحين أشاع العلماء والأدباء العرف الذي انتشر فيما بعد، والذي يقضي بتقديم أنفسهم على أنهم قديسون، متميزون عن البشر العاديين، بدأت الألقاب الدينية الفخمة والرنانة توضع قبل الأسماء وبعدها، ودخل الفكر الإسلامي مرحلة الركود، واللجوء إلى التقليد الأعمى.

إذا لم نستطع اليوم – رغم وجود القرآن الكريم بيننا – رؤية أي بصيص من ضوء الأمل في نهاية النفق المظلم، فإن هذا مرده إلى الحقيقة المتمثلة في أننا نعطي

العلماء والفقهاء تقديرًا وتعظيمًا أكبر مما نعطيه للقرآن الكريم الذي أنزله الله على خاتم الأنبياء، وبدلا من أن نقترب مباشرة من القرآن الكريم، ونضيء عقولنا بما فيه، اعتبرنا أنه من الضروري أن نتحقق مما إذا كان اتجاهنا موثق ومدعوم بأقوال العلماء المسلمين الأوائل، أما أولئك الذين كان يجب عليهم أن يدرسوا القرآن الكريم، فقد حولوا أنفسهم؛ عن طريق شعائر وطقوس مختلفة، وعن طريق اكتساب الألقاب الفخمة، إلى مرجعية دينية، فكانت النتيجة المنطقية هي ظهور طبقة كهنوتية بين المسلمين. ماذا عساه يكون السبب في هذا التشابه المثير بين قادة اليهود الدينيين وأولئك الذين ينتمون إلى أمتنا؟! فقادة اليهود الدينيون يسمون أنفسهم بالحاخامات، للدلالة ضمنا على أنهم يشاركون الله في صفاته، بينما اتخذ القساوسة النصارى لأنفسهم كلمة "الأب" التي لا تناسب إلا الله عز وجل، وبنفس الطريقة اتخذ القادة المسلمين لأنفسهم لقب "مولانا" وهي والكلمة التي استخدمت في القرآن الكريم للإشارة لله عز وجل.

حين تعتاد الأمم رؤية قادتها الدينيين يحيطون أنفسهم بهالة من القدسية، وحين يؤمن عموم الناس بأن بينهم شخصيات تمتلك أفكارًا مقدسة وطاهرة، لا تخضع للنقد أو التصحيح، عندئذ يُكبت صوت الحرية، وفي اللحظات الحرجة تفشل مثل هذه الأمم في أن تجد حلولاً جديدة لمشكلاتها، وتفشل في أن تضيء طريقها بنور الوحي الإلهي، ومن هنا فإن نتيجة كل ما يتخذ من إجراءات باسم الدين، تكون نتيجة عكسية، فالعتاب الشديد الذي يوجهه عيسى في الإنجيل للفريسيين، وهم من موالي اليهود في زمان المسيح، يؤكد وجهة النظر هذه.إن توكيد القرآن الكريم، في سياق الحديث عن انتشار الدعوة الإسلامية بين الناس، على أنه يقدم لهم النجاة من استبداد الكهنوت وطغيانه، كان يمثل التأكيد على فكرة أن الله تعالى لم يعط حق تفسير الدين إلى طبقة بعينها، وأن دعوة النبي إلى التغيير لم تكن تتحمل أي نوع من التدخل من جانب الحاخامات أو الباباوات أو الموالي.

كيف يمكن للمؤمنين، مع خشيتهم من الله عز وجل وحبهم له، أن يلقبوا أنفسهم بالألقاب التي خص الله بها نفسه، فادعاء المرجعية الدينية الزائفة، يؤدي بالتالي إلى إخماد نور حرية الفكر والتعبير؟!

فالاختلاف الجوهري بين الدين الفقهي والدين الذي أوحاه الله يكمن في أن الدين الموحى من عند الله موجّه ليملأ قلب الإنسان وعقله بالإخلاص لله جل وعلى، بينما يقع دين الفقهاء في شَرَك الجدال على دقائق الأمور وإظهار الطقوس المظهرية التي لا تخلق إلا إخلاصًا واهمًا. فالوحي الإلهي يضيء التاريخ ويقدم للمستمسكين به مفتاح أسراره؛ بينما يظل الفقهاء والحاخامات، من باب حرصهم الزائد، مستمرون في وضع الزيادات التي لا تنتهي حوله، حتى إن لب الوحي الإلهي يضيع في النهاية مع تراكم هذه التفاصيل.

المسلمون في جميع أنحاء العالم يتساءلون في يأس متى يأتي نصر الله؟

بالرغم من تراجع المجتمع الإسلامي عن المكانة السيادية التي كان يتبوؤها، فإنه مازال يعتبر نفسه أفضل المجتمعات على الإطلاق؛ فمازال أفراد المجتمع الإسلامي يتصرفون بطريقة تنم عن رضاهم عن أنفسهم فيما يتعلق بإدارة شئونهم وهم منغمسون في أحلام اليقظة. وعلى المستوى الوجداني، مازال المجتمع يجد صعوبة في تقبل حقيقة أنه لم يعد المجتمع الذي وعده الله بالنصرمن خلال ملائكة السماء في أوقات المحن. فالأناشيد العذبة التي تمجد سيرة نبينا محمد ﷺ والأعداد الهائلة لحشود المحتفلين بالمولد النبوي من كل عام وجموع المصلين لإداء صلاة الجماعة قد تعيد الاطمئنان إلى قلوبنا بأننا حقا الأتباع المخلصين للدين الحنيف ولكن تبقى الحقيقة واضحة أمامنا بأننا لم نعد الأمة التي وصفها القرآن بأنها خير أمة أخرجت للناس. وقد أخذت الكارثة أبعادًا خطيرة.

لقد مرت قرون طويلة منذ أن كنا نتبوء المكانة السيادية، وكنا نتصف بأننا خير أمة أخرجت للناس. وبوصفنا أتباع النبي الخاتم فقد أنعم الله علينا بوعده لنا بقيادة العالم حتى يوم القيامة، وتبوءنا هذه المكانة السيادية من خلال كلام الوحي المنزل على النبي محمد من السماء. وحينما كان الوحي الإلهي هو النور الذي أضاء الطريق أمامنا استطعنا إحكام قبضتنا على مجريات التاريخ. فقد كانت مجريات الأحداث في العالم تسير طبقا لتوجهنا وأحيانا، وفي اللحظات الصعبة، عندما كنا نشعر بأن قبضتنا

بدأت تتراخي نجد أن أنظارنا تبدأ تلقائيًا تتطلع إلى السماء، نسأل الله أن ينصرنا واثقين من أن نصر الله قادم في الوقت المناسب، ففي غزوة بدر كان النبي يقود بنفسه عدد قليل من المجاهدين ضد جحافل الأعداء وقد سأل الله أن ينصره.

وأثناء الغزوات التالية من التاريخ الإسلامي سواءٌ تلك التي أسفرت عن هزيمة ملوك الفرس أو الروم أو بعد ذلك حادثة حرق السفن على الساحل الأندلسي كان المسلمون دائمًا يشعرون بوجود الله الحي القيوم الذي يقف ورائهم يشد من عضدهم. وقد كان هذا الشعور هو الباعث الذي طالما يحركهم لاقتحام أصعب المخاطر في سبيل نصرة الدين. وعندما وقع هرمزان – قائد الفرس الشهير – في الأسر ومَثُل أمام الخليفة عمر بن الخطاب اعترف بهذه الحقيقة قائلا: "يا عمر، كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن الله معنا ولا معكم! فلما كان الله معكم غلبتمونا؟" لاشك أننا ننتمي إلى نفس الأمة التي هزمت أعظم الجيوش بفضل قوة إيماننا بنصر الله لنا. ولكن ما الذي حدث بعد كل ذلك، فقد أصبحنا الآن – ومنذ عدة قرون – بعيدين عن نعمة الله هذه. وهناك عدد ليس بالقليل من أبناء هذه الأمة – حتى في هذه الأيام – على استعداد لمواجهة الموت في سبيل الله. وقد تشكلت في أماكن متفرقة من العالم جماعات عدة منها: حزب الله و جند الله و الجهاد الإسلامي والجماعة الإسلامية و مجاهدين الإسلام وسيباه صحابة وغيرها من الجماعات الإسلامية. و أتباع مثل هذه الجماعات مستعدين للتضحية بأرواحهم في سبيل نصرة الإسلام. فلا تخلو أية بقعة من بقاع الأرض من أتباع النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) الذين كتبوا تاريخ الإسلام العظيم بدمائهم الزكية.

ومع ذلك، يبدو أنه قد قدر لنا أن نتجرع مرارة الهزيمة في جميع صراعتنا الصغرى والكبرى وكذلك في تحديات العالم المعاصر. فالله تعالى، القادر على تغيير مجريات الأمور في لمح البصر، لم يأتي لخلاص المسلمين. لذلك نجد مظاهر الحزن واضحة في المجتمع الإسلامي بشكل أكثر من أي مجتمع أخر حيث يستطيع المرء ان يسمع صرخات يائسة تتردد في جميع جنبات المجتمع المسلم. وذلك مرده أن المجتمع الإسلامي كان ولا زال يعاني من أهوال القتل والإبادة منذ قرون طويلة وحتى الآن فكل لحظة تحمل عذابات جديدة وكل يوم يشكل تحديًا جديدا عليه مواجهته. فلمن يلجأ

الناس في لحظات الأزمات الحالكة هذه؟ أصبحت المساجد الآن مكتظة بحشود المصلين أكثر من ذي قبل. فقد نجحت حركات الإصلاح و الإحياء في خلق مناخ مثالي مناسب لإقامة الصلاة و الصوم وقيام الليل والاتبهالات و التأمل والتدبر وغيرها من أشكال العبادات الأخرى. وهناك عدد وافر من المسلمين الذين يؤدون النوافل ويقرأون آيات الذكر الحكيم. وبالرغم من ذلك وبالرغم من الاضطراب الواضح الذي أصاب المسلمين وقلة حيلتهم فما هو السبب وراء حرمان المسلمين من عناية الله العلي العظيم؟

ويثير مثل هذا التساؤل اهتمام كلاً من الخاصة والعامة من بيننا؛ بل يبدو أنه قد حير أفضل العقول المثقفة من بيننا أيضًا. فمنذ أكثر من عامين، وأثناء هجوم الولايات المتحدة الأمريكية على أفغانستان نتيجة لرفض الشعب الأفغاني الوصول لتسوية على حساب احترامه لذاته، كان عليهم مجابهة وحشية الجيش الأمريكي؛ حيث أمطرت المقاتلات النفاثة "بي-52" الشعب بوابل من القذائف التي حصدت الأرواح. فلم يكن هناك أي مسلم في أية بقعة على وجه الأرض إلا وقد دعا الله باكيًا في صلاته خلال تلك الاسابيع. وكان العالم الإسلامي أجمع – من شرقه إلى غربه بما في ذلك الشيعة والسنة – قد رفع أكف الضراعة إلى الله قائلاً " اللهم خلص هذه الجماعة التي لا حول لها ولا قوة."

كانت الابتهالات في الصلاة تتردد في جنبات المساجد بشكل كبير لدرجة أن المسلمين الذين لم يكونوا من رواد المساجد من قبل اعتادوا ارتياد المساجد منذ ذلك الحين متوجهين بالدعاء إلى الله سائلين منه العون مع إخوانهم من المصلين. وقد أظهر الأفغان شجاعة نادرة، فالموت الذي كان يهبط عليهم من السماء لم يستطع أن يوهن من عزيمتهم. في هذه اللحظة كان العالم كله يقف في انتظار حدوث معجزة. ومضت الأيام والأسابيع ولم تلوح في الأفق أية بادرة للمعجزة المنتظرة. على النقيض من ذلك، فقد أخذت معالم هزيمة الشعب الأفغاني تتضح يوما بعد يوم. وقد أدى ما حدث للشعب الأفغاني إلى زعزعة ثقة الأمة الإسلامية كافة؛ فالله تعالى لم يمد إليهم يد العون. وخيم اليأس بظلاله على الأمة بأسرها. وقد كان ذلك هو الحدث الثاني في

التاريخ الإسلامي – بعد الاستيلاء على بغداد في عام 1258 – والذي أصاب وجدان المسلمين بكارثة. وبدا أن هذه الأمة لن تشهد بزوغ أي فجر جديد.

ودائما ما نعلن كمجتمع إسلامي – وفي أحلك لحظات الأزمات – إن النصر سيكون حليفنا وأن الله سوف يرزقنا بنصر من عنده وفتح قريب. وقد بذلنا أقصى ما في وسعنا لمواجه العدو ومحاولة تغير قدرنا المحتوم. ومع ذلك فمازلنا بعيدين عن نصر الله. ومنذ عدة شهور مضت عندما هبت عاصفة رملية على الدبابات الأمريكية أثناء مسيرتها نحو العراق غمرت البهجة أرجاء المجتمع الإسلامي؛ حيث تراءى لهم أن نصر الله قد وصل أخيراً. ولكن سرعان ما تبدد هذا الشعور بالرضا. فسقوط بغداد مرة ثانية قد أكد حقيقة أن الله لم يعد يؤيدنا بنصره، ومادام المجتمع لم يعد يتمتع برضا الله وتأييده فلن يستطيع أحد أن ينقذنا من هذه الهزيمة وهذا الخزي. ومنذ قرون مضت وحتى الآن ونحن نواجهه الهزائم كل يوم؛ ويبدو كما لو كان شيء ينكسر بداخلنا كل لحظة. ونحن لا نملك سوى أن نناضل جميعنا؛ وحتى بعد ذلك نتسائل متى يأتي النصر من عند الله؟

لم يعبأ المفسرين والفقهاء، على ما يبدو، في عالمنا اليوم بتحليل هذا الموقف للوصول إلى إجابات مقبولة. بل على العكس، ركزوا مزيدًا من اهتمامهم على محاولاتهم لطمأنتنا من خلال تفسيراتهم المغلوطة لآيات القرآن الكريم. ومن وجهة نظرهم، فكل هذه الابتلاءات تهدف في واقع الأمر إلى اختبار قوة إيماننا؛ حيث يفهمون الآية القرآنية:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (البقرة 214)

على أنها تشير إلى أن الدنيا بالنسبة لهم ما هي إلا دار ابتلاء للمسلمين حيث يجب عليهم أن يستعدوا لما سيصيبهم من محن وابتلاءات.

فالحياة الدنيا بالنسبة للمشركين ما هي إلا دار لعب ولهو؛ ولأن المسلمين قد وُعدو بحياة كريمة في الآخرة ، لذلك عليهم أن يصبروا و يثابروا في مواجهة مثل هذه الابتلاءات في الحياة الدنيا. ولعدم وجود مفر من الخروج من مثل هذا الموقف المخزي قامت بعض الجماعات برفع شعار الزهد في الحياة الدنيا باعتباره الاتجاه الديني الذي يجب أن يسلكه جميع المسلمين. ولكن تكمن المشكلة في أن الزهد لم يعد ممكنا في ظل العالم الذي نعيشه اليوم. فعندما يتعرض وجودنا للفناء البطيء، كم فرد منا يستطيع أن يطرح التفكير في هذا الموضوع جانبًا غير مبال بالكارثة الوشيكة، وإلى متى يستطيع ذلك؟

مثل هذه الحياة المخزية والأسى الذي تسببه الإخفاقات المتلاحقة لا يتفقان مع تاريخنا الماضي، حيث كان المسلمون الأوائل مضرب الأمثال في التقوى و العظمة. ونحن بحاجة إلى أن نقتدي بهم في حياتنا العملية. ومن يكون أفضل إسلاماً من النبي ﷺ وصحابته؟ لا ريب في أنهم قد واجهوا تحديات عظيمة ولكنهم لم يضطروا إلى أن يحيوا حياة الخزي أو يعانوا من ألام الهزائم المتلاحقة. و إذا ما تصفحنا تاريخنا سوف نجد أن الله عز وجل قد وعد المؤمنين بالزعامة و السيادة في الحياة الدنيا، ناهيك عما أعده الله لهم في الحياة الآخرة. وكل صفحة من صفحات المصحف الشريف تشهد على هذه الحقيقة، فقد أنعم الله على المؤمنين بقيادة العالم، علاوة على أنه يحمل لهم البشرى بالثواب في الدار الآخرة. والروايات والقصص المنقولة عن ملك سيدنا داود وسيدنا سليمان التي تتناول المكانة المميزة التي احتلها بني اسرائيل بين جميع الأقوام في العالم تلقي الضوء على حقيقة مفادها إننا بانحيازنا إلى جانب الله نستطيع أن نحقق نصرا على العالم كله. لقد حدث ذلك في الماضي وأخبرنا به القرآن.

إذن ما هو السبب الذي من أجله لم تتحقق البشرى التي وعدنا بها الله في قوله:

﴿ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤ ﴾

على مدى قرون عديدة وفي جميع الأزمات التي مرت بها الأمة. وبما أننا محرمون من عون الله لا تؤدي بنا جميع الجهود التي نبذلها إلا إلى استخلاص دروس تفيدنا في المستقبل .

وأحداث العالم المعاصر أثبتت أننا لم نعد الأمة التي يمكنها أن تتأكد من نصر الله لها وتنظر إليه باعتباره حليفها ومساندها. وخلال عصور الاضمحلال المستمر قام شاعر ينتمي إلينا بنظم آلف قصيدة شكوى قام فيها بمناجاة الله شاكيًا من حجب نعمه. ولاشك في أن هذه الشكوى الشعرية تحمل في طياتها الحقيقة الظاهرة لحياتنا اليومية

"لقد أغدقت نعمك على ديار الكافرين والدخلاء

ولم ينزل غضبك كالبرق إلا على المسلمين المساكين"

ومع ذلك، ومن أجل معالجة مثل هذا الموقف، بحث الشاعر عن إجابات كانت تقليدية كغيرها من الإجابات التي قدمها علمائنا وأسلافنا ولكن في أشكال مختلفة. من الذي يستطيع أن ينكر أن هذه المواقف ما هي إلا صحوة جديدة والتماس فضل من الله وتوجه إليه تعالى؟

مع ذلك، وبالرغم من وجود مثل هذه الإجابات الواضحة يرجع فشل مجتمعنا في الفوز بنصر الله أساسًا إلى حقيقة أننا نفسر "التوجه إلى الله" باعتباره حفاظ على أداء بعض الشعائر بطريقة آلية. وهذا هو سبب الذي جعل جميع جهودنا في التوجه إلى الله لا تجعلنا نستحق نصرته. و يظل الوعد القرآني بالنصر بعيدا عنا كل البعد. وهنا يطرح السؤال نفسه في عقول أصحاب النفوس التي لا تهدأ عن حقيقة وجود الله من عدمه. أين هو الله الذي طالما وعد المؤمنين بنصره؟

طالما أن مجريات الأمور قد أوضحت لنا أن الله قد تخلى عنا، يصبح لزامًا علينا ونحن نحيا بقوة الآمل في عون الله أن نبحث عن إجابة لسؤالين على جانب كبير من الأهمية: أولاً ما هو السبب وراء حدوث ذلك، ثانيًا ماذا ينبغي علينا أن نفعل لنستحق نصرة الله من جديد. بمعنى أخر، يجب علينا كوحدة مجتمعية أن نقوم بإعادة تقييم وجودنا الجمعي. وبما أننا لسنا مستعدين لاستكشاف حاضرنا فلن يمكننا إيجاد أية حلول للمستقبل.

أولا، يجب علينا أن نستوعب وبشكل واضح أنه بالرغم من شدة رغبتنا في خلق علاقة بيننا وبين صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تظل هناك حقيقة مؤكدة هي أن تلك العلاقة شديدة الوهن على المستوى الفكري والعملي. فالإسلام الذي كان يدعو النبي إليه ويطبقه يختلف عن الإسلام الذي نشهده اليوم. فقد كانت حياته مضيئة بنور القرآن الكريم. فعند بناء حياتنا الدينية بدأنا نعتمد على كتب كثيرة قمنا بتأليفها بأنفسنا، بدلاً من الاعتماد على القرآن الكريم.وقد أسلم صحابة النبي أنفسهم لله بشكل مطلق فذاقوا حلاوة الإيمان؛ ولكننا وقعنا في شرك أداء شعائر جامدة. فهم حقا عباد الله الأخيار الذين منحهم الله بالسيطرة الكاملة على مجرى التاريخ. ونحن لا نملك اليوم سوى بعض الأوهام عن كوننا أفضل مجتمع مرددين الاعتقادات الخاطئة عن أفضليتنا عن غيرنا من الشعوب الأخرى وأصبحنا نعيش أسرى أمجاد الماضي. وموقفنا الآن لا يختلف كثيراً عن موقف بني إسرائيل الذين مازالوا – رغم حرمانهم من مكانتهم المميزة – يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار. وبالنسبة لهم فإن كلمة التقوى تعني مجرد التمسك بالشعائر الدينية. ولأن الشعائر الجامدة لا يمكن أن تنتج شعورًا حقيقيًا بالتقوى، فهذا هو السبب الذي جعل عودتنا المزعومة للدين لا تنتج الثمار المرجوة. وما أكثر المسلمين شديدي الالتزام والتمسك بكل تعاليم الإسلام!. وبعد انتهاء النزعة الاستعمارية، عادت المساجد تزدحم بالمصلين مرة أخرى، ويزداد عدد معاهد التعليم الديني يوميًا، والعودة إلى جذور الدين أصبحت سمة جلية بين الشباب المسلم في كل أنحاء العالم. على الرغم من ذلك، فإن كل هذه المظاهر الخارجية التي تدل على الرجوع إلى الدين لم تجعل منا أناس يستحقون نصر الله. وإذا كنا لا نستحق نصر الله، فإن هذا يطرح سؤالاً ألا وهو هل يريد الله حقًا هذا النوع من العبادة الذي نراه نحن تعبيرًا حقيقيًا عن تقوانا؟

لتقدير حالتنا المتدنية من الألم والمعاناة تقديرًا أفضل، وذلك مع عدم وجود نصر من الله، فسوف يكون من المفيد أن نذكّر أنفسنا ببني إسرائيل. وهذا ملائم هنا أيضًا، وذلك نظرًا لأن القرآن يحذرنا من خلال إشاراته المتكررة لبني إسرائيل من التقيد بشعائر جامدة لا روح فيها. لقد اشتهر بنو إسرائيل، الذين ننظر إليهم على أنهم شعب معلون وحقير، بالمبالغة في إظهار تدينهم، واعتبروا أنه من الضروري استشارة

الحاخامات ورجال الدين بشأن أدق التفاصيل عن أية موضوع. ولنأخذ على سبيل المثال تفاصيل يوم كيبور أو يوم السبت أو الطريقة الصحيحة لذبح الحيوانات (قتل الكوشير)، وبالنظر إلى الطريقة شديدة التأنق التي يتبعها بنو إسرائيل المتدينين للالتزام بأدق تفاصيل شعائر التلمود، يبدو لأي فرد أنه نادرًا ما يوجد شعب آخر في العالم قد تمسك بالدين على هذا النحو المثالي. فما زال بنو إسرائيل يعتقدون أنهم شعب الله المختار وأن لهم الأفضلية على كل شعوب العالم الأخرى في الفوز بحظوة الله، ويعزون ذلك إلى تمسكهم بالتوراة، والتي بسببها احتلوا هذه المكانة المتميزة. وهذا هو السبب الذي جعلهم يؤمنون بأن نصر الله لهم على الدوام شيء مسلم به. وعندما أصبح اليهود في عهد النازية الألمانية هدفًا للكره العام، ووجد شعب الله المختار – كما أطلقوا على أنفسهم – أن الأرض قد أصبحت جحيمًا بالنسبة لهم، تعجب العلماء والمفكرون منهم؛ كيف يمكن أن يرى الله شعبه المختار يواجه هذه الإبادة البطيئة؟ وقال البعض أن التوراة تحتوي على طاقات هائلة كامنة وغير ظاهرة، فيمكن أن يتغير حال هذا الشعب إذا رتلت ترانيم معينة مرات ومرات. ولجأ البعض إلى مخطوطات الشعوذة والتنجيم، بينما أعاد البعض تشكيل علاقاتهم مع مؤلفات الربانيين وأخذ البعض الآخر بزمام المبادرة في تنظيم الترتيل والتأمل الجماعي. ولما ازداد الأمر سوءًا في ألمانيا والأماكن الأخرى بالنسبة لليهود، فقد ازداد رجوعهم إلى الدين وتمسكهم به، لدرجة أنه وجد البعض في معسكرات الاعتقال والموت منهمكين في ترتيل الترانيم الدينية أو التمتمة بالتعويذات في همس. وكان تدينهم الشديد جليًا في الحقيقة المتمثلة في أنه على الرغم من عدم توافر أدنى حد ممكن من الطعام الذي يسد رمقهم أو الملابس التي تستر عوراتهم في هذه المعسكرات، كانوا يشعرون بحاجة شديدة إلى كتب الصلوات (السيدور) التي التزموا بها سواءٌ بشكل فردي أو جماعي، والتي كانوا يحصلون عليها بعد دفع الرشاوى لمسؤولي السجن. وأثناء عمليات التفتيش، كان تصادر هذه الكتب وتُلقى في النيران أمامهم، وكان المتدينون من بني إسرائيل يصرخون ويتشائلون عما إذا كان هذا العالم سوف يفنى في غياب هذه الكتب الدينية. واعتقد بعض النساك اليهود أنه إذا قُرأت أجزاءٌ معينةٌ من التوراة بشكل متكرر مع استيعابها ثم طُلب من الله العون، فإن العون سوف يأتي قطعًا. ويقال أنه في أحد معسكرات الاعتقالات، لجأ أحد هؤلاء النساك إلى

حفرة كان يتم إلقاء الموتى فيها، وظل هذا الناسك منهمكًا في الصلاة والتأمل، وبدأ الناس يطلقون على هذه الحفرة اسم "بيت ميدراش"، إلا أن الله لم يأتي لنجدته على الرغم من كل هذه التقوى والتوبة الصارمة.

هل يوجد دليل آخر على تدين بني إسرائيل أكبر من ثباتهم على ممارسة شعائرهم الدينية حتى في أصعب الأوقات. وإذا ما نجحوا بطريقة ما في العثور على ملابس دينية (مثل التفلون أو التيليت) فإن ذلك كفيل بأن يشعرهم بالفرح والنشوة الشديدة في حياة مظلمة لا تعرف سوى الحزن. وكانوا يرتدون التفلون ويؤدون الصلوات واحدًا بعد الآخر. وكان كثيرًا ما يحدث أنه حتى أثناء الانتقال من معسكر إلى آخر فإنهم يحافظون على دروس التلمود، إذا كان بينهم عالم من علماء الفقه التلمودي. وعندما يرتاحون من جولات مسؤولي السجن في معسكرات الاعتقال، كانوا يجتمعون للاستماع إلى التوراة و"المشنا" يرتلها عليهم من يحفظونها عن ظهر قلب. ويقال أنه في معسكر "مادانك" حيث كان يوجد ثلاثة آلاف يهودي، لم يكن هناك أحد يتغيب عن الاشتراك في الصلوات الجماعية اليومية. وفي أحد الأيام رأوا صفحة من التلمود على كومة من القمامة، فشعروا بفرحة غامرة. واعتاد الحاخام "إسحاق زانبا" في هذا المعسكر أن يعقد جلسات منتظمة يبني فيها حديثه على هذه الصفحة المأخوذة من التلمود. وعلى الرغم من مصادرة كتبهم الدينية في المعسكرات، إلا أن ارتباطهم بدينهم كان عميقًا جدًا لدرجة أنهم كانوا يغلفون أغراضهم في صفحات التلمود. ويمكن قياس مدى إيمانهم بأنه على الرغم من أنهم كانوا يتوقون إلى لقيمات من الطعام فإنهم كانوا يقايضون بها مسؤولي السجن أو يعطونهم أسنانهم الذهبية بفرح شديد في مقابل الحصول على نسخة من التوراة أو نسخة من كتاب الصلوات أو نسخة خاصة من كتاب السيدور. وعلى الرغم من هذا التدين العميق، فلم تكن صرخاتهم من أجل الفوز بنصر الله سوى صرخات تذهب أدراج الرياح. ولم يفلح شعب الله المختار على حد زعمهم في جذب انتباه الله عن طريق إظهارهم لتدينهم بكل ما أوتو من قوة.

وقد زعزع ما حدث في معسكرات الاعتقال في أماكن مختلفة من ألمانيا وخاصة في أوشفيتز ثقة شعب بني إسرائيل جميعهم. ويقال إن النازيين قد قضوا على ثلثي اليهود الأوروبيين. ولم يحدث هذا في يوم واحد. وبينما بدأت قصص معسكرات

الموت والاعتقال التي تمزق القلب تظهر للجميع وبدأ يهود أوروبا يدركون أن فناءهم جميعًا بات أمرًا وشيكًا، فلم يملكوا إلا أن يسألوا أنفسهم هذا السؤال "هل يريد الله أن يخلي هذا العالم من شعبه المختار؟ وكيف يعقل أن نواجه الفناء من العالم ونحن أتباع التوراة الملتزمين بالتلمود في سلوكهم الحياتي، وعلى الرغم من ذلك لا نرى أي عون من الله في أي مكان؟". بل إن بعضهم بدأ يشك في وجود الله أساسًا. "هل القصة المجيدة عن بني إسرائيل التي يسمعونها دائمًا ما هي إلا خيال لا أساس له في الواقع؟".

وبالفعل، أصاب واقع أوشفيتز الفكر الديني لبني إسرائيل بكارثة؟ وحتى بعد ذلك، لم يكن هذا الشعب الذي يعيش في ماضيه المقدس على استعداد للقيام بإعادة تقييم حياتهم الدينية. ولم يكن هذا هو التحدي الأول الكبير الذي واجهوه؛ فبعد ظهور المسيح والتدمير الثاني لمعبد سليمان ومنذ تلك اللحظة وحتى يومنا هذا، كانت حياة هذا الشعب رحلة من المعاناة والإهانة المستمرة. وأينما ذهبوا، كانوا يتعرضون للإهانة والذل. وما إن يسكنوا أي مكان، إلا وكان عليهم أن يتركوه نتيجة لعداء أهل هذا المكان المحللين لهم. وكان من الواضح أن الله عندما حرم هذا الشعب من بركاته ونعمه أصبح من الصعب على هذا الشعب أن يجد مكانًا مريحًا في العالم بأسره. وقد كان بينهم عدد ليس بقليل من العلماء والمفكرين والفنانين أو الحكماء. فقد اعتادوا على العمل الجاد، ولم يكونوا أقل ممن حولهم في الإنجازات العقلية والوجدانية. وقد عرفوا جيدًا كيف يكتسبون الثروة وكيف ينفقونها. ولكن عندما يقوم الله بحرمان شخص ما من بركاته ونعمه، فليس بمقدور أعقل البشر أن يفعل شيئًا حيال ذلك. وللأسف، لم يستطع عقلاء بني إسرائيل أن يقرءوا الرسالة الواضحة المكتوبة على الجدران. ونتيجة لزعمهم بأنهم الورثة الحقيقيون لداوود وسليمان، فما زال بنو إسرائيل يخدعون أنفسهم باعتقادهم أنهم شعب الله المختار، ولن تكتمل رحلة التاريخ بدونهم. وفي العصر الحديث وبعد إنشاء دولة إسرائيل عندما شنوا الهجمات المفاجئة على العرب الغافلين عام 1967 وسجلوا نجاحًا غير عادي في معركة الأيام الستة، بدأوا يستشهدون بهذا النصر على أن الله قد عاد مرة أخرى ليساندهم.

ولكن ما زال علماؤهم الذين يخافون الله يصرخون من أبراجهم العالية ليؤكدوا أن وجود دولة إسرائيل لا يتفق مع ما جاءت به التوراة، ولا يستطيع أحد أن يجد أي إشارة إلى التعاليم الواردة في التوراة بين هذا الشعب. وتستمد دولة إسرائيل وجودها من الخيانة والاحتيال والقمع والبربرية، حيث تنتهك تعاليم التوراة يوميًا نتيجة للمكائد التي تدبرها الحكومة. كيف يمكن أن يساند الله هذه الدولة المناهضة للتوراة؟ إن الشعوب التي تفضل أن تعيش في الماضي ترفض أن تقوم بعمل أية عملية إعادة تقييم حقيقية، حيث توجه كل جهودهم نحو عرض تفسير للموقف بطريقة تنقذهم من عمل شيء كهذا. وإذا نظرنا إلى القضية بعينين مفتوحتين وعقول يقظة فسوف ندرك أن موقف المسلمين الحالي لا يختلف كثيرًا عما ذكرناه أنفًا. ولسوء الحظ، فقد تعودنا على الاعتماد بكثرة على التفسيرات المختلفة. وبدلاً من الإمعان بدقة في إخفاقاتنا على مختلف الجبهات، فقد اخترنا أن نخدع أنفسنا بالحجج التي تناسبنا والتي تساعدنا على أن نغمض أعيننا عن حالنا الذي يُرثى له.

في هذه اللحظة الحرجة من التاريخ، إذا أصررنا بعناد، مثلما فعل اليهود، على تفسيراتنا التي قدمنها حسبما تهوى أنفسنا، عندئذ لن تكون نهايتنا مختلفة عن نهايتهم، لأن أفضليتنا، سواءٌ كنا يهودًا أم مسلمين، إنما تنبع في واقع الأمر من التزامنا بالوحي الإلهي. فعندما كان اليهود يتبعون التلمود بإخلاص ظل تفوقهم على العالم لا ينازعهم فيه أحد، ولكن عندما بنوا سياجًا من التفسيرات الكهنوتية حول التوراة، وعندما بدأ التشريع الذي أنتجه رجال الدين يحكم حياتهم الدينية بدلاً من التوراة، وحازت مجموعات المشناة والجمارا ومجموعات كتب الصلاة وكذلك كتب البركة على المكانة الرئيسية عندهم، عندئذ زاد ضعف علاقتهم بالوحي الإلهي أكثر فأكثر. وأصبح ما تبقى من التوراة سجين الشروح والتفسيرات البشرية مما أدى إلى التناقص التدريجي للإخلاص الديني، بل واختفت التقوى الحقيقية، ولم تبق سوى الطقوس الدينية. وأصبح اليهود متشددين في مراعاة تفاصيل الطقوس، لدرجة أنهم ألّفوا مجلدات فقهية كبيرة حول أبسط أمور الحياة العادية. وقد أثقلت شروح الحاخامات للتوراة كاهل الحياة الدينية لبني إسرائيل، فقد ذهب علمائهم وفقهائم إلى حد أن أعلنوا أنه طالما أن الله قد أوكل التوراة لبني إسرائيل، أصبح لهم الحق المطلق فيه بشأن

الأمور المتعلقة بالشرح والتفسير. فقد اعتبر اليهود أن شرح الحاخام أكيفا للتوراة أصدق من شرح موسى له. وهذا الدين الذي أنشأه الفقهاء، يتساوى اليوم مع يهودية الحاخامات دون أية تحفظات؛ وقد يُعرف باسم دين موسى ولكن الحقيقة هي أن علاقته حتى مع ما بقي من التوراة، واهية جدًا. فاليهودية في شكلها الحالي، والتي أسس الفقهاء اليهود معظمها، لا يمكنها أن تنتج نفس التأثير الذي كان لدين موسى؛ فالاختلاف الجوهري بين الدين الفقهي والدين الذي أوحاه الله يكمن في أن الدين الموحى من عند الله موجّه ليملأ قلب الإنسان وعقله بالإخلاص لله جل وعلى، بينما يقع دين الفقهاء في شَرَك الجدال على دقائق الأمور وإظهار الطقوس المظهرية التي لا تخلق إلا إخلاصًا واهمًا. فالوحي الإلهي يضيء التاريخ ويقدم للمستمسكين به مفتاح أسراره؛ بينما يظل الفقهاء والحاخامات، من باب حرصهم الزائد، مستمرون في وضع الزيادات التي لا تنتهي حوله، حتى إن لب الوحي الإلهي يضيع في النهاية مع تراكم هذه التفاصيل. وتدريجيًا يعمل الاعتماد المتزايد على رجال الدين على إبعاد المجتمع عن بهاء الوحي الإلهي، وعندها تكون التفسيرات البشرية للوحي الإلهي والتعقيبات عليه المحرك الرئيسي الدافع للحياة الدينية بشكل كبير. فمصير بني إسرائيل فيه عبرة لنا، حيث يمتلئ القرآن الكريم بقصص حول مصير بني إسرائيل. وإذا اخترنا أن نُبقي أعيننا مفتوحة، عندئذ يمكننا أن نحاول بسهولة ويسر أن نجد إجابة في هذه القصص على سبب حرماننا من المكانة المميزة التي كنا نتبوءها عن حق والسبب الذي جعل الله يحرمنا من أنعمه؟!

○

والأمر الذي يثير مخاوفنا هو أن الإسلام صار في عصرنا الحالي مجرد مشروع مجتمعي. فالوضع الإسلامي الذي قمنا بتطويره على مدار تاريخنا لا يمثل مجال جذبٍ لاستقطاب شعوب الأمم الأخرى. بل على العكس إنهم ينظرون إلى الإسلام على أنه أيدلوجية معادية وتهديد محتمل على هيمنتهم. هذا هو السبب المنطقي الأساسي الذي يكمن وراء الحرب الأمريكية ضد الإرهاب وهذا هو جوهر القضية التي يطلق عليها المفكرون صراع الحضارات.

إن قراءة القرآن من جديد بعيدًا عن المنطقة العربية دون ربطها بعوامل الزمان والمكان التي ترتبط بالجزيرة العربية في عهد النبي ﷺ لها علاقة مباشرة بما سيكون عليه الإسلام في المستقبل. وإذا كان من المكروه الخوض في طبيعة الوحي، فإن الله ﷻ فقد فرض علينا جميعًا أن نتدبر المعنى الظاهري للنص وأن نوظف كافة الأدوات المتاحة لبلوغ لب المقصد متجاوزين حدود الزمان والمكان، قائمين برحلة إلى الوراء حتى عصر النبي ﷺ، وهنا يمكننا استعادة الصوت النبوي من جديد.

بحثًا عن الصوت النبوي

لقد جاء النبي محمد ﷺ بشيرًا ونذيرًا للخلق جميعًا ومن هنا حملت رسالته شعار العالمية؛ حيث دعا الرسول ﷺ إلى رخاء البشر أجمعين، كما دعا إلى تحرير الإنسان شرك الأغلال التي صنعها بنفسه. ومن ثَمَّ، بدا الإسلام للكثيرين كقوة تحريرية تفتح ذارعيها لكل من يبحث عن ملاذٍ له مهما كانت طبقته أو عقيدته أو لونه أو جنسه. فرسالة الإسلام التي جاءت على لسان النبي ﷺ تحمل دعوة عالمية، حيث اجتذبت إليها أناسًا من دولٍ خارج حدود الجزيرة العربية؛ فقد وجد كل من صهيب الرومي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي في هذا الجهاد نفس الوعد بالتحرر من أغلال العبودية، وهذا الأمر هو الذي جعل جميع سكان منطقة الجزيرة العربية يناصرون النبي ﷺ. وقد كان هذا هو مطلب الصوت النبوي عندئذٍ.

واليوم، وعلى الرغم من وجود 1.6 مليار مسلم من أتباع النبي محمد ﷺ في العالم اليوم، لم يعد أحد يسمع أو يلتزم بهذا الصوت النبوي؛ ففي كل المنتديات الإسلامية الدولية تقريبًا، سواء كانت منظمة المؤتمر الإسلامي أم رابطة العالم الإسلامي أم جامعة الدول العربية أم حتى الاجتماعات السرية للمنظمات الإسلامية البارزة، لا يتردد على مسامع المرء سوى الكثير من اللغط عن كيفية رفع شأن الأمة الإسلامية أو كيفية الحد من تراجع مكانة الأمة المسلمة دون التطرق إلى البحث عن سبيل لنجاة البشرية. والأمر الذي يثير مخاوفنا هو أن الإسلام صار في عصرنا

الحالي مجرد مشروع مجتمعي. فالوضع الإسلامي الذي قمنا بتطويره على مدار تاريخنا لا يمثل مجال جذبٍ لاستقطاب شعوب الأمم الأخرى. بل على العكس إنهم ينظرون إلى الإسلام على أنه أيدلوجية معادية وتهديد محتمل على هيمنتهم. هذا هو السبب المنطقي الأساسي الذي يكمن وراء الحرب الأمريكية ضد الإرهاب وهذا هو جوهر القضية التي يطلق عليها المفكرون صراع الحضارات.

وبما أننا نحيا هذه الفترة الحساسة التي أصبح فيها تاريخنا مجرد أحداث لا معنى لها، فإننا كمسلمين أصبحنا مجرد كبش فداء؛ فها هي وسائل الإعلام دائمًا ما تسوق في العالم كله صورة أكبر بكثير عن حقيقة أشخاص متطرفين من بيننا الذين يتجاهلون جوهر تعاليم الإسلام الأساسية في لحظات من اليأس والقنوط. والأمر الذي يجعل من هذا الضرر أمرًا لا يمكن إصلاحه هو غياب الصوت النبوي من بيننا تمامًا، هذه الرؤيا الخاصة بتحرير العالم والتي كانت يومًا من الأيام هي السمة المميزة لعصر صدر الإسلام. إذا اقتصرت جهود المعتدلين أو غيرهم من مفكري الإسلام على مجرد رفع قواعد البيت الإسلامي، وظل المتطرفون يعملون، بطريقتهم الخاصة، على أن تسود سيطرة طائفتهم على العالم كله، فأين يمكن أن يجد العالم رسالة خاتم المرسلين التي تحمل السلوى والحياة والشفاء للعالمين؟

ومادام الإسلام يتميز بالخضوع والتسليم لوجه الله رب العالمين، إذًا فهو الحقيقة العالمية، ولكن إذا كنا –نحن المسلمين- نجعل منه مجرد مشروع اجتماعي، فإنه قد أصبح هوية أكثر منه اتجاهًا ومسلكًا ويترك بغيته وأهدافه للآخر. ويرجع أصل هذا التحول إلى الأعوام الأولى من عصر بغداد حاضرة العباسيين عندما مجَّد فقهاؤنا هذه الرسالة العالمية بوصفها أيدلوجية الإمبراطورية. لقد بات كل ما هو مسلم في بؤرة تركيز مناقشتنا وذلك عندما أصبح من الواضح لنا أن الإسلام كان الأيدلوجية لهذا الجزء من العالم وحده والذي أطلقنا عليه "دار الإسلام" وذلك كوسيلة لراحتنا. وقد طالب علماء هذا العصر في غمرة حماسهم لتطويع الإسلام في خدمة الإمبراطورية بأعلى صوت على أن تُوضع قائمة متفق عليها للعقيدة الإسلامية. وعندما قام المشرعون المسلمون بصياغة متطلبات الاتجاه السائد في الإسلام طرحوا جانبًا القرآن الذي يبين ما يجب الإيمان به وما لا يجب. وقد كان لقضية خلق القرآن

أبعاد سياسية كبيرة، مما أعطى العلماء المزيد من الحرية لتدعيم فهمهم للإسلام على أنه أيدلوجية الإمبراطورية. وقد تصدى بشدة الإمام أحمد بن حنبل وحشد من علماء آخرين لهذه الحركة، بيد أنهم لم يتمكنوا من إخماد فكرة تحول الإسلام إلى مشروع اجتماعي. إن الآيات التي تركت مجال احتمالات التحرير مفتوحًا أمام أهل الديانات الأخرى آيات منسوخة واستغلها الفقهاء للحكم على القضايا الحساسة التي نهى القرآن عن الخوض فيها والتي أخبرنا القرآن أن الله ﷻ هو الحَكَم فيها فقد قال تعالى

﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ... ﴿١٧﴾ ﴾ (الحج 17).

ولكن ماذا تعني عبارة "كلمة الله"؟ هل كلم الله ﷻ محمد ﷺ بلغة عربية خالصة؟ أو أنه فقط أوحى له بالمقصد؟ وكيف حدث ذلك- أي كيف تحولت كلمة الله العليا إلى لغة يفهمها البشر؟ هل الوحي القرآني هو نفس كلمة الله عند النصارى؟ كان لهذه الأسئلة علاقة مباشرة لتصور القرآن كميراث وأيدلوجية واحدة للإمبراطورية العربية الجديدة؛ فالله ﷻ تحدَّث إلى النبي محمد ﷺ بلسان عربي مبين وفي المنطقة العربية ولكن في نفس الوقت عهد إليه رسالة عالمية ونهى أتباعه أن يتخذوا هوية اجتماعية أو محلية، بل وأمرهم أن ينغمسوا في صبغة الله التي لم تعد تشغل بالنا

﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (البقرة: 138).

هل يمكن تصور الإسلام بعيدًا عن العروبة؟ أو هل يمكن فهم مقصد الرسالة بعيدًا عن تراكيب اللغة العربية؟ لقد حيرت هذه الأسئلة العديد من المسلمين عبر العصور. على سبيل المثال؛ عندما رأى محمد إقبال، شاعر وفيلسوف الشرق، أنه في غياب الخلافة يكون هناك فرصة سانحة لفهم جوهر الإسلام النقي بمنأى عن عناصر الثقافة العربية، كان يعبر تمامًا عن أمله في ظهور رسالة الإسلام العالمية من جديد. أما في عصرنا الحالي، فإن أولئك الذين يجدون أنفسهم غارقين في خضم تلك الأسئلة المحيرة حول التركيب اللغوي للقرآن والذي – نتيجة لتداعيات النظرية التفكيكية على النظريات اللغوية- قد صعُب عليهم تمامًا فهم المقصد الحقيقي والتأكد منه حتى الآن. وفي حقيقة الأمر، حاول أناس أمثال: محمد أركون ونصر أبو زيد، من خلال سعيهم الحثيث لسبر أغوار معاني جديدة في النص، اقتحام منطقة الميتافيزيقيا التي أصبحوا

عندها منبوذين بل يصبحون بلا قيمة. لقد سلطوا الضوء على نفس قضايا العصر الماضي والتي دارت حول الجدل الذي أثارته قضية خلق القرآن. إن فهم رسالة خالدة بعيدًا عن الزمان والمكان أمر مثالي، لأنه ببساطة لا يمكن لأولئك الذين يعيشون في ظل القيود التي يفرضها الزمان والمكان أن يفهموا هذا. وليس علينا الآن إلا أن نقرأ كتاب الله من جديد ونحاول الكشف عن معانٍ جديدة ربما تكون قد غابت عن أذهان أسلافنا. إلا أنه لا يمكن فصل العناصر المكانية والزمنية من حياة النبي ﷺ عن النص القرآني. إن ما يدعو إليه علماء العصر التفكيكي أمثال محمد أركون ومن على شاكلته ليس مجرد دراسة النص في ضوء الأبعاد اللغوية والأنثروبيولوجية المكتسبة حديثًا، ولكنهم بسذاجتهم يحاولون دون جدوى اختراق المنطقة الخطرة محاولين الوقوف على جوهر عملية الوحي. إلا أنهم لم يظهروا بالفطنة الكافية في خطاباتهم المطولة على الرغم من نشرهم للنظريات اللغوية الحديثة واللهجات العصرية.

وفي عهد النبي ﷺ، كان هناك عدد غير قليل من الفضوليين الذين رغبوا في اكتساب بعض الأبعاد التي تتعلق بعملية الوحي. حتى أنهم سألوا النبي ﷺ عن سر الطريقة التي أنزل الله بها كلامه على نبيه، حول هذا الموضوع يخبرنا القرآن بقليل من التفصيل

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

وفي سياق آخر، يقص القرآن أشكال الوحي الثلاثة ولكنه لم يفصل القول حول العملية نفسها. ربما لم يرد الله ﷻ أن يكشف النقاب عن العملية ذاتها أو ربما يكون تقدير التحول المعقد لرسالة الله إلى لغة بسيطة يسهل على الإنسان فهمها أمر يتجاوز حدود الإدراك البشري. والله تعالى أعلى وأعلم.

إن قراءة القرآن من جديد بعيدًا عن المنطقة العربية دون ربطها بعوامل الزمان والمكان التي ترتبط بالجزيرة العربية في عهد النبي ﷺ لها علاقة مباشرة بما سيكون عليه الإسلام في المستقبل. وإذا كان من المكروه الخوض في طبيعة الوحي، فإن الله ﷻ فقد فرض علينا جميعًا أن نتدبر المعنى الظاهري للنص وأن نوظف كافة الأدوات

المتاحة لبلوغ لب المقصد متجاوزين حدود الزمان والمكان، قائمين برحلة إلى الوراء حتى عصر النبي ﷺ، وهنا يمكننا استعادة الصوت النبوي من جديد.

القرآن هو كلام الله ولكنه ليس كلام بلا روح، فهو دائم النمو؛ والقرآن أشبه بمنشور زجاجي يمكن أن نرى من خلاله كل عصر بضوء مختلف ويمكن أن يسطع نوره عبر الماضي والمستقبل. هذا هو شرع الله الذي يأمرنا أن نتعمق معاني القرآن:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (محمد 24).

كذلك، يشعر أولئك الذين يأخذون الكلمة أو الوحي الإلهي كعمل نهائي بأنهم مجبرين على إعطاء النص معنى من منطلق تاريخي، ومن ثم يحملون ذنب تجميد النص القرآني فضلاً عن إخضاعه للتاريخ، الذي كان أداة من صنع البشر بما فيها من نقائص. وبالمثل فإن أولئك الذين يدرسون النص القرآني باعتباره نصًا يصلح للتحليل الاجتماعي والانتروبيولوجي يتحملون أيضًا وزرًا مساويًا لأولئك الذين يفسرون نصًا قاطعًا مثل القرآن الكريم عن طريق إخضاعه لأدوات ربما تتغير في المستقبل، وكلتا الفئتين تطالبان، كل منهما على طريقتها، بالحق المطلق للتفسير.

لا يتصف العالم من حولنا بالسكون، فهو دائم التطور والنمو، وتجاهل هذه الحقيقة عند الحصول على فرصة للتفسير شيء وقراءة وفهم النص من جديد بمفهومنا الخاص شيء آخر؛ ففي الوقت الذي يكون فيه الأول أداة لتكوين عقل استبدادي وأنظمة حكم طاغية تحت ستار الدين، يجب أن يدخل الثاني حيز التجربة في عصرنا الحالي. لقد دُمِّر كنيسة الحياة في القدس، وهو مقر الصفوة من رجال الدين، مرتين وما زال كذلك حتى لحظتنا هذه وذلك بسبب الجمود العقائدي للعقل اليهودي الذي بدَّل رسالة الله العالمية إلى مشروع للخلاص الاجتماعي. وعندما تجاوزت خطايا الكهنة بالكنيسة الحد وادعى علماء الدين امتلاكهم الحق الوحيد ليس فقط في احتمالية النجاة ولكنهم شرعوا حتى في هجرها، أودت تلك العقلية المؤيدة للشمولية بأناس كانوا يتمتعون بالقوة يوما من الأيام إلى الهلاك التام. ولم يختلف مصير الخلافة العثمانية عن ذلك كثيرًا فقد تفتتت في النهاية، حيث إنه أصبح من الصعب على الأتراك المصابين بالحيرة أن يعوا أنهم يحملون على عاتقهم مهمة الحفاظ على الرسالة

النبوية. ويشهد التاريخ على حقيقة أنه أينما اعتبر أنصار أي دين الرسالة العالمية مشروعًا اجتماعيًا مدعين أن أتباعهم فقط هم الذين يملكون الحق في الخلاص والنجاة، إلا وقد وجدوا أنفسهم في نهاية الأمر معتقلين في نظام أوصد الباب أمام المحاولات التفسيرية. وفي كل هذه المواقف تظهر لهم كلمات الله ﷻ ككلام جامد كان مُوجهًا فيما مضى إلى السلف الصالح. وبسبب البعد عن كلمات الله التي دائمًا ما تنبض بالحياة، لم يجد رجال الدين بديل آخر سوى التشبث بالسلف الصالح. ويخلق هذا الاتجاه السقيم غير الإبداعي الإحساس بتدين زائف وأحيانا يؤدي إلى إقامة أكثر الحكومات استبدادا باسم الدين. والله ﷻ الذي بعث رسله لتحرير الإنسانية من أغلال الأحبار، تلك النخبة المضللة من رجال الدين، قد جعل في أي نظام طغيان شيئا يعمل على تدميره.

لقد تركت تلك الفترات الحساسة فراغًا كبيرًا، فالغرب يكابد صرخات غير مسبوقة في تاريخه. كما سقطت الفلسفة الغربية في شرك التحليل اللغوي، وتحيط التساؤلات بالمفهوم الغربي للتطور بسبب آثاره البيئية المدمرة وأخفقت المُثل الغربية مثل الديمقراطية في إرساء دعائم نظام سليم داخل معاقل الحضارات الغربية. واليوم، لم تعد التساؤلات تحيط بقوة العلم التي لا تقهر فحسب، بل باتت القواعد الاجتماعية التي تتعلق بالإجهاض وزواج الشواذ والثقافات الجنسية قبل الزواج والتي اتخذت فيما مضى كأمور مسلم بها- موضوعات طرحت من جديد على طاولة النقاش. لقد افتقد الغرب سحره وبريقه ولم تعد تتضح الرؤية بعد بشأن آفاق المستقبل القريب.

لقد شهدت العقود القليلة الأخيرة طفرة غير مسبوقة من اجتماعات الحوار بين الأديان، حيث يجد رجال الدين في تقاليد متعددة صعوبة في العيش بمنأى عن احتمالات عبودية الآخر أو حتى إنكارها. وفي خضم تلك الأصوات الخافتة التي يطلقها الفكر الديني التحريري في أمريكا اللاتينية والفكر الديني الوطني في تايوان وفكر مينجونج في كوريا وحركة نهضة الفكر الديني الدالت للهند وبقايا هذا العالم القديم الحديث، نسمع بوضوح صوت الحاجة الشديدة إلى دين عالمي حقيقي. وربما تؤتي هذه المحاولة المشتركة لإعادة اكتشاف الرسالة الخالدة لله رب العالمين-كما قال القرآن- ثمارها في وقت مبكر إذا قمنا نحن كمسلمين بتنفيذ المشروع الإسلامي

المجتمعي الذي يدعو الأمم قاطبة على وجه البسيطة لترديد حمد الله في ترتيل الآيات القرآنية:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾

لقد توعد القرآن بالهلاك رجلاً صاحب ملك عظيم مثل فرعون، ورجلاً بدويًا كان يفتخر_بجبروته وقوته مثل أبي لهب، وعلى الجانب الآخر،بشر قوم سبأ تحت قيادة امرأة عارفة للحق مثل ملكة سبأ. وإذا كانت المرأة تشعر اليوم بتهميشها في المجتمع المسلم ذي السلطة الأبوية، فإن محاولتها استعادة مكانتها الطبيعية من خلال استجماع الشجاعة الكافية للمطالبة بحقها في الإمامة مثلاً، لا يمكن اعتباره فكرًا غريبًا منفطلاً عن ذلك الامتداد التاريخي. إن ما نحتاج إليه الآن هو أن ننظر إلى تراثنا الحضاري من منظور أوسع بدلاً من الحيرة أو من النظر إليه نظرة الغرباء،

إمامة المرأة

هل يجوز للمرأة المسلمة أن تؤم صلاة الجمعة لاسيما إذا كان خلفها عدد كبير من الرجال يأتمون بها بالإضافة إلى النساء؟

هذه هي القضية الفقهية المطروحة الآن على الساحة في العالم الإسلامي، والتي تحظى بقدر كبير من اهتمام دور الإفتاء والشخصيات البارزة من خلال الإدلاء بآرائهم، فالشيخ يوسف القرضاوي أحد أبرز العلماء الذين يحظون بشهرة واسعة في العالم الإسلامي عارض هذه المسألة بشدة معتبرًا إياها انحرافًا عن المنهج الإسلامي القويم. وعلى الجانب الآخر، لم يرفض شيخ الأزهر وعدد من العلماء إمامة المرأة مطلقًا، لكنهم يرون أنها تجب أن تكون قاصرة على النساء فقط. أما العلماء التقليديون في المملكة العربية السعودية والهند فقد ذهبوا إلى القول بأن هذا عملاً آثماً؛ كما أثار حفيظتهم أن يقوم هؤلاء النساء في الوقت الذي تتعرض فيها الأمة الإسلامية لحملات شرسة من الخارج، بإثارة هذه الفتن في الداخل، وتساءلوا ما هي بغيتهن من وراء إثارة هذه القضايا في هذا المنعطف الخطير؟ إنهم يخشون أن يكون المستفيد في النهاية من مثل هذه المحاولات هم أعداء الإسلام، وأن يؤدي ذلك إلى خلق حالة من الفوضى والاضطراب داخل المجتمع المسلم.

إن ما يعوزنا حقيقةً هو بحث هذه المسألة في هدوء نفسي وعقلي بعيدًا عن السخط والغضب، وهذا هو ما يقتضيه العقل وما يحثنا عليه القرآن الكريم، إذ يأمرنا ألا نتجاوز حد الاعتدال في عداوة أحد.

إذا نظرنا إلى هذه المسألة من الناحية الفقهية، ودرسنا الشروط التي يجب توافرها في الإمام، يجب أن نضع في الاعتبار الضوابط التي وضعها الفقهاء في من يحق له إمامة المسلمين، وهي كما قرر الفقهاء: الأكثر تقوى، والأكثر رسوخًا وبصيرةً في فهم الدين، ولأقرأ للقرآن. وهنا نجد أن مسألة النوع لم تشغل بال الفقهاء، ولم يتطرقوا إلى الحديث عن كون من أوتي هذه الصفات رجلاً أو امرأة؛ وذلك لأن القرآن الكريم لا يقيم وزناً للعرق أو الجنس؛ كما أن المنهج القرآني لا ينظر إلى الأنوثة باعتبارها نقيصة أو سببًا في عدم الأهلية على المستوى الاجتماعي أو الديني، وهذا هو المنظور القرآني المتعلق بإمامة المرأة. أما كيفية بحث الفقهاء في هذه المسألة، فلا شك أن التاريخ مفعم بالمسائل التي اتجه فيها الفقهاء إلى تحريم المباح سدًا للذرائع، فلو أخذنا على سبيل المثال مسألة دخول النساء إلى المساجد، نجد أن التاريخ الإسلامي، وعمل الأمة المتوارثين عبر العصور يشهدان على أن المسجد - وهو أول مؤسسة اجتماعية في الإسلام - شهد مواظبة ومداومة النساء عليه منذ عهد النبي ﷺ، وهذه المداومة مستمرة حتى الآن في الحرم المكي والمسجد النبوي, رغم أن بعض الحكام والعلماء قد حاولوا في الماضي منع الطواف المختلط، لكن محاولاتهم هذه قد باءت بالفشل. وفي هذا الصدد تذكر كتب التاريخ اعتراض محدثٍ جليلٍ مثل عطاء على هذه المحاولات. وإذا ذهبنا بعيدًا عن الأراضي المقدسة في الحجاز، حيث سيطرت التأثيرات المحلية على فهم الفقهاء, نجد أن الفقهاء قد قوضوا دور المرأة الاجتماعي مخافة أن يؤدي نشاطها الحر، وغدوها ورواحها دون تقيد إلى المسجد، إلى وقوع المجتمع المسلم المتداعي سلفًا في مزيد من الفتن والابتلاءات، مع أن ما ينبغي القيام به إذا انهارت الحالة الأخلاقية للرجل المسلم وأصبحت في حالة يرثى لها، أن نحاول تقويمها وتهذيبها, لكن الذي حدث كان عكس ذلك، حيث عوقبت النساء وأُجبرن على الخروج من موقع مركزي مثل المسجد.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل ساد مناخ من الكآبة واليأس في عصر الانحطاط الرهيب، واعتُبر أنه من أجل العودة إلى الدين القويم، لابد للنساء المسلمات من ارتداء حجاب إضافي فوق ما توجبه عليهم أحكام الحجاب القرآنية، ومن هنا اعتبر العلماء أن كشف الوجه والكفين، وهو ما كان مباحًا في صدر الإسلام وما تقوم عليه أدلة كثيرة من كتب التاريخ والحديث، أمرًا غير مباح. ورغم أن مسألة كشف الوجه ما زالت موضع خلاف بين الفقهاء حتى اليوم، إلا أن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها أن الاتجاه العام في المجتمع بأن ستر الوجه يعد من باب الأخذ بالحيطة في الدين، قد أدى إلى اعتقاد عدد كبير من المسلمين اليوم خطأً أن ستر الوجه هو المنهج القويم للدين، وهنا أيضًا يسود نفس الاتجاه الذي يرى أنه مع ترك الوجه مكشوفًا حتى بعد ستر جميع البدن، لن يمكن سد باب الفتنة في المجتمع الذي يقف خلقيًا على حافة الهاوية. فضلاً عن ذلك، ساد تصور عام في بعض الأوساط أن استماع الرجال من غير المحارم إلى صوت المرأة حرام، وفي بعض المجتمعات الإسلامية، ما زال الكشف عن أسماء النساء أو التعرف عليهن يعد مخالفًا للقيم الإسلامية. إن النساء المسلمات كن أكثر من عانين من فلسفة الأخذ بالحيطة التي كان من نتيجة إعمالها لقرون طويلة أن أصبحن دون وجه، ودون اسم، ودون صوت؛ فاضطررن للتخلي عن أداء دورهن الاجتماعي والديني. ومن ناحية أخرى، نجد أن أولئك الذين أخذوا على عاتقهم وضع حد لتدهور المجتمع الإسلامي، قد كرسوا جل جهدهم في كيفية التحكم في النساء، بينما اختفت عملية إصلاح الرجال من برامج أعمالهم. إن الذين يرفضون قيادة المرأة الاجتماعية والسياسية والدينية في هذا العصر لمجرد أن ذلك سوف يكون أمرًا باعثًا على الفتن داخل المجتمع، نراهم في الحقيقة يسلكون مسلك القدامى، وهو ماعجّل بانحطاط المجتمع.

إن الإسلام هو الخضوع والاستسلام، وهو مطلوب بنفس الدرجة من الرجال كما هو مطلوب من النساء, ويجب أن لا يكون لدينا أدنى تحفظ من التسليم بأن الله ورسوله أعلم بما يكون باعثًا على الفتنة في المجتمع، وأعلم بما يساعد على توازن المجتمع الإنساني واستقراره. وإذا كان الله ﷻ قد أعطى المرأة المسلمة حق المشاركة في حياة المسجد الاجتماعية والدينية، وإذا كان الرسول ﷺ قد منحها حق العمل في

عهده، فلا يجوز لنا أن نسلبها هذا الحق في القرون المتعاقبة بناءً على فهمنا القاصر للدين. إن الدارس البسيط لتاريخ الإسلام يعرف أن مشاركة النساء على عهد النبي ﷺ في الحياة الاجتماعية، ومعرفة أسماءهن ووجوههن، ومشاركتهن في التجارة والحرف، كان أمرًا عاديًا. وفي عهد الخلفاء الراشدين، كان يطلب منهن المشورة في الأمور السياسية، حتى إن امرأة ذات أنف أفطس رأت أنه من واجبها أن تنبه صاحب الرأي وأمير المؤمنين عمر على الخطأ الذي وقع منه أثناء خطبته. إننا إذا تصورنا هذا المناخ السائد في عصر صدر الإسلام، فإن إمامة امرأة مسلمة لصلاة الجمعة في القرن الحادي والعشرين لا تبدو حدثًا مذهلاً. وقد ذكر الدكتور محمد حميد الله في "خطبات بهاول بور" حادثتين لإمامة المرأة في عصر صدر الإسلام، وحتى لو لم ترد هذه الحوادث التاريخية في الكتب، فلن نواجه صعوبة في فهم أن الجوهر الأساسي للتقوى الذي جعله الإسلام شرطًا للقبول في حضرة الله ﷻ، والذي يعد أساس الفضل والرفعة لكل من الرجل والمرأة على حد سواء، لا يترك مجالاً لأحد أن يفخر بانتمائه إلى عرق، أو منطقة، أو لون، أو جنس معين. إن القرآن الكريم قد صرح بأنه لا يمكن أن يضيع أو يُبخس عمل أحد لمجرد أنه ينتمي إلى طائفة، أو جنس معين، فالآية القرآنية

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾

تعطي ضمانًا لكل شخص بأن عمله الصالح لا يمكن أن يذهب هباءً منبثًا ولو كان مثقال ذرة، كذلك فإن الآية الكريمة

﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾

تؤكد أن كل شخص سوف يجازى على عمله، وكذلك الآية

﴿ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

تؤكد أن المرء سوف يحاسب على ما قدمت يداه، وأن كل الهويات لا قيمة لها، علاوة على أنه حينما يكون التواصي باختيار صبغة الله للجميع رجالاً ونساءً, فلا يجوز

لرجل أن يدعي أفضليته على امرأة أفضل منه في التقوى والعمل الصالح لمجرد أنه ذكر. لقد توعد القرآن بالهلاك رجلاً صاحب ملك عظيم مثل فرعون، ورجلاً بدويًا كان يفتخر بجبروته وقوته مثل أبي لهب، وعلى الجانب الآخر،بشر قوم سبأ تحت قيادة امرأة عارفة للحق مثل ملكة سبأ. وبعبارة أخرى، أعلن القرآن أن كل الاختلافات في الجنس، واللون, والعرق، والوطن التي ورثها الإنسان بالميلاد هي اختلافات لا قيمة لها، وفصَّل القول بأن الشيء الوحيد الجدير بثناء الله ﷻ هو العمل الصالح؛ وبأن مكانة المرء في المجتمع الإسلامي إنما تتحدد وفقا لذلك، بل لقد ذهب القرآن إلى حد التصريح بأن الصالحين من الأمم الأخرى يجب معاملتهم باحترام؛ وبأن أعمالهم الصالحة لن تضيع هباءً منبثًا. إننا أتباع الكتاب الذي صرحت آياته في أكثر من موضع بأن كل الفوارق غير الفطرية من اللون، والعرق، والجنس، والمكان, والشمال، والجنوب, والعرب، والعجم قد تم استئصالها، وأن ما ينفع المرء يوم الحساب، عندما يفرق الله ﷻ بين الحق والباطل، هو العمل الصالح، وقبل هذا اليوم، كيف يجرؤ إنسان مؤمن ورع يخاف الله ويتقيه أن يصف إنسانًا بأنه من العصاة، أو بأنه من أهل النار، مع أن الله ﷻ قد حفظ الحكم في هذه الأمور العظيمة لذلك اليوم، فقال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾.

لقد قطعت المرأة شوطا كبيرًا بدايةً من مرحلة قهرها ﴿ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝ ﴾ إلى مرحلة القيادة الدينية والسياسية. إن حركة تكريم الإنسانية التي ظهرت على يد محمد ﷺ كان لها آثارًا بعيدة المدى في شتى أنحاء العالم، فالأمة الإسلامية ليست هي الأمة الوحيدة التي استفادت من فيض هذه الحركة النبوية، بل لقد نال منها نصيبًا وافرًا أيضًا أناس آخرون مستضعفون في المجتمع من أصحاب الديانات الأخرى، فتنفست الصعداء تلك الأسر التي رزحت تحت وطأة المعاملات الربوية جيلا بعد جيل، ورويدًا رويدًا، اختفت مؤسسة الرق من على وجه الأرض, كما اندثرت عادة الجاهلية المتعلقة باستعباد الرجل للمرأة. إن رسالة القرآن الإصلاحية التي تؤكد ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ

وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ قد بعثت الشعور بأن الرجل والمرأة يتساوى دورهما تمامًا في قيادة المجتمع الإنسانى إلى طريق الإذعان والخضوع لرب العالمين.

إن أسس الإصلاح التي تم وضعها على عهد النبي ﷺ لم تجن كل ثمارها على الفور في حياة النبي ﷺ، لأنه لو حدث ذلك، فماذا يبقى إذًا للتاريخ القادم، وماذا يبقى من مغزى خاتم الرسل ﷺ؟ إن من يعتقدون أن الثمار التي لم تجن في عهد النبي ﷺ لا يمكن أن تجنى في المستقبل، أو من يصرون على أن الأمر الذي لم يحدث في عهد النبي ﷺ يعد حدوثه في المستقبل من علامات الساعة، لا يدركون في الحقيقة مغزى خاتم الرسل، ولا يفهمون جوهر الطبيعة الأبدية للقرآن، وإن لم يكن الأمر كذلك، فماذا تكون إجابتهم حول آداب المعاملة الحسنة مع العبيد التي حث عليها القرآن، والتي لا يمكن تطبيقها في هذا العصر لأن مؤسسة الرق القديمة لم يعد لها وجود، وكيف يمكن لنا إنكار هذه الحقيقة الواضحة، بأنه نتيجةً لترغيب القرآن في معاملة العبيد معاملة حسنة، والحض على تحريرهم من الاسترقاق، كانت نهاية هذه المؤسسة يومًا ما أمرا حتميًا. وبعبارة أخرى، كان هذا الترغيب وكانت هذه الأحكام بدايةً لانقلاب اجتماعي عظيم وليست نهايةً له, كما أن آثارها الواقعية قد كتب لها الظهور العملي في القرون التالية. وعلى نحو مماثل، لا أحد يستطيع أن يتوصل بعد قراءة أحكام الزكاة في القرآن أن القرآن يريد أن يخلد طائفة من الفقراء يتوجه الأغنياء إليهم لإبراء ذمتهم من المسؤوليات والحقوق الدينية الواجبة عليهم, ويشبه هذا رحلة المرأة التنموية في المجتمع الإسلامي، ففي عهد النبي ﷺ كان يُنظر إلى المرأة على أنها مساوية تمامًا للرجل، كما خُوِّل إليها القيام بأدوار اجتماعية، فكانت النتيجة الحتمية في السنوات التالية أن قامت النساء بالمطالبة بمكانة كريمة لهن في المجتمع تقوم على أساس العلم والتقوى. إن الأساس الذي وضعه الإسلام لتشجيع وتدعيم مكانة المرأة قد امتدت انعكاساته القوية وآثاره البعيدة خارج المجتمع الإسلامي، فحركات تحرير المرأة في الغرب، ومشاركتها في العمل الاجتماعي والسياسي، وحقها في التصويت، وضمان الحرية الشخصية، كل هذا لم يأت فجأة من فراغ, ولكن كانت وراءه في

الأصل آثار هذه الحركة النبوية التي وصلت الغرب نتيجة التبادل الثقافي الممتد عبر القرون, لكن بالطبع وقع الغرب ضحية الإفراط والتفريط في استخدام الحرية الشخصية نتيجة الاستغناء عن الوحي.

إن المجتمع الإنساني في حالة مستمرة من النمو والتطور، فحركة تكريم الإنسانية التي بدأها النبي ﷺ في مكة لن تتوقف رغم محاولات المغرضين. وفي مسيرة التاريخ الإنساني، نجد ما يدل على جهل أولئك الذين لا يتعدى نظرهم الميثاق الأعظم الذي أصدره الملك جون عام 1215م، أو الذين يعتقدون أن التاريخ البشري كان راكدًا قبل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، فكل الاهتمامات والمحادثات الموجهة اليوم للحفاظ على حقوق الإنسان وكرامته، سواءً كانت حول إنقاذ العالم من الدمار النووي، أم حماية البيئة، أم الخطط المستقبلية المعنية بالحفاظ على النوع الحيواني والمخلوقات الأخرى فضلاً عن الجنس البشري، أم الحفاظ على الهواء من التلوث, أم محاولات الحفاظ على درجة حرارة المحيطات، فكل هذه الأشياء في الحقيقة تتصل خيوطها بالحركة النبوية. وإذا كانت المرأة تشعر اليوم بتهميشها في المجتمع المسلم ذي السلطة الأبوية، فإن محاولتها استعادة مكانتها الطبيعية من خلال استجماع الشجاعة الكافية للمطالبة بحقها في الإمامة مثلاً، لا يمكن اعتباره فكرًا غريبًا منفصلاً عن ذلك الامتداد التاريخي. إن ما نحتاج إليه الآن هو أن ننظر إلى تراثنا الحضاري من منظور أوسع بدلاً من الحيرة أو من النظر إليه نظرة الغرباء، فتعرض أي عمل إنساني للإفراط والتفريط ليس عبثًا حتى ولو كان مما حث عليه القرآن في قوله تعالى ﴿ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ لأن فرصة إصلاح ذلك الإفراط والتفريط تكون متوفرة في كل لحظة. أما إذا رفضنا هذه المحاولات قائلين إنها مؤامرة دبرها أعداء الإسلام، أو عمل مردود على فئة ضالة من المسلمين, فلن نصل إلى فهم صحيح للقضية، كما لن يبق هناك مكان للإصلاح المنشود.

ولا ريب أن الإسلام على مدار أربعة عشر قرنًا لم يشهد فيما ماعدا بعض الحوادث التاريخية الإستثنائية عادة اجتماعية دائمةً لقبول المرأة كإمام أو كخطيب على المنبر، ومع ذلك لا يمكن إنكار أن الرجال المسلمين لم يتكلفوا في قبول المرأة

كفقيهة، أو مدبرة، أو معلمة. وإذا وضعنا أمامنا مبدأ أن ثمار الحركة الإسلامية لم تظهر جميعها في عهد النبي ﷺ، وأن بعض هذه الثمار قد ظهرت فيما تلا ذلك من سنوات, وأن حلم إقامة مجتمع عالمي يقوم على تعاليم النبي ﷺ لا يزال قائمًا، وأن هذا بعينه هو جواز بقاء مغزى خاتم الرسل ومتبعيه, فسوف تحدث طفرة هائلة في طريقة تفكيرنا، وسوف نشعر بضرورة الحكم على مسألة إمامة المرأة من خلال المنظور القرآني بدلاً من النظر إليها على أنها فتنة أو علامة من علامات قرب الساعة. إن من يعتبرون هذا الحدث هدمًا للدين نراهم من وجهة نظرنا لا يجدون في أنفسهم العزيمة للحكم عليه من خلال المنظور القرآني، أو هم لا يشعرون بضرورة ذلك، فتفسيرات الأقدمين وفتاويهم تمثل لهم القول الفصل في كل شيء إلى القدر الذي يعتبرون معه أن أي مناقشة حول هذه الفتاوى تعتبر فتنة في حد ذاتها، مع أن هذا المبدأ لا يجد ما يؤيده, لأن دين مستقبلي كالإسلام يأخذ على عاتقه قيادة البشرية إلى قيام الساعة لا يصح أن يخضع لتفسيرات الأقدمين، لأن في ذلك تعطيل لمهام ومقاصد الوحي. ومن سوء الحظ أن سادت في المجتمع الإسلامي عبر القرون عادة النظر إلى القرآن الكريم على أنه كتاب بركات بدلا من التدبر والتفكر فيه، كما أننا لسنا على استعداد للتسليم بأن أسلافنا كانوا بشرًا مثلنا؛ فهم عرضة للخطأ في شرح وتفسير الوحي واستنباط الحكم، وتعيين المصالح والجمع والتوفيق بين الروايات المتعارضة, ونحن لسنا مكلفين بأن نحمل التباسهم الفكري على أكتافنا الضعيفة، فهل أخطاؤنا الفكرية والعملية قليلة حتى نفكر في حمل أوزار القدامى؟ إن ما نحتاج إليه بدلاً من الإعراب عن الغيظ والحنق من هذه القضية الخطيرة والحساسة في قالب فقهي قديم أن نحكم عليها في ضوء رحلة تطور الحركة النبوية الممتدة عبر أربعة عشر قرنًا. ويجب على المجتهدين المحدثين بقدر شكهم في النظام الفقهي القديم والتأثيرات الاجتماعية والسياسية عليه، أن يحترزوا في الحكم على هذه القضية قدر الإمكان من الاتجاهات الاجتماعية والسياسية والفكرية الحالية.

فلا حكام إسرائيل يضعون نصب أعينهم عقيدتهم اليهودية؛ ولا السلطة الفلسطينية تسعى إلى إرساء دعائم حكم إسلامي صحيح قائم على القرآن في فلسطين؛ بيد أن الذين يقدمون أرواحهم من كلا الجانبين بنفس راضية؛ يدفعهم إلى ذلك وازع من مشاعرهم الدينية الخالصة ويؤمنون بكل إخلاص بأن استشهادهم وتقديم أرواحهم هو واجب ديني. وسؤالنا هنا: هل هناك ما يبرر التضحية بالكثير من الأرواح من أجل أن يستمر حكم شارون أو عرفات أو من أجل إنشاء دولتين في المستقبل؛ كلاهما سيكون ضد التوراة وضد القرآن؟!

في هذه اللحظة الحرجة من التاريخ، إذا أصررنا بعناد، مثلما فعل اليهود، على تفسيراتنا التي قدمنها حسبما تهوى أنفسنا، عندئذ لن تكون نهايتنا مختلفة عن نهايتهم، لأن أفضليتنا، سواءٌ كنا يهودًا أم مسلمين، إنما تنبع في واقع الأمر من التزامنا بالوحي الإلهي. فعندما كان اليهود يتبعون التلمود بإخلاص ظل تفوقهم على العالم لا ينازعهم فيه أحد، ولكن عندما بنوا سياجًا من التفسيرات الكهنوتية حول التوراة، وعندما بدأ التشريع الذي أنتجه رجال الدين يحكم حياتهم الدينيه بدلاً من التوراة، وحازت مجموعات المشنا والجمارا ومجموعات كتب الصلاة وكذلك كتب البركة على المكانة الرئيسية عندهم، عندئذ زاد ضعف علاقتهم بالوحي الإلهي أكثر فأكثر.

القضية الفلسطينية: لو علمنا الحقيقة

منذ فترة طويلة، والأرض الفلسطينية تنتظر حلاً عادلاً لقضيتها. فجميع الجهود التي بذلها كلا الجانبين حتى الآن، لم تثمر عن أية نتائج مبشرة؛ وإن أثمرت عن أية نتائج، فإنها يقيناً غير مشجعة، كما أن الخسائر في الأرواح تتصاعد يومًا بعد يوم. فعلى أحد الجانبين نجد دولة إسرائيل المسلحة بأحدث الأسلحة، بينما على الجانب الآخر نجد فصائل متنافرة لمنظمات المقاومة التي لا حول لها ولا قوة ولا تملك أية أسلحة سوى أرواحهم.

وخلال الخمسين سنة الماضية، تنامت حدة الكراهية بين الجانبين؛ وفي هذا الجو المشحون من الكراهية ضاع صوت الحكمة والعقل في هذا الخضم الهائل من الشعارات المتعصبة. فالوضع الراهن ما هو إلا تكدس جثث الضحايا هنا وهناك من كلا الجانبين؛ والفارق الوحيد هو أن عدد الجثث المتكدسة ربما زاد في أحد الجانبين عن الجانب الآخر. والعجيب أن هذه المعركة تدور رحاها بين شعبين يعتبر كل منهم نفسه أكثر المؤمنين إخلاصًا لله عز وجل؛ بل إنهم يبحثون عن شرعية كفاحهم انطلاقاً من إيمانهم برب إبراهيم واتباع شرائع أنبيائهم. ولقد أضفت القيادات الدينية والسياسية في كلا الجانبين المتنازعين على الحرب سمة الصراع بين الخير والشر. فكلاهما لا يقبل التفاوض على شبر واحد من الأرض الفلسطينية، أو حتى الوصول إلى تسوية بشأن ذلك. وفي ظل هذه الظروف، تقول النتائج المنطقية الوحيدة التي يمكننا التوصل إليها إن الجانب الأقوى هو الذي سيفوز بالمعركة.

ومع ذلك، تكمن المشكلة في أنه إذا كانت قوة الدول في عالمنا اليوم قد ازدادت بشكل غير طبيعي نتيجة الهيمنة التكنولوجية لهذه الدول، فإنه على الجانب الآخر نرى أن أساليب حرب العصابات التي تتبعها المنظمات الإرهابية المتطرفة قد أصبحت سلاحًا في أيدي الضعفاء ممن لا حول لهم ولا قوة، الأمر الذي لا يمكن لأي دولة تجاهله أو القضاء عليه.

فالإسرائيليون يعلمون جيدًا أنه على الرغم من القوة المطلقة لدولتهم، فإنهم لا يستطيعون أبدًا محو كل الفلسطينيين من على وجه الأرض. كذلك يعلم الفلسطينيون جيدًا إنهم لن يستطيعوا بعملياتهم الاستشهادية أن يوجهوا لدولة إسرائيل ضربة مميتة، ولكن كلاهما ما زال يدور في رحى فكرته التي تسيطر عليه بشأن تاريخه المقدس بطريقة يستحيل معها، فيما يبدو، الخروج من هذا المأزق. وقد خارت قوى كلا الجانبين بعد حرب الاستنزاف الطويلة هذه، ولكن أحدًا من الجانبين غير مستعد لقبول هذه الحقيقة، بسبب شعورهم الزائف بالفخر القومي.

وخلال هذا المنعطف التاريخي، الذي ينشغل فيه متبعوا التوراة والمؤمنون بالقرآن في صراع مهلك، ويزعم كل منهما أنه الوريث الشرعي للأرض المقدسة؛ يجب على الذين يتقون الله وتمتلئ قلوبهم بخشيته من كلا الجانبين؛ والذين يَسمون بأنفسهم فوق اعتبارات المصالح الطائفية ضيقة الأفق؛ ولا يسعون إلا لمرضاة الله – سبحانه وتعالى – أن يتقدموا للأمام ويدلوا بإسهاماتهم في ضوء تعاليمهم الدينية وأن يخلقوا فرصًا للحوار بغية وضع حد لتلك الحلقة المفرغة من العنف والخسائر البشرية التي لا نهاية لها.

ومنذ أن ظهرت دولة إسرائيل للوجود، اعتبر عدد من علماء اليهود أن قيام هذه الدولة يعارض ماجاءت به التوراة، وحجتهم أنه ليس هناك مبرر لقيام دولة لبني إسرائيل قبل مجيء المسيح. كما أعلن عدد ليس بقليل من المفكرين اليهود الشجعان إن دولة إسرائيل معادية للسامية في توجهاتها لأنها دولة يتم فيها الاستهزاء بتعاليم التوراة علنا. بل إن النقد والمعارضة اللتان قادهما العلماء اليهود أنفسهم ضد الحكومة الإسرائيلية فيما يتعلق باضطهاد الفلسطينيين ربما كانتا أشد وطأة من أية معارضة أو نقد خارجي. ولو قرأت كتابات هؤلاء العلماء اليهود الذين يخشون الله ثم ألقيت نظرة

على الحركات المناهضة للاضطهاد الإسرائيلي للفلسطينيين داخل إسرائيل نفسها؛ سوف يتضح لك إن هناك عددًا ليس بالقليل من النفوس التقية بين اليهود والذين نجد أن الله قد أثني عليهم في قرآنه. وأشد ما نحتاج إليه من جانب المسلمين ليس مجرد نزعات قومية متشددة، بل إلى مبادرة قوية ترتكز على تعاليم القرآن التي يمكن أن تقودنا إلى حل قرآني.

ولا شك في أن قضيتنا قوية وعادلة من وجهة النظر القومية؛ فنحن من قامت على أراضيهم دولة زائفة فرضتها قوة وحشية، وأعلنت علينا حرب متواصلة بلا هوادة. وإذا ما اعتقدنا أنه لا يوجد حل سلمي آخر للمشكلة الفلسطينية غير طرد قوات الاحتلال الإسرائيلي واستئصال شأفة إسرائيل، فإنه لا أحد يمكنه أن يتهمنا بالتحيز لاتخاذ مثل هذا الموقف. ومع ذلك فإذا اعتبرنا أن هذه هي كلمتنا الأخيرة في هذه القضية، فذلك يعني إعاقة أية إمكانية للحوار مع الطرف الخصم؛ وعندئذ، ومن أجل إنهاء هذه المشكلة، لن يكون لدينا سوى التصريحات المتوعدة التي كنا ولا زلنا نسمعها في الخمسين سنة الأخيرة، والتي رغم التزامنا بها لم نستطع أن نقترب من حل المشكلة ولو قيد أنملة. وفي محاولاتنا المستمرة لحل المشكلة، اعتدنا معالجة هذه القضية الإنسانية الحساسة بطريقة شاعرية، وأحيانا كثيرة ما يسمع المرء تصريحات مثل "لو أن كل مسلم من مسلمي العالم أفرغ دلوا من الماء على إسرائيل لمحيت من الوجود" أو مثل "لو أن كل مسلمي العلم بصقوا على إسرائيل، لغرقت إسرائيل بأكملها". مثل هذه التعبيرات الانفعالية تجعل الدم يتدفق في عروقنا بصورة مؤقتة، لكن جدواها العملية غير واضحة المعالم حتى بالنسبة لمن يصدر عنهم مثل هذه التصريحات.

وعلى أحد الجانبين، نجد حكومة شارون المستبدة القاسية التي تجاوزت جميع الأرقام القياسية في الوحشية والقمع الإنساني، فكل مؤسسات الدولة غارقة في الفساد، كما أن سجل أريل شارون وأفراد أسرته لا يخلو مما يشينه خاصةً عندما يتعلق الأمر بالموارد المالية العامة للدولة. وعلى الجانب الآخر نجد عرفات ورفاقه الذين بددوا الأموال التي يتلقونها كمساعدات من الدول المختلفة باسم الشعب الفلسطيني التعس. فلا حكام إسرائيل يضعون نصب أعينهم عقيدتهم اليهودية؛ ولا السلطة الفلسطينية

تسعى إلى إرساء دعائم حكم إسلامي صحيح قائم على القرآن في فلسطين؛ بيد أن الذين يقدمون أرواحهم من كلا الجانبين بنفس راضية؛ يدفعهم إلى ذلك وازع من مشاعرهم الدينية الخالصة ويؤمنون بكل إخلاص بأن استشهادهم وتقديم أرواحهم هو واجب ديني. وسؤالنا هنا: هل هناك ما يبرر التضحية بالكثير من الأرواح من أجل أن يستمر حكم شارون أو عرفات أو من أجل إنشاء دولتين في المستقبل؛ كلاهما سيكون ضد التوراة وضد القرآن؟!

إذا كانت الحكومة الإسرائيلية والسلطة الفلسطينية، بالرغم من استخدامهما لتعبيرات غير دينية أو حتى تعبيرات تصطدم بالدين، قادرتين على تجنيد دعم الطوائف الدينية المتطرفة؛ فذلك سببه أن القيادة الدينية في كلا الجانبين قد وقعت بصفة عامة في مصيدة التاريخ باسم الدين؛ وهو مفهوم تاريخي كساها بهالة من التقديس، بسبب تمجيدنا للماضي، وليس له علاقة بالأهداف الحقيقية للعقيدة. وما نحتادج إليه حاجة ماسة في الوقت الحالي، هو أن لا ننظر إلى القضية من منظور المجتمع الإسلامي فقط؛ بل أن نحاول أن ننظر إليها - بعقل متفتح - من منظور الطرف الآخر أيضًا، ثم نحاول أن نجد حلاً عمليًا لهذه القضية شديدة التعقيد في ضوء وجهة النظر القرآنية. ويقول اليهود أنه بمجرد أن يسير المرء مسافة أربعة أقدام مربعة في الأرض المقدسة فلسطين، فإنه بذلك يضمن دخول الجنة. وهم لا يستطيعون أن يقدموا دليلاً واحدًا من التوارة من أجل إثبات هذا الاعتقاد الخرافي. وبالطبع فإن التلمود يعج بمثل هذه الأنباء الطيبة. بل إنهم يقولون إن حياتهم الدينية لا تكتمل دون وجود بيت العبادة الخاص بهم (في فلسطين).

وباستثناء مذبح الأضاحي في هيكل سليمان لا يوجد لدى اليهود أي مفهوم للتضحية في أي مكان آخر. واليهود المتدينون الذين قامت السلطة السياسية باستغلالهم، والذين كانوا يصلون لأزمنة طويلة من أجل عودة أرض كنعان، يشعرون أنهم بعد شتات دام ما يقارب الألفي عام قد غدوا مسلحين بقوة الكافية لتمكنهم من استعادة الحياة الدينية لهيكل سليمان مرة أخرى. لذلك فإنهم لا يريدون أن تفوتهم هذه الفرصة التاريخية. وعلى الجانب الآخر، فإن القمع والوحشية التي ترتكبها إسرائيل

ضد الفلسطينيين؛ وطردهم من أراضيهم هي حقائق ماثلة من التاريخ المعاصر لا يمكن لأحد أن يتجاهلها.

علاوةً على ذلك؛ فإن المكانة الراسخة للمسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة في وجدان المسلمين لكونهما يمثلان القبلة الأولى للمسلمين قد جعلت هذا الجزء من أرض فلسطين مكانًا مقدسًا بالنسبة للمسلمين كما هو مقدس بالنسبة لليهود. ولذلك فإن أية تسوية بشأن هذه الأرض المقدسة يراها كل من الطرفين على أنها بيع للقضية التي يدافع عنها. وإن اغتيال أنور السادات وإسحاق رابين على يد مواطنيهم يبرز لنا قوة هذا الشعور في كلا الجانبين. وهذا جانب واحد من جوانب المشكلة نراه قد لعب دورًا رئيسًا في جعل المواجهات شديدة الدموية والقسوة.

وفي فترة حاسمة عندما تصل حدة العاطفة إلى ذروتها في كلا الجانبين، ويبدو أنه لا إمكانية لحدوث حل عادل وشامل للمشكلة، حيث يجد أتباع إبراهيم ومن هم من نسل إسماعيل وإسحاق أنفسهم في معركة مميتة بشعة تدور رحاها من أجل الاستيلاء على نفس مكان العبادة؛ وعندما ينسى الداعون إلى توحيد الله أن الله يريد منهم الاستسلام المطلق له وليس صلاتهم في مسجد خاص أو نوع معين من بيوت العبادة، لذا فإنه يتحتم علينا نحن المسلمين أن نتقدم للأمام بصفتنا حاملين للقرآن وأن نذكر الناس بالحقيقة الغائبة وهي أن الله لا يريد اليهودية ولا المسيحية ولا الإسلام التقليدي؛ ولا أي نوع من المسميات الأخرى؛ ولا يريد العبادة الطائفية التي يؤدونها في هذه الأماكن. فالله تعالى يعتبر قولهم:﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَـٰرَىٰ ... ﴾

نوعًا من التوبيخ ويدعوا الناس أن يكونوا من اتباع ملة إبراهيم (ملة إبراهيم حنيفًا) عليه السلام. ونحن اليوم في أمس الحاجة لأن يقوم أصحاب النفوس التقية الورعة من أتباع إبراهيم عليه السلام بالتحرك ومحاولة انتشال فلسطين من مستنقعها الحالي من أجل نيل رضا الله؛ ولا يأبه أحد من هولاء بردود الفعل الغاضبة على قيامهم بذلك من قبل مجتمعاتهم وما إذا كان موقفهم هذا سيؤثر سلبًا على مصالحهم الوطنية. وفي الماضي، عندما نصح عضو الكنيسيت إفراهام بيرج إسرائيل بالتعامل مع القضية الفلسطينية بصورة واقعية، ثار عليه العالم الصهيوني واعتبروه عدوًا لليهود. ويوجد

الكثير من أمثال أفراهام بيرج بين الإسرائيليين. إن المشكلة هي أننا من أجل فهم المجتمع الإسرائيلي نقوم بالاعتماد على الكتيب المشهور لسيد قطب بعنوان "معركتنا مع اليهود" بدلاً من الاعتماد على ما يحتويه القرآن الكريم من إرشادات وأنوار، هذا الكتيب الذي يعتبر أن جميع اليهود دون استثناء هم شخصيات غامضة تُألف عصبة من الشياطين. ولطالما كنا سجناءً للشروح التي فسرت الآية الكريمة:

﴿ ... غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ (الفاتحة 7)

بأن المقصود بها هم اليهود والنصارى دون تمييز. ونحن في عدائنا المستفحل؛ لا نفكر في الحقيقة التي تقول إن القرآن، وهو كلام الله أعدل العادلين، لا يمكن أن يحضنا على لعن جميع الأجيال القادمة من اليهود، لا لسبب إلا أن ثلة من الأفراد والقبائل اليهودية كانوا قد أساءوا للرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين في ذلك الوقت. وفي القرآن نجد أن الله تعالى قد لعن أيضًا بعضًا من أفراد قبيلة قريش، وحذرهم من العواقب الوخيمة لأفعالهم في الدنيا والآخرة، إلا أنه لم يجول بخاطرنا أنه يجب أن نعاقب ونلعن نسلهم إلى يوم الدين. لذلك فنحن لا نجد سببًا حقيقيًا للوم الأجيال الجديدة من اليهود ولعنهم بسبب إساءة تصرف بعض أفراد جيل واحد منهم. وهناك موقف مشابه لذلك الفكر في التفكير الديني للإسرائيليين فقد انتهوا، متأثرين بتفسيرات التلمود، إلى أنه لا يوجد شعب يمكن أن يصل إلى منزلة الشعب اليهودي القديم وأن شعبهم هو شعب الله المختار؛ ويزعمون أن الأمم الأخرى دماؤها رخيصة وثقافاتها عديمة القيمة. ونحن في حاجة ماسة في وقتنا الحالي إلى أن نهجر جميع الآراء التقليدية التي اعتدنا عليها عند التفكير في حل مشكلة فلسطين وأن ننظر إليها بمفهوم جديد في ضوء المعاني العميقة للقرآن الكريم، وعندئذ سيتسنى لنا إنقاذ الأرواح التي نفقدها كل يوم، كما ستكون الأرض فلسطين التاريخية مكانًا يتمكن فيه أهل الكتاب بجميع مللهم أن يؤدوا صلاتهم كما كانوا يفعلون في الماضي. وهنا يثار سؤال! أين تلك الأنفس التقية والقابضة على دينها من أهل الكتاب الذين قال عنهم القرآن:

﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ (آل عمران 113).

والذين وعدهم القرآن من أهل الكتاب أيضًا أن الله لن يضيع أعمالهم؟

﴿ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران 115)

ومع كل ذلك، يجب أن نبحث عن هؤلاء الذين يخشون الله تعالى من بيننا، هؤلاء الذين يمكنهم أن يظهروا شجاعة غير عادية في السمو عن المصالح القومية الضيقة، من أجل هدف أسمى، لتأكيد قوله تعالى:

﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ...﴾ (آل عمران 64).

لقد حان الوقت لإخضاع أي وكل جزء من تراثنا الأدبي للبحث والتدقيق, فليس هناك شيء بعيدًا نطاق النقد إلا القرآن والسنة النبوية، كما أنه ليس هناك أماكن محظورة من المعتقدات البالية أو قضايا خارج نطاق المقياس العقلي. ,فإذا لم نخضع التاريخ الإسلامي بالكامل للبحث الدقيق فلن نستطيع أن نحدد أخطائنا بدقة.

فيما وراء حركة الإصلاح الإسلامية

من مكة إلى واشنطن العاصمة، وكلمة الإصلاح الإسلامي هي الكلمة الرنانة التي تجري على الألسن وتتلفظ بها الأفواه. وعلى الرغم من أن حركة الإصلاح ليست جديدة على الإسلام، إلا أن الصرخة القوية لإصلاح البناء الإسلامي من الداخل لم تصل أبدًا إلى هذه الدرجة من الحدة. وعلى الرغم من أن الإصلاح يرتكز على جذور إسلامية إلا أن الضغط الخارجي للقيام به قد ألقى بظلال من الشك على طبيعة الإصلاح ذاته، كما أن هناك بعض المفكرين في الغرب ممن لا يهدف دفاعهم عن الإصلاح إلى جعل الإسلام مواكبًا بصورة أكبر لعصرنا الحالي وإنما يهدف إلى ترويضه بغية خلق نموذج من الإسلام يكون مناسبًا للإطار الغربي الليبرالي، تمامًا مثلما فعلوا مع المسيحية واليهودية. ولو شعر أتباع الإسلام بالراحة في التحصن بالرأسمالية الإنجيلية، فمن المفترض أن يفقد الغرب أكثر أعدائه مهابة.

وهناك مجموعة أخرى من المصلحين تضم علماء الإسلام الذين تلقوا تعليمهم في الغرب، هذا النوع من المفكرين المسلمين ينظرون إلى أنفسهم على أنهم امتدادًا طبيعيًا لكبار الإصلاحيين السابقين أمثال ابن حزم، وداود الظاهري، وابن تيمية، وأبو حامد الغزالي، ومحمد بن عبد الوهاب، وولي الله الدهلوي وأمثالهم. ويحتج هؤلاء المفكرون بأنه إذا كان المسلمون في الماضي قد وافقوا على القيام بعملية إصلاح

البناء الإسلامي، فليس ثمة سبب للاعتراض عليها في ظل الموقف الجديد. ومع ذلك، يظل السؤال الكبير بلا إجابة، حيث إنه إذا كان مصلحونا في الماضي لم يتمكنوا من تحقيق النتيجة المرجوة، فكيف يضمن المرء تحقيقها اليوم على أيدي المصلحين الجدد؟ فعلى مدار القرون العديدة الماضية، والمصلحون المسلمون ينادون بالعودة إلى القرآن والسنة من أجل إعادة تشكيل النظرة العالمية السيئة عن الإسلام. ومع ذلك، لم تلح في الأفق حتى الآن أية بادرة للعودة لنقاء الإسلام الأصيل. إن علينا أن نركز اهتمامنا على العراقيل التي اعترضت سبيل خروج كل مبادراتنا إلى حيز التنفيذ. ويوجد أمام المصلحين الجدد مهمة ذات شقين، الأول: التحديد الدقيق لأسباب إخفاق أسلافنا، والثاني: هو ابتكار منهج قابل للتطبيق وخلق وسائل مناسبة لإعادة اكتشاف الإسلام في صبغته الأصلية مع تجاوز النظرة التاريخية للإسلام والتفسيرات البشرية التي أحاطت به. إن الحوار المفتوح الذي يطرح تقريبا كل كبيرة وصغيرة للنقاش تحت مظلة النموذج القرآني الحقيقي يحمل وحده الأمل بإمكانية إعادة اكتشاف روح الإسلام العظيمة والتي إذا ما أميط عنها اللثام اليوم بشكل صحيح اليوم يمكنها خلق حركة إصلاحية لم يسبق لها مثيل.

وقبل أن نمضي قدمًا في مواصلة حديثنا، اسمحوا لنا أن نعترف اعترافًا صادقًا؛ إذا كان مصلحونا الأوائل قد أخفقوا في اكتشاف جوهر الإسلام من جديد، فإن السبب في ذلك يرجع أساساً إلى أنهم رغم رغبتهم القوية في الرجوع بالزمن والمكان إلى المدينة المنورة في عهد النبي ﷺ - إلا أنهم فشلوا في إدراك أن الرحلة كانت تتطلب منهجًا جديدًا من البحث والتحقيق، فلقد أرادوا العودة إلى الإسلام النقي مستخدمين منهج الفقه النابع من اختيارهم. وعلى الأرجح أنهم قد افتقروا إلى الشجاعة اللازمة لنبذ الأفكار التاريخية البالية والرواسب الفكرية المتراكمة عبر قرون من الحركات التفسيرية، كما اعتبروا أن إخضاع كبار الفقهاء ومناهجهم للبحث الصريح "مناطق محظورة" من الأنسب أن تُترك خارج نطاق مناقشتنا، وأصبح من الضروري كي تكون مسلما أن تكون حنفيًا أو شافعيًا مثلاً. وببساطةٍ صار لا يمكن تصور الإسلام بمنأى عن رواده أو فقهائه العظام، حتى أن إقبال شاعر وفيلسوف المشرق- والذي يبلغ درجة المجتهد بفضل تميزه كعالم من علماء القرآن- وجد أنه من الأفضل التمسك

بالمذهب الحنفي، حيث أعلن ذات مرة أنه من أجل التطبيق العملي قد اتبع الفقه الحنفي. وسواء كان مفسرو القرآن ذائعي الصيت أو غيرهم من أصحاب الإصلاح الإسلامي، فإنه لم يكن ممكنا بالنسبة لهم تشكيل هوية إسلامية دون إلباسها هذا التاج الفقهي، وبذلك ظلت النظرة إلى الغاية القرآنية من جديد، والعودة إلى الرؤية العالمية القرآنية الشاملة شيئا بعيد المنال. ومع ذلك، ظل السؤال المزعج الذي يطاردنا: لماذا نجد أنفسنا اليوم على هامش التاريخ رغم أننا أخر الأمم التي قُدر لها أن تقود البشرية حتى نهاية العالم؟

واليوم وبلا ريب، تتمتع حركة الإصلاح الإسلامية بفرصة أفضل لعدة أمور: أولا، بات من الجلي لنا أن المنهجية الفقهية البالية ووسائل التدقيق التي عفا عليها الزمن لا يمكنها أن تمنحنا الفهم الصحيح للحقائق المتغيرة. ثانيا، إن حركة النهضة الإسلامية التي انطلقت بصخب من الأراضي الإسلامية ثم صُدرّت فيما بعد إلى الغرب قد أخفقت بشكل يرثى له، فالضرب على نفس الوتر أو الاستعانة بنفس المنهجية لا يمكنه بأي شكل من الأشكال أن يضمن مستقبلاً. ثالثا، بما أن الأشياء تغيرت من حولنا تغيرا جذريًا، فإن خلق عالم واقعي على شبكات الإنترنت والقول بأن العالم أصبح قرية صغيرة قد أكدا أيضًا على أنه لا يمكن لأية استراتيجية تقوم بمعزل عن العالم أن يكتب لها البقاء في المستقبل، كما أنه لم يعد ممكنًا لأي دين أن يعمل لخلاصه بمعزل عن العالم. رابعًا، يجب أن يدرك المفكرين المسلمين في العصر الحالي أنه إذا كان من يقوم بالتخطيط للاستراتيجيات الإسلامية يفتقرون الآن إلى التوجيه والقيادة، فإن السبب الأساسي في ذلك إنما يرجع إلى أن شكل الإسلام الذي توارثناه كان نتاج التاريخ أكثر من كونه ثمرة من ثمار الوحي الإلهي. إن التخلص من الشوائب البشرية والتاريخية يعد أمرًا ضروريا إذا أردنا أن نحقق نفس النتيجة التي حققها الوحي السماوي في عهد النبي. خامسًا، أثرت الحياة في عالم الإنترنت الذي لا حدود له بشكل إيجابي في قدرتنا على إدراك المجتمع. ولأننا أتباع النبي الخاتم الذي أرسل للناس كافة، فنحن نأمل من أعماق قلوبنا أن نصبح أمة عالمية تحتوي الإنسانية كلها وتعمل على إصلاحها قاطبة، ولكننا وحتى الآن نجد أنفسنا داخل سياج من الحصار النفسي صنعناه بأيدينا، وهو طائفة الأمة المحمدية. والآن،

أدرك علماء الإسلام ومفكريهم أن حياتهم المنعزلة لقرون طويلة في دار الإسلام المفترضة، وقصر أنفسهم على المشاركة في المشروعات الاجتماعية قد حرمتهم من الوصول إلى النموذج النبوي الحقيقي مصدر الرحمة والخير للجميع. واليوم، أصبح هذا التحول للأمة من أمة عالمية إلى مجرد طائفة قضية تخضع للبحث الجاد، وظهرت حاجة ماسة إلى النظر إلى الغاية القرآنية من جديد وإعادة تشكيل الرؤية الإسلامية العالمية. ووسط هذه الآمال والتفاؤل يكمن الخطر؛ حيث إنه إذا لم توضع منهجية سليمة، فإن فرصة النظر إلى الإسلام في صبغته الحقيقية من جديد ربما تنسل من بين أيدينا تاركة الإنسانية بلا وجهة تهتدي إليها لقرون عديدة قادمة.

منهجية الإصلاح

لم تهدف الحركة الإصلاحية إلى إصلاح الإسلام ذاته، ولكنها هدفت أكثر إلى تنقيته من العناصر البشرية والتفسيرية التي ألقت بظلالها على جوهر الإسلام؛ فالإسلام رسالة سماوية ولكن المفارقة تكمن في أن هذه الرسالة لابد أن يفسرها العقل البشري. إننا لسنا ضد تدخل العقل البشري لتفسير الرسالة، بل على العكس إننا ننادي بجعل هذا التدخل عملية مستمرة. لقد قام علماء الماضي بمهمتهم على أكمل وجه وقد جاء دورنا الآن لكي نرسم خطوط حركة التنوير الخاصة بنا، ولابد من نقطة انطلاق جديدة مغايرة لنهج العلماء في الماضي إذا ما أردنا تجنب الزلات التي وقع فيها المصلحون السابقون. ونورد هنا بعض الاقتراحات لعمل هذا:

1- يجب على المصلحين الجدد أن يتجنبوا استخدام المصطلحات الرنانة مثل "الإصلاح" أو "التنوير"؛ فهناك خطر حقيقي يكمن في أن حركة الإصلاح قد اندثرت في طي هذه الدلالات التاريخية والثقافية التي توحي بها هذه المصطلحات. وفي الغرب، تعني عملية الإصلاح الفكاك من هيمنة الكنيسة وتفادي التصادم المباشر مع الفكر العقلاني. وهذا الموقف ليس له وجود في التاريخ الإسلامي؛ فقد كان كل من أحبار الإسلام والصفوة الحاكمة يواجهون باستمرار معارضة منظمة اعتمدتها الشريعة. إن من يطالب بظهور **لوثر** أو **كالفن** بيننا من جديد ليسوا على دراية بالتاريخ الإسلامي ورسالة القرآن التي تدعو إلى الحرية. ونفس الشيء ينطبق على مصطلح "التنوير

" فقد ألقى كل من **ماكس هورخيمير** و**ثيدور أدورنو** اللوم على حركة التنوير في يوم المحرقة. كذلك وجه **أشعيا برلين** نفس الاتهامات إلى الاتجاهات الديكتاتورية المتمثلة في حركة التنوير والتي لم تؤدي فقط إلى يوم المحرقة ولكنها أسفرت عن الطغيان الشيوعي الذي تمثل في معسكرات "الجولاج". إن فصول القصة لا تنتهي عند هذا الحد؛ ونتيجة لتجربة التنوير الغربية، اعتقد بعض كبار مفكري الغرب أمثال: **جيفرسون** و**كانط** و**هيوم** بأفضلية الجنس الأبيض المزعومة. وقد تسببت هذه الحركة التنويرية في النهاية في خلق "الرجل الأبيض الأحمق" وزودته بمبرر إيديولوجي وعلمي لكي يستعمر "الآخر". لذا ينبغي أن يتوخى المصلحون الجدد أقصى درجات الحذر عند تناول مثل هذه المصطلحات.

2- مما لاشك فيه أن **لوثر** الذي أثر على الفكر المسيحي على مدى كل العصور اللاحقة قد أثار الجدل حول ضرورة أن يكون الكتاب المقدس هو الحجة النهائية، حيث إن مبعوث الله يجب أن يتبوأ مكانة أعلى من أي مبعوث بشري غير معصوم من الخطأ. وفي القرون الوسطى، كانت هذه الفكرة فكرة إصلاحية في ظل السياق المسيحي. ونحن لا نراه الاستفادة من تجربة **لوثر** أمرًا مخطئًا، ورغم ذلك، لا يجب أن يغفل المصلحون المسلمون المعاصرون حقيقة أن القرآن ليس مجرد كتاب مقدس بالمعنى النصراني للكلمة، ومن هنا لا يجب أن نتعامل معه كأي كتاب آخر. فكل كلمة من القرآن نزلت محددة وحُفظت بلغتها الأصلية بنفس الطريقة التي نزلت بها على نبينا محمد ﷺ. إن إصلاح الإسلام من الداخل ما هو إلا إزالة العناصر التفسيرية البشرية فيه وليس الإسلام ذاته.

3- عادةً ما كان ينظر علماء الإسلام إلى العقل على أنه ضد الوحي؛ حيث اعتقدوا أن المعرفة العقلانية والمعرفة الإلهية لا ينبعان من نفس المصدر، لأن المعرفة العقلية تعتمد على المشاهدة بينما تعتمد المعرفة الإلهية على الوحي. ودائمًا ما يولي علماء الإسلام أهمية للمعرفة الإلهية أكثر من المعرفة القائمة على المشاهدة. وعلى العكس من هذا الاتجاه، يحث القرآن، كمنبع أساسي للمعرفة

الإلهية، المسلمين على التفكر والتدبر، بل ويريدنا القرآن أن نضع أساس المعرفة الإلهية على التفكير العقلاني. إن القرآن ذاته هو خطاب عقلاني يحثنا على أن نكون متأملين أكثر من كوننا عقائديين. حتى أن أكثر المعتقدات الأساسية للإسلام مثل وحدانية الله والإيمان بالدار الآخرة وشفاعة النبي محمد ﷺ لا تنفصل عن هذا الخطاب. وهذا نوع من التقسيم للعقل البشري الذي كلفه الله ﷻ، رغم أنه محدود، أن يفهم حدود الكون بما يؤدي إلى فهمه المستنير للخالق ﷻ. ومن الممكن جدًا أن نرتكب كثيرًا من الأخطاء ولكن يجب أن نتعلم منها في نفس الوقت. لقد كان كبار العلماء والفقهاء السابقين بشرًا مثلنا. فلا غرو إذًا أن يكونوا قد ارتكبوا أخطاءً أو إذا لم يكونوا قد تمكنوا من وضع تصور لقضايا عالمنا المعاصر في كتبهم الفقهية. فليس من المفترض بنا أن نتحمل وزر أخطاء الآخرين، فنحن لدينا ما يكفينا من الأخطاء.

4- إن التقليد، أو الإتباع الأعمى، وحركة الإصلاح لا يمكن أن يسيرا جنبًا إلى جنب، كما لا يمكن لهما أن يمهدا الطريق سويًا أمام حركة التنوير. وبالطبع، ليس هناك أي ضرر محتمل إذا تعلمنا من رواد الماضي، لكننا في نفس الوقت يجب ألا نتمسك بالحصول على نفس النتائج، لأننا إذا كنا سنضع في أذهاننا منذ البداية أنه يجب علينا التوصل إلى نفس النتائج التي توصل إليها السابقون، فلن تكون حركة الإصلاح إلا إهدارًا للوقت واستنفاذًا للطاقات وتقليدًا أعمى للماضي. أما إذا أطلقنا العنان للعقل القويم والقلب السليم في هذا الأمر، فسوف تكون لدينا المقدرة على فهم الوحي كما فهمه السابقون، كما أنه يجب أن نضع في اعتبارنا أن المعرفة الإلهية والمعرفة التي تقوم على المشاهدة لا يتعارضان أبدًا، ولكن كلاهما مكمل الآخر؛ فالمعرفة الصحيحة معرفة تأملية مبينة على المزج بينهما. إنها معرفة أكثر من معرفة البوذيين بالبوذية والتي يطلق عليها عموما حركة التنوير. فالمعرفة التأملية ليس لها أصل عقائدي أو اتجاه محدد كما تتصف حركة التنوير الغربية التي تمتد غايتها المنطقية إلى ما بعد عصر الحداثة.

5- كان هناك بعض "المناطق المحظورة" أو بعض القضايا الحساسة التي لم

تتعرض للبحث حيث اعتبرها المصلحون في الماضي أمورًا لا ينبغي الخوض فيها. فعلى سبيل المثال، كلنا يعرف أنه بسبب وجود مدارس فقهية مختلفة قد أودى بالأمة إلى التمزق من الداخل، ومع ذلك لم يتجرأ أحد على أن يتحدى تلك النسبة الكبيرة من تشريعات المدارس الفقهية المتنوعة؛ فقد أرادت كل مدرسة فقهية تحقيق وحدة إسلامية شاملة داخل الإطار الفكري الموجود، حتى أن البعض قد جعلنا نعتقد أن مدارس الفقه الأربعة في المذهب السني أمرًا سماويًا يعطينا الاختيار بينها. وهذا لا يختلف كثيرًا عن المفهوم المسيحي الشائع عن أن كتابات **بول** التي تمثل الآن جزء من القانون الكنسي هي وحي إلهي. إن المصلحين الجدد أمامهم مهمة شاقة، إنهم في حاجة لوضع هذا التراث الأدبي كاملاً تحت البحث الدقيق. وأي إلقاء على أي شخص أو أي تفسير من تفسيرات العلماء، غير الوحي الخاتم الذي جاءنا به النبي ﷺ، لا يمكن أن تكون قاعدة في القانون الإسلامي. وإذا لم يكن لدينا القدرة على إحداث تغييرات جوهرية للتقسيم الفقهي واستئصال القوانين الفقهية الغريبة لأحبار الإسلام، فإن العودة إلى جوهر الإسلام سوف تظل أمرًا بعيد المنال.

6- لقد حبسنا أنفسنا منذ قرون في سياج من الحصار النفسي الذي صنعناه بأنفسنا. إننا كأمة إسلامية قد عهد إلينا قيادة العالم، ولكننا آثرنا أن نجعل من أنفسنا أمة محمدية أو أمة محمد ﷺ. فقد كان من المفترض فينا أن نكون مصدرًا للرحمة لكل البشرية ولكن ظهور الفكر الطائفي بيننا قد جعل من الصعب علينا امتلاك نظرة ثاقبة، فقد جعل هذا السياج النفسي الأمة الإسلامية تثور من الداخل. وبالركون إلى بعض الأحاديث الموضوعة المنتشرة بيننا، اعتقدنا أن النبي محمد ﷺ, المبعوث رحمة للعالمين ونذيرًا للناس أجمعين كما وصفه القرآن الكريم, كان قلقًا على أمته فقط وأن آخر كلماته التي نطقها على فراش الموت كانت " أمتي, أمتي". فالأساس الذي أرساه القرآن الكريم كمبدأ عالمي حين قال " كلمة سواء" يتطلب منا أن نقوم بنبذ العقلية الانعزالية. فأي وكل جهد فردي لخلق عالم أفضل يستحق اهتمامنا, فهناك الكثير من أمور الأجندة التي تستحق مشاركتنا الفعالة.

7- لقد حان الوقت لإخضاع أي وكل جزء من تراثنا الأدبي للبحث والتدقيق, فليس هناك شيء بعيدًا نطاق النقد إلا القرآن والسنة النبوية، كما أنه ليس هناك أماكن محظورة من المعتقدات البالية أو قضايا خارج نطاق المقياس العقلي. ,فإذا لم نخضع التاريخ الإسلامي بالكامل للبحث الدقيق فلن نستطيع أن نحدد أخطائنا بدقة.

8- إذا لم يتطابق الإجماع أو العرف مع النظرة القرآنية الشاملة للعالم، فيجب أن نتجاهل هذا الإجماع, فربما يكون الإجماع مجازًا مخطئًا، وما من إجماع على قضية فردية ما لم يعتمد في المقام الأول على القرآن والسنة النبوية. وأي إجماع بدون مخاطبة للعقل لا يمكن أن يتمتع بالشرعية على الإطلاق. فالاعتقاد بأن إجماع العلماء السابقين على بعض القضايا يجري على كل العصور وأن باب النقاش قد أغلق في هذه المسألة ما هو إلا نتاج العقلية العبودية الصاخبة التي شجبها القرآن الكريم.

9- تعتبر كلمات الله تعالى (أي القرآن) والآراء الحكيمة لعلمائنا الأجلاء أمرين مختلفين تمامًا. فبينما تتطلب الأولى تقديرًا أزليًا تعد الثانية أمرًا بشريًا, وبمعنى آخر فإن مقاصد الشريعة كما شرحتها كتب الفقه ربما لا تتطلب نفس درجة التقدير التي منحت للقرآن الكريم. فلابد أن نفرق بين أمر الله تعالى وبين أمر البشر.

ومن الصعب خلق بداية جديدة في مجتمع أغلق الباب فيه أمام المناقشات المفتوحة حول بعض القضايا الحيوية الهامة لقرون عديدة؛ لأن هذا بمثابة تغيير للأمة من الداخل و تحويل المجتمع من مجتمع منغلق إلى مجتمع منفتح. وهي في الحقيقة تعد هذه مهمة شاقة وعصيبة ولكن لا مفر منها.

إن التقليد، أو الإتباع الأعمى، وحركة الإصلاح لا يمكن أن يسيرا جنبًا إلى جنب، كما لا يمكن لهما أن يمهدا الطريق سويًا أمام حركة التنوير. وبالطبع، ليس هناك أي ضرر محتمل إذا تعلمنا من رواد الماضي، لكننا في نفس الوقت يجب ألا نتمسك بالحصول على نفس النتائج، لأننا إذا كنا سنضع في أذهاننا منذ البداية أنه يجب علينا التوصل إلى نفس النتائج التي توصل إليها السابقون، فلن تكون حركة الإصلاح إلا إهدارًا للوقت واستنفاذًا للطاقات وتقليدًا أعمى للماضي. أما إذا أطلقنا العنان للعقل القويم والقلب السليم في هذا الأمر، فسوف تكون لدينا المقدرة على فهم الوحي كما فهمه السابقون، كما أنه يجب أن نضع في اعتبارنا أن المعرفة الإلهية والمعرفة التي تقوم على المشاهدة لا يتعارضان أبدًا، ولكن كلاهما مكمل الآخر؛ فالمعرفة الصحيحة معرفة تأملية مبينة على المزج بينهما.

الدعوة إلى تغيير المنهج

على مشارف الرياض، وفي الطريق إلى المطار، تقع مجموعة كبيرة من الأبنية الضخمة التي تبدو كالقصور، وهي أبنية جامعة الإمام الشهيرة، والمعروفة بما تقدمه من دراسات عليا بالشريعة الإسلامية. إلا أن جامعة الإمام ليست المركز التعليمي الوحيد المتخصص في تدريس العلوم الإسلامية، أو "علوم الشريعة" كما يطلقون عليها، فهناك جامعات أخرى – لا تقل شهرة - متخصصة في تدريس هذه العلوم؛ كجامعة المدينة المنورة بالمملكة، وجامعة الأزهر الشريف بالقاهرة، وعدد كبير من المعاهد المثيلة المنتشرة في ربوع العالم الإسلامي والمتخصصة في تدريس العلوم الإسلامية. وعلى الطرف الآخر من العاصمة السعودية الرياض، تقع جامعة الملك سعود المتخصصة في تدريس العلوم الحديثة فقط. ورغم أن الجامعتين تقعان على طرفي مدينة واحدة، إلا أنهما يشكلان وجهتي نظر مختلفتين تمامًا. ولن يكون من قبيل المبالغة إذا ما قلنا أن الطلاب في كلتا الجامعتين يعيشون حياتين مختلفتين تمامًا؛ ففي جامعة الإمام، تنحصر جلة العلوم التي تُدرس في العلم الشرعي، أي العلوم الدينية، ولا تحظى فيها العلوم الدنيوية بأية شرعية على الإطلاق. وعلى الجانب الآخر، يرى العلماء في جامعة الملك سعود أن لا شأن لهم بدراسة العلوم الشرعية. وقد أدى هذا الفهم الخاطئ لماهية العلم ومن ثم تقسيمه إلى علم إسلامي وآخر غير إسلامي إلى انقسام المسلمين على أنفسهم في هذا الشأن؛ فأصاب المنشغلين بدراسة العلوم الدنيوية الحديثة خوف من عدم جدوى جهودهم في حياتهم الآخرة، بينما على

الجانب الآخر، يعيش العلماء المنشغلين بدراسة العلوم الدينية في وهم أنهم، كعلماء دين، هم ورثة النبي ﷺ وأنهم يمتلكون العلم الحقيقي دون الآخرين.

وبالرغم من أن فكرة الجامعة المتكاملة التي تفي بمتطلبات العلم "الإسلامي" هي الفكرة المتبعة الآن، إلا أنها لا تتوافق والمفهوم الكلي للعلم في الإسلام. فحتى قبل فترة الاستعمار، لم يكن علماؤنا القدامى يؤمنون بهذا المفهوم الضيق للعلم الشرعي. وفي عصور الإمبراطوريات الإسلامية على اختلاف أشكالها، اعتنت المعاهد الدينية بإدراج معظم المواد الحديثة في مناهجها الدراسية حتى يتسنى لهم إفراز جيل لديه المقدرة على تحمل المسئولية. ويعد تضمين كتب المنطق والرياضيات والفيزياء وغيرها في المناهج الدراسية التي تدرسها المدارس النظامية الشهيرة (تلك المدارس التي تدرس المناهج النظامية التي يرجع أصلها إلى القرن 18)، دليلاً على أن تلك المناهج التي تبدو اليوم بالية قد اكتست بمظهر الحداثة لدى ظهورها. ولكن عندما اعتقد العلماء أنه بعد سقوط الإمبراطوريات الإسلامية أصبح دورهم قاصراً على الحفاظ على التراث الإسلامي وتعليمه للأجيال التالية، سيطرت عليهم روح التمرد. ولم يحدث هذا بين يوم وليلة، فأصول هذا الفهم الخاطئ لماهية العلوم إنما يرجع إلى القرن الثاني الهجري، عندما اكتسبت العلوم النقلية دائمة التطور – وهي العلوم الخاصة برصد وتقييم عادات المجتمع - شهرة واسعة، وهي المسألة التي سأعود إليها فيما بعد.

يرى أنصار العلوم الشرعية أن المجتمع الإسلامي في حاجة إلى مؤذنين وأئمة وكتبة ودعاة وعلماء في الفقه، يعلمون الأولاد والبنات آداب التعامل في الإسلام وكيف يعيشون حياة صحية نظيفة. ولكن هل نحتاج لتحقيق هذا الهدف إلى دورات طويلة المدى تمتد من عشرة إلى خمسة عشر عامًا؟ جدير بالذكر أنه حتى لو عمدت معاهدنا الدينية إلى خلق جيل قادر على قيادة وتوجيه غيره من الناس في العصر الحديث، فلن يتسنى للمعاهد التي مازالت العصور الوسطى تحتل القاسم الأكبر في مناهجها الإتيان بمثل ذلك.

ما هو العلم؟ وما هو تعريف القرآن للعالم الحقيقي (الراسخون في العلم)؟ يجب أن تثار هذه الأسئلة من جديد. قال تعالى

﴿...قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ...﴾ (الزمر: 9).

من منظور قرآني شامل، الدين والعقل هما المصدران الأساسيان للعلم؛ ففيما يمثل الدين النور الهادي للبشرية، يأتي العقل ليكون هو الأداة الأساسية للتحليل، فكل منهما يكمل الآخر؛ وهؤلاء الذين من الله عليهم بنقاء السريرة وحسن الفهم يعتبرون بآيات الله ﷻ المتنوعة، فتراهم يتأملون ما ينزل الله من السماء من ماء، فيحي به الأرض بعد موتها فتخرج ثمرات مختلف ألوانها، وكذلك يتأملون اختلاف ألوان الناس والدواب والأنعام. وكلما ازداد تدبرهم لهذا الكون السحيق، كلما عظمت خشيتهم لله ﷻ. قال الله تعالي ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟...﴾ (فاطر: 28).

والرسول ﷺ هو المعلم لهذه الأمة، فنرى القرآن الكريم يقول

﴿ ...يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ...﴾

إن ذكر الحكمة على أنها نتيجة طبيعية لتعلم كتاب الله ﷻ لهو خير دليل على أن العقل هو مفتاح الفهم الصحيح للقرآن الكريم. ولكن ما هي الحكمة ولماذا أوردها القرآن الكريم مقرونة بلفظ "الكتاب" في نفس الآية؟ خلط بعض المفسرون بين تلك الحكمة وبين سنة النبي ﷺ. ومع ذلك، إذا ما تدبرنا هذه الآيات عن قرب، فإننا سنفهم الحكمة بمعنى مختلف تمامًا. فعلى خلاف السنة، لا يمكن النظر إلى الحكمة علىأنها ظاهرة بلغت درجة كمالها وانقطعت بوفاة النبي ﷺ، فهي عملية مستمرة من النشاط الذهني. وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تؤيد هذا المعنى؛ فعلى سبيل المثال يقول الله ﷻ في قصة داود

﴿...وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ...﴾ (البقرة: 251).
وقال ﷻ ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ...﴾ (البقرة: 269).
ومن هنا لا يختلط مفهوم الحكمة مع السنة، وهذا ما نراه جيدًا في التأكيد القرآني أن الأمم السابقة، أمة إبراهيم ﷺ على سبيل المثال، قد تلقت الحكمة، قال

﴿ ...فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ...﴾ (النساء: 54).

وفي سياق آخر، يأمر الله ﷻ المسلمين أن يتسموا بالحكمة في دعوة الناس لله رب العالمين. وبإيجاز، فإن النظرة الشاملة للقرآن ترى في الحكمة اتجاهاً عقلياً يرسخ في الفرد في ضوء الوحي الإلهي. فإذا ما توقف العقل عن أداء وظيفته، تأتي الحكمة لإنقاذنا. لقمان كان رجلا حكيمًا، جمع بين حكمة الدين وحكمة العقل، ولذا كان ذكره في القرآن الكريم. وحكمة الدين وحكمة العقل هما مكونات الشخصية المتوازنة أي "قلبًا سليمًا" كما يصوره القرآن الكريم حين يقول ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء: 89).

هذه النظرة العقلية المتوازنة هي التي وضعت الأمة يوماً على المسار الصحيح لقيادة العالم، حيث كان المسلمون أساس خلق عالم جديد قوامه التفكير العقلي؛ ففي أيام عظمة الإسلام، لم يخطر لنا أبدًا– نحن المسلمين- أن نقتصر على دراسة ما يطلق عليه العلوم الشرعية. بل على العكس، لم يكن الجيل الأول من المسلمين على دراية بمعنى "علم شرعي"، الذي انتشر بين علماءنا الآن. وفي العهد الإسلامي الأول، لم يطرأ أبداً بالأذهان أن ستظهر مجموعة بين الناس يزعمون أنهم حجة في العلوم الدينية. فالعلماء – كما نعرفهم اليوم – بهويتهم المختلفة وزيهم المميز، لم يكونوا معروفين لدينا على الأقل حتى نهاية القرن الأول من الهجرة. فقد قيل إن القاضي أبو يوسف هو أول عالم يصنع لنفسه - وللعلماء الآخرين في المحاكم إبان فترة العصر العباسي - رداءً خاصًا. وتدريجيًا، أصبح هذا الرداء مع بعض التعديلات التي أدخلت عليه هو السمة المميزة لعلمائنا. وقد شهد هذا العصر أيضًا ظهور فقهاء ومجتهدين عظام ممن اكتسبوا شهرة اجتماعية وفكرية كبيرة. فبكونهم جامعي وناقلي السنن النبوية، وهي مادة شديدة الصعوبة، حظي هؤلاء العلماء باحترام كبير يفوق حتى احترام العلماء المتخصصين في دراسة القرآن. في هذه الأثناء كان الناس ينظرون إلى هؤلاء الذين أخذوا على عاتقهم جمع وحفظ الروايات التاريخية على أنهم علماء، وفيما بعد تسبب هذا الفهم الخاطئ لطبيعة العلم في تقسيم العلم (المعرفة) إلى علوم نقلية وعلوم عقلية، حيث الأولى هي العلم الشرعي الذي كان الأساس فيه مبنيًا على كلمات الوحي ولم يكن للعقل فيه أي دور. كما أن مقارنة العلم العقلي الحديث بالعلم النقلي تسفر عن الحط من شأن الأول، جاعلة إياه فرع من العلوم أقل مرتبة، وعليه

فإن كل من أسهم بأي اكتشاف علمي عليه أن يتحمل حظاً من الاحساس بالذنب. وبالرغم من أن اعتبار "العلم النقلي" أو (العلوم الشرعية) أساسًا للمعرفة قد مكن العلماء من الأخذ بمقاليد الأمور، إلا أنه تسبب في ضيق أفق العقل المسلم.

جدير بالذكر أن الوهم الذي كان يعيشه المسلمون منذ وقت طويل بشأن طبيعة العلم، والذي أسفر عن زعزعة العقل المسلم، كان أيضًا سائدًا بين اليهود حتى وقت قريب؛ فعلى مدار ألفي عام تقريبًا، وقبل الاستيلاء على المعبد الثاني في القدس بوقت طويل، ظل حاخامات اليهود ينشرون بين الناس أن الهدف الرئيسي من الحياة على هذا الكوكب هو الاعتكاف على دراسة التوراة؛ حتى إتاحة ممارسة التجارة أو الأنشطة التجارية كان على أساس أن الهدف من كسب المال هو الإنفاق على المنشغلين بدراسة العلوم الدينية. أما قراءة كتاب دنيوي، فقد اعتبره حاخامات اليهود تعدٍ سافر على العقيدة، وقد ظلت الأمة اليهودية في ديسابورا تعيش تحت وطأة هذا الوهم قرابة الألفي عام. إلا أنه في القرن الثامن عشر، في أوروبا الشرقية، أثار أحد اليهود المهتمين بالقضية تساؤلاً ثوريًا كان الأول من نوعه. قال اليهودي: "هناك بعض الأوقات في حياة الفرد، لا يتمكن فيها من قراءة التوراة أو أي كتاب ديني آخر، خاصة إذا كان في المرحاض، فهل للفرد آنذاك أن يقرأ في علم دنيوي؟" حاول اليهودي أن يجد مخرجًا وحصل بالفعل على موافقة حاخامات اليهود. كانت هذه المحاجة هي الأولى من نوعها، ترتب عليها أن بدأ الكثير من اليهود الأوروبيين يشتكون من الإمساك في أمعاءهم، حيث راحوا يقضون ساعات طويلة في المراحيض. وكذا، في الربوع اليهودية التي أرسى فيها رجال الدين اليهود أساليب الحياة، أصبحت المراحيض هي المأوى الآمن الذي يستطيع الشخص فيه أن يطالع كتب العلوم والفلسفة. وما أن انتهكت هذه الحرمة، لم تعد السيطرة على الخيال اليهودي أمرًا ممكنًا. وقد شهدنا إبان فترة القرن التاسع عشر والقرن العشرين سيلا من المفكرين والفلاسفة والعلماء والأدباء اليهود. وفي الحقيقة، يدين القرن العشرون بالفضل للعقل اليهودي الذي أسهم بشكل كبير في بنيته الفكرية.

والأمة اليهودية ليست ظاهرة حديثة، فقد عاش اليهود على هذا الكوكب منذ قرون. وطوال فترة عيشهم في عزلة يملؤهم الإيمان بأنهم متميزون في المهاترات

الفقهية التي لا طائل من ورائها، لم يسمع العالم بهم، ولا يعني هذا أنه لم يكن بينهم عقول عظيمة خلال فترة الألفي عام الماضية، إلا أنه قد أضاع خيرتهم طاقاتهم في الجدل حول "قضايا دينية" مثل النظر في حرمة تنظيف المراحيض في يوم الشابوت (Shabbot) أو لبس شعر مستعار (باروكة). لذا، بمجرد أن سنحت الفرصة لهذه الأمة أن تطلع على العلوم الدنيوية، قدمت للعالم الكثير من العجائب. وفي هذه التجربة اليهودية ما يعكس المأزق الذي يمر به المسلمون.

فيما مضى، أدرك المفكرون المسلمون – نوعاً - ما سيسفر عنه التضليل والوهم الذي أثير حول تقسيم العلم من أزمات فكرية. ففي كتابه العظيم "إحياء علوم الدين" شجع حجة الإسلام، أبو حامد الغزالي، المسلمين أن يتعلموا الهندسة والطب كي لا يعتمدوا على غير المسلمين في هذه العلوم. ولكن فكرة أن العلم الحقيقي هو في جوهره علم كلي يتألف من معرفة علمية ومعرفة دينية، لاتزال فكرة تحتاج إلى مزيد من الشيوع بين المسلمين اليوم. هذه الفكرة لا تنادي بجهود عظيمة أو أعمال ترميمية لتنفيذها، ولكن جل ما تنادي به هو مجرد تغيير المنهج.

هل يمكن أن تنتصر الديمقراطية مرةً أخرى؟ أصبح من الصعوبة المتزايدة في عصر ما بعد الديمقراطية أن يقوم فردٌ واحد ببذل كفاح عامٍ وشاملٍ من أجل استعادة الكرامة الإنسانية، والسمة الغالبة للموقف في حقبة ما بعد الديمقراطية هي الغموض الذي يكتنف مصادر القوة الخاصة بها، ولكنها فيما يبدو تشير إلى أن الإمبراطورية الأمريكية هي التي تتحكم في العالم من خلال "معسكرات" الاعتقال المنتشرة في مناطق متفرقة من العالم.

فرؤيتنا للوحي هي رؤية من الخبرة الماضية التي كانت قد أضاءت لنا الطريق فيما مضى منذ أربعة عشر قرنًا. في الأغلب الأعم، يعد ذلك مجرد جزء من هويتنا التاريخية وليس تجربة ملموسة، فنحن ننظر للقرآن بوصفه معين لا ينضب لتراث عظيم من النور وليس كأنه نورٌ في حد ذاته، نتيجة لذلك، وعلى مدار العديد من القرون، تعاني الأمة من حالة مستمرة من التردي، فهي تتراجع من النور إلى الظلمات.

هل المستقبل للإسلام؟

إن حقبة ما بعد الديمقراطية تخطو نحونا على وتيرة سريعة، فالمبادئ الإنسانية التي تشدقنا بها طويلاً مثل الحرية والكرامة الإنسانية وفكرة المجتمع الحر في حالة انحسارٍ مستمر، كما أن الحرية الفكرية، وهي الأساس الحقيقي لمستقبل أي مجتمع يريد أن يكون عماده التحضر، تواجه خطرًا كبيرًا في كافة أنحاء العالم، لا سيما في العالم الغربي؛ المعقل التقليدي للديمقراطية الحديثة.

لم تزد أحداث الحادي عشر من سبتمبر من حدة ما أُطلق عليه خطأً "صراع الحضارات"، بل كانت معركة حقيقية بين الحرية والفاشية، وبين التحرر والتعصب، فقبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر بفترة طويلة، وخاصة بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، كان العالم الغربي ينتقل من التعددية الحرة إلى الديمقراطية العادلة، ومن الطبقات الثرية الحاكمة إلى عصر ما بعد الديمقراطية، وهو الوضع الذي لا زال يحتاج إلى تحديد صحيح وواضح. ورغم أن التعبيرات القديمة مثل الحفاظ على حقوق الإنسان ونشر مبادئ الديمقراطية هي سبب القلاقل المستمرة للسياسة الخارجية الأمريكية وصناع القرار في واشنطن دي سي، إلا أنه يبدو أن العديد منا لم يعد يؤمن بالديمقراطيات الأخرى الفعالة. ورغم أن المبادئ الديمقراطية تطلب منا أن نحترم سيادة الأمم الأخرى، إلا أن مناصرة طريق الديمقراطية العادلة قد اعتمدت - دون اعتبار للمخاطر – على تصدير الطريقة الأمريكية في الحياة إلى أجزاءٍ مختلفة من

العالم، ومن ثم وصلت الحرب من أجل الديمقراطية إلى درجة الحرب الإمبريالية، أو ما يمكن أن نطلق عليها تهور أحمق لغزو العالم كله.

وتتعدد معاني الديمقراطية لشتى أنواع البشر في مختلف أنحاء العالم، وهذا يعتمد على التركيبة الاجتماعية والدينية للمجتمع، وأي محاولةٍ لتعريف الديمقراطية بمصطلحات موحدة لن ينتج عنها إلا نفي روح الديمقراطية نفسها. وإذا كان الضمير الديمقراطي لأمريكا يمكن أن يسمح بتطبيق عقوبة الإعدام داخل الأراضي الأمريكية، فلا يوجد مبرر أخلاقي للاعتراض على القرار الفرنسي بحظر ارتداء الحجاب أو الرموز الدينية الأخرى في المدارس، أو إدانة المجتمعات المسلمة لعدم قبول المساحقات والشواذ كأقلية معترف بها داخل المجتمعات. لقد أدت سذاجة صناع القرار الأمريكيين في تصوير وتصدير الديمقراطية سواءً بالخداع أو الاحتيال إلى إصابة الديمقراطية الليبرالية في مقتل. إن الديمقراطية التي اخترعتها البشرية عبر تاريخها الطويل الذي يمتد لقرونٍ كأحد أشكال التغيير السياسي السلمي أصبحت الآن - وبكل أسفٍ - ظاهرة منتهية، لقد أصبحت الديمقراطية خيارًا بين الشرور الهينة والعظيمة، وهذا هو عين ما حدث في الانتخابات الأخيرة في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، حيث لم يكن أمام الناس سوى الاختيار من بين خيارات مبتذلة وفاسدة، ففي أمريكا كان الاختيار بين كيري وبوش، وفي بريطانيا كان الاختيار بين حزب العمال والمحافظين. لقد أدى غياب أي صوت ديمقراطي فعال في المعاقل التقليدية للديمقراطية الليبرالية إلى وجود أعداد متزايدة من معسكرات الاعتقال في مختلف أنحاء العالم، حيث تنتهك الكرامة الإنسانية. إن أيام المعسكر السوفيتي أرخبيل غولاغ (Gulag Archipelago) وأهوال المحرقة النازية أوسشفيتز (Auschwitz) تطل برأسها علينا مرة أخرى، ولكن على نطاقٍ أوسع هذه المرة.

هل يمكن أن تنتصر الديمقراطية مرةً أخرى؟ أصبح من الصعوبة المتزايدة في عصر ما بعد الديمقراطية أن يقوم فردٌ واحد ببذل كفاح عامٍ وشاملٍ من أجل استعادة الكرامة الإنسانية، والسمة الغالبة للموقف في حقبة ما بعد الديمقراطية هي الغموض الذي يكتنف مصادر القوة الخاصة بها، ولكنها فيما يبدو تشير إلى أن الإمبراطورية الأمريكية هي التي تتحكم في العالم من خلال "معسكرات" الاعتقال المنتشرة في

مناطق متفرقة من العالم. وبالإضافة إلى ذلك، توجد العديد من مراكز القوى غير الواضحة والتي لا يمكن التحكم فيها داخل هذه الإمبراطورية وخارجها مثل الشركات متعددة الجنسيات، والمنظمات غير الحكومية متعددة الجنسيات، والمؤسسات والشركات الاحتكارية ذات رؤوس الأموال الضخمة، والمؤسسات المالية التي تتحكم في مصير الشعوب "المستقلة"، والقنوات الإعلامية التي يملكها ويتحكم فيها قلة من أصحاب الثروات. إننا لا نستطيع في ظل فوضى حقبة ما بعد الديمقراطية أن نحدد كيف لنا أن نسعى للإصلاح؟ أو حتى كيف يمكن أن نوجه البداية المتواضعة الوجهة الصحيحة؟. إن الديمقراطية الغربية ليست هي وحدها التي وصلت إلى طريق مسدودٍ، ولكنها قد تسببت في حدوث خواء أيديولوجي للأفراد.

إن الخوف من حقبة ما بعد الديمقراطية يفوق الخوف من النظريات الغامضة الخاصة بـ "نهاية التاريخ"، وربما يعتقد أصحاب هذه النظريات أن التاريخ سوف يبدأ مرة أخرى، بينما يتسبب الخواء الديمقراطي في أن تخيم علينا مشاعر من اليأس والكآبة ترى عدم بقاء أي أيديولوجية يمكن تعليق الآمال عليها، كما يرى هؤلاء أن التاريخ قد انتهى إلى حالة من الفوضى، وأننا نتجه الآن إلى مصيرٍ غير معروف. لقد أصبح العديد منا، ونتيجة الخوف لما يحمله المستقبل بين طياته لهم، يريد الرحيل عن هذا العالم في قنوط، ولكنهم يشعرون أن الوقت قد تأخر. إن التحكم الكامل في النظام العالمي للمؤسسات العملاقة وشبيهاتها من المؤسسات الرأسمالية الأخرى قد أدى إلى ضعف القيادة السياسية وجعلها كعملاء لأي ثورة مستقبلية، ومن المثير للسخرية أن تعتقد أن أي دولة مهما كانت قوتها يمكنها أن تتحكم في الشياطين الرأسماليين الذين لا يعرفون سوى القسوة والوحشية، وما هو أسوأ من ذلك أن هذه المؤسسات العملاقة تتحكم في الإعلام العالمي، مثل مؤسسة جنرال إليكتريك التي تتحكم في قنوات (NBC, CNBC, MSNBC)، وتايم وورنر (CNN) وديزني (ABC) وفياكوم (CBS)، وهم لا يعرضون لنا إلا ما يريدون مشاهدته، كما أنهم يريدون دائمًا عد إطلاعنا على الموقف الحقيقي خشية ألا يؤدي ذلك إلى إحداث تحركًا قويًا ضد نهبهم واستعمارهم للعالم.

لا ريب أن الموقف الذي نعيشه تخيم عليه روح الكآبة والظلمة، ويبدو أنه لا يوجد أحد لإنقاذ هذا الكوكب وسكانه من الفوضى وانعدام النظام الذي يسوده. أما فيما يتعلق بحركات السلام أو حركات حماية البيئة أو المنظمات الدولية لحقوق الإنسان، فهي الأخرى تعد نوعًا ما امتدادًا لنفس النظام الرأسمالي الوحشي، حيث يعتمد كل ذلك على التبرعات والإعانات المالية لتلك المؤسسات. وسوف تسمح الرأسمالية لهذه الحركات أو المنظمات بالتحرك طالما أنه يمكن احتواؤها أو طالما أنها لا تمثل تهديدًا خطيرًا على جشعهم المتزايد بشكل دائم. ونحن سوف نرتكب خطأً كبيرًا إذا اعتقدنا أن حركات السلام أو جماعات مناهضة الحرب يمكنها أن تحدث تغييرًا جذريًا في المستقبل القريب، وهناك بعض الحالات التي تم فيها الحد من دور هذه الحركات كلما سنحت الفرصة بذلك، أو عندما يصبح صوتها مسموعًا بدرجة يصعب احتواؤها. ففي أكتوبر من عام 2000، قامت حوالي 50 منظمة غير حكومية، كان من بينها منظمة العفو الدولية ومنظمة مراقبة حقوق الإنسان، بمناشد الأمم المتحدة بـ "تحميل الولايات المتحدة المسئولية عن مشكلة التمييز العنصري المستعصية والمستمرة". وفي مؤتمرٍ للأمم المتحدة عُقد في دربان لمناهضة العنصرية قبل أيام من أحداث الحادي عشر من سبتمبر، اعترضت بعض المنظمات غير الحكومية على الوضع الراهن الذي يؤيد إحدى القرارات التي كانت تنص على أن الاقتصاد القائم على السوق الحر "نظام به أخطاء أساسية فادحة"، لكن كان يجب إسكات أصوات العقل هذه خلف ستار "الحرب على الإرهاب"، وخاصة بعد إعلان القوانين المشددة لمناهضة الإرهاب، تلك القوانين التي انتهكت حقوق الإنسان الأساسية.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو، أين يجب أن نتجه؟ إن موت الديمقراطية لم يترك لنا خيارًا سوى أن نبحث عن وسائل أخرى ممكنة لنظام عالمي بديل، وحتى هذه اللحظة، لا توجد خيارات جاهزة متاحة أمامنا. وحقًا، إن كتاب الله يوجد بين أظهرنا، لكنه ظل قرونًا عديدة مقصورًا على حدودٍ معينة لا يتخطاها، كما يوجد أيضًا بيننا من كان يسوع يدعوهم "ملح الأرض" أو "نور العالم"، وكذلك أولئك الذين ينظرون إلى أنفسهم على أنهم شعب الله المختار، بالإضافة إلى مطالبة رجال الدين على مختلف أشكالهم بتحقيق السلام العالمي. لكن كل هؤلاء يفتقدون إلى الخطة

الفعالة والقابلة للتطبيق لإنقاذ كوكب الأرض من هذا المستنقع الحالي، فاليهود، أو كما يطلقون على أنفسهم شعب الله المختار، يصبون جل اهتمامهم على خلاص شعبهم فقط، أما المسيحية فقد قامت في إطار حماسها لتحقيق كافة الأماني التي يرجوها كل شخص بعمل العديد من التسويات في مسار تاريخها، حتى أنها لا تزيد الآن عن كونها مدينةً على إحدى الجبال. ومع ذلك، توجد بعض النفوس الشريفة واليائسة بين اليهود والنصارى وكذلك بين المجتمعات المؤمنة الأخرى، إلا أنه رغم إدراكها أن المشكلة عالمية وتحتاج إلى مجهود عالمي، فقد ظلوا على مدى قرونٍ يتدربون على العمل في معزل. وبما أن كل مجتمع يهتم فقط بهيمنته وخلاصه الخاص، فإن أي مشروع مجتمعي لا يحظى بقبول المجتمع الآخر. وهذا هو حال بعض أنصار الإسلام المتحمسين الذين يرون المستقبل في إطار سيطرة المسلمين على العالم، وكذلك حال أولئك الذين يرون أن الحضارة الغربية قد فقدت بريقها، وأن الوقت قد حان لتكون السيطرة للحضارة الصينية أو الهندية. إن تصوير الإسلام أو أي أيديولوجية عالمية لذلك السبب على أنها بناء حضاري أو ثقافي كان له دائمًا آثارًا مأساوية، فالإسلام، رسالة الله إلى العالم، هو دعوة لكافة الناس أن يسلموا وجوههم لله الواحد لا شريك له، يجب أن يتحرك خارج الظلال الحضارية التي ألقيت عليه في العصر العباسي، أو العصر الذهبي المزعوم للإسلام.

إن العالم الذي نعيش فيه اليوم عالمٌ متشابك ومتداخل، وأي أيديولوجية تدعي أنها قادرة على تحرير وفك هذا التشابك والتداخل لا بد أن تكتسب قبولاً ومظهرًا عالميًا، كما أن أي محاولة لإحياء الحضارة الإسلامية، وفقًا لتصور الكثير منا، لن يكون تأثيرها سلبيًا فقط، ولكنها أيضًا ستكون ضد أهداف القرآن الكريم ومقاصده. ويجب على أولئك الذين يرغبون في إنقاذ العالم من المستنقع الحالي أن ينظروا أولاً إلى تكوينهم الأيديولوجي ليروا إذا ما كانوا بالفعل أصحاب رسالة تحظى بالقبول العالمي لعظمة النبوة وروعتها.

دعوني أوضح لكم هذا الأمر. إن الإسلام - كما ينظر إليه الناس على عمومهم - يجمع بين الرسالة الإلهية وتاريخ المسلمين، وقد شكلت الكثير من العناصر الثقافية والتاريخية ما نطلق عليه اليوم الهوية المسلمة، وهذا الأمر ينطبق على معظم الديانات

والأيديولوجيات، وهذا هو السبب الذي جعل هذه الديانات ذات قبول محدود، حيث إنها تسعى إلى تحقيق حاجات بعض الفئات الخاصة من الناس وآمالهم. إن النظرة إلى الإسلام على أنه دينٍ نشأ وترعرع في الجزيرة العربية، أو على أنه دينٌ لمن يعيش في منطقة الشرق الأوسط ليست هي النظرة الصحيحة للإسلام. وكان لوجود بعض الأسباب التاريخية والمناقشات الفقهية التقليدية المتعلقة بتقسيم العالم إلى دار الإسلام ودار الكفر أن اعتقد فقهاؤنا أن صبغة الإسلام الأساسية كانت الصبغة العربية، واليوم، أصبح ظهور الإسلام مرادفًا للغزو الثقافي والسياسي للمسلمين. إن صورة الإسلام هذه يجب استبدالها بالصورة الحقيقية لرسالة الله الصادقة التي تبطل كل أنواع الغزو، ثقافيًا كان أو دينيًا أو سياسيًا أو أي شيء آخر. ولا ريب أن بعث موقف يقوم فيه كافة الناس دون اعتبار للون أو الجنس أو اللغة بالتضرع باسم الإله الأعظم هو ما يدعو إليه الإسلام، والساحة العالمية مهيأة في الآونة الحالية لظهور إسلام عالمي على مسرح الأحداث.

إن القرآن رسالة الله الخالدة يجب أن تكون صالحة لكل زمان ومكان، ولكل الجماعات الجغرافية واللغوية، ولكافة البشر ذكورًا كانوا أم إناثًا، ولا يمكن المغالاة في التأكيد على أن كون القرآن عربي يعطي العرب أفضلية على غير العرب. وفي عصر تكوين الإسلام في صبغته العامة عندما اتخذت رسالة الإسلام شكل الأيديولوجية الإمبراطورية، وفي إطار أنشطتنا التفسيرية التي أدت إلى تقنين عقيدة المسلمين، أصبح التأكيد على الشكل السائد والشائع للعقيدة الذي يهتم كثيرًا بالمظاهر الخارجية جزءًا لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية. ومنذ هذا الوقت، وخشية الفتنة، أسست السنية المسلمة نفسها بالتدريج في التاريخ الإسلامي تاركة لغيرها مجالاً ضيقًا للظهور، وأعلن العلماء غلق باب الاجتهاد، ووضعوا قيودًا شديدة على كتاب الله خشية أن يتجرأ أحد على فتح كتاب الله يلتمس الهداية منه مباشرة مع تجاهل المذهب السني. وطالما كانت الإمبراطورية المسلمة باقية في أشكالٍ مختلفة في بغداد، وأسبانيا، وتركيا، والهند، أكد العلماء المسلمين – مثل الكنيسة الكاثوليكية - على حقهم وحدهم في تفسير كتاب الله تعالى، ولكن سرعان ما تغير الوضع، ليس نتيجة ضعف تحكم السنية في زمام الأمور، ولكن نظرًا لظهور مواطن كثيرة في عالم الانترنت،

استطاعت بعض النفوس اليائسة التدخل في تأويل النصوص وفقًا لأهوائهم؛ حيث قاموا بصياغة شخصية عامة متفق عليها للعصر الجديد. ولا تعد شبكات الانترنت هي المجال الوحيد الذي لا تستطيع السنية التحكم فيه بشكل قوي، فقد عانت المجتمعات المسلمة كثيرًا من أشكال الفجر الكاذب الذي نشأ عن حركات الإحياء المنهمكة في البحث الجاد، وهناك الكثير من العادات الثقافية القديمة والمعتقدات الدينية تحت البحث والتقصي الشديدين. وفي الحقيقة، إننا لنقف مذهولين أمام هذا البون الشاسع بين الإسلام النبوي والإسلام التاريخي.

وربما تبدأ فترة جديدة من التاريخ النبوي، وهذا هو ما أطلق عليه فوكاياما "ليبدأ التاريخ من جديد".

أن السبب الحقيقي للانحراف عن الإسلام وما تلاه من اضمحلالٍ للمجتمع المسلم هو أننا قد قمنا ببناء سياجٍ من علوم التفسير حول القرآن الكريم. إننا لا نسمح للقرآن بأن يكون له دور حازم وقاطع، ولكن على النقيض من ذلك، نبدأ مباشرة بالبحث عن آراء الفقهاء الذين ننتمي إلى مدرستهم عندما تواجهنا مشكلة أو قضية ما، أما القضايا التي لا نجد لها أثرًا في تلك الكتب، فقد جرت العادة أن ننكر كل ما هو جديد، حتى يصبح هذا الشيء الجديد جزءًا لا يتجزأ من حياتنا ونجد أنفسنا واقعين في حوزته وقبضته. فبداية من استخدام مكبرات الصوت إلى ذبح الحيوانات والطيور باستخدام الماكينات الآلية، نجد أن علماءنا قد حرموا كل هذه الأشياء في البداية، لكن شيئا فشيئًا، أصبحت هذه الآلات المحرمة مفضلة لديهم، حتى أننا لا نجد خطيبًا يحب أن يخاطب جمهوره دون استخدام الميكروفون.

حاجة الإسلام إلى مفسرين جدد

لقد أثبتت الفتوى التي صدرت عن معهد ديوباند في حادثة عمرانة وما لقيته من تأييد هيئة حقوق الإنسان بعد ذلك بما لا يدع مجالاً للشك أن مؤسساتنا الدينية ليست بعيدة كل البعد عن إدراك الحقائق المعاصرة فقط، ولكنها أوضحت أن القائمين على توجيه دفة الأمور في هذه المؤسسات يعوزهم الفهم الصحيح للقرآن الكريم كذلك. إن الآية القرآنية التي قامت عليها هذه الفتوى واضحة وجلية تمامًا، فالمعنى المقصود في قول الله ﷻ

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾

واضح، وهو أنه إذا تزوجت المرأة من رجل ما، ثم طلقها هذا الرجل أو مات عنها، لا يجوز لولده أن يتزوجها. إن أي شخص يقرأ هذه الآية للوهلة الأولى لا يمكن أن يفكر حتى بما يمكن أن يصوره له خياله الواسع في الآراء التفسيرية المعقدة للفقهاء في هذه الحادثة، والتي نتج عنها تضارب الآراء في حادثة عمرانة.

لقد دفع الوضع الحالي للأمور طبقات المفكرين في المجتمع المسلم إلى التفكر مليًا فيما إذا كان مستقبل المجتمع سوف يكون في أمانٍ في يد هذه المؤسسات التقليدية والعلماء الذين يديرونها. والمسلمون الهنود دائمًا ما يبدون حساسية وحذرًا بالغًا تجاه دينهم، فهم يقودون عددًا وافرًا من الحركات المنظمة لصالح دينهم ومن أجل المحافظة الشريعة، كما يقدمون تضحيات عظيمة في سبيل ذلك، ودائمًا ما ينظرون إلى المعاهد العلمية الإسلامية على أنها قلعة الإسلام التي يجب أن تظل في منعةٍ عن كافة أنواع

التدخلات الخارجية، واعتبروا أن حماية هذه الحصون من العدوان الخارجي هو تكليف ديني. والمفارقة العجيبة أن التفسيرات والشروحات الخاصة بالقضايا الإسلامية التي تخرج حاليًا من هذه المؤسسات تتناقض مع القرآن والفكر. وإذا كان الإسلام قد تُرك بشكل كامل في أيدي علماء يفتقرون إلى المعرفة الكافية والفطنة السديدة، فالخوف كل الخوف أن يقوم هؤلاء العلماء – كما فعل أحبار اليهود – في تحويل الأمر إلى ظاهرة معقدة وشائكة يصعب على عامة المسلمين إدراكها أو الوصول إليها.

والإسلام لا يسمح لأي جماعةٍ من العلماء أو أي طائفة دينية أن تدعي أن لها الريادة في الأمور الدينية والروحية. ويُدرك العلماء الأجلاء جيدًا أن المكانة القيادية التي يشغلونها تحت دعوى الآية الكريمة

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

لا يمكن لهم الاستمرار فيها على ضوء الآية القرآنية السابقة. ومما يدعو للأسف أنهم قد قاموا بإخراج الآية عن المعنى والسياق الخاص بها، واستخدموها في تبرير استمرارهم في هذه المكانة القيادية التي ادعوها لأنفسهم في أمور الدين. وفي حادثة عمرانة، فإن علماء الدين الذين أفتوا بأن عمرانة قد أصبحت حرامًا على زوجها، قد استدلوا على ما ذهبوا إليه بالاستشهاد بكتب الفقه مثل الفتاوى الهندية، ورد المختار، والبحر الرائق. وكان من الأجدر لهم أن تكون مرجعيتهم كتاب الله وقراءة الآية الكريمة في سياقها الصحيح، وعدم الاعتماد على الكتب التي وضعها البشر والتي تزخر بالعديد من المتناقضات، ولو كانوا قد فعلوا ذلك، لكانوا قد أدركوا الأخطاء التي ارتكبها الفقهاء الأحناف عند التعبير عن آرائهم في هذه القضية، وهذا يجب أن يكون على قدر الاهتمام بالفقه الإسلامي والمعارف المدونة فيه. وبعيدًا عن الفقه، لو قام هؤلاء العلماء الأجلاء بالاجتهاد من خلال تفكيرهم وفطنتهم السليمة، لكانوا قد فهموا أن كتاب الله الذي يؤكد بشكل قاطع على أن كل شخص سوف يلقى ما يستحق من الثواب والعقاب، والذي يذكرنا أن كل شخص مسئول فقط عما يرتكبه من أفعال جاء في الآية الكريمة ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ والآية الأخرى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا

كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴾ لا يمكن أن يقبل الرأي الذي يقول بأن الولد يجب أن يعاقب على

فعل أبيه، إلى الحد الذي يمكن معه تدمير عائلة بأكملها. إن الرأي الذي عبر عنه الفقهاء بأنه إذا زنت المرأة مع والد الزوج، تصبح محرمة على زوجها كأمه يشير إلى نوعٍ من الحجج الكاذبة والشقاق المعروف عن أحبار اليهود. ومما يندى له الجبين أن علماءنا قد تجاوزوا في هذا الصدد ما فعله علماء اليهود، بل إنهم أيضا لم يتفكروا بأنفسهم في كلمات الوحي الإلهي إلا قليلاً، تمامًا كما فعل علماء اليهود أيضًا، واعتمدوا أكثر على آراء وتفسيرات السابقين في حل أي قضية، فكيف يمكن إذًا لأولئك العلماء كمتأصلين في المذهب الحنفي أن يحيدوا عن آراء أبي حنيفة، إنه يمكنهم بالطبع تجاهل النظام العادل للأشياء الذي فرضه علينا القرآن الكريم أو المعنى الواضح والجلي لمعاني الآية القرآنية، لمجرد أن العلماء الأحناف في العصور السابقة قد قرأوها وفهموها بشكل مختلف.

وتجدر الإشارة هنا إلى موقف العلماء المسلمين المعتدلين، حيث إنهم حينما وجدوا أن دقائق الفقه الحنفي وآراء السابقين تقف أمام حل قضية ما، فإنهم يقومون بالاستشهاد بالفقه الشافعي أو المالكي أو الحنبلي للخروج من هذا المأزق، إلا أنه يبدوا أنهم أيضًا يفتقرون إلى الشجاعة اللازمة لالتماس الهدي من كتاب الله تعالى مباشرة. وفي حالة عمرانة، حاول بعض العلماء المعتدلين الاستشهاد بالفقه الشافعي، وذهبوا إلى القول بأن الحرام لا يحرم الحلال (العلاقة الزوجية في هذه الحالة)، وعلى هذا الأساس تبقى علاقة عمرانة بزوجها صحيحة حتى بعد تعرضها لاغتصاب والد زوجها لها. وظاهريًا، يبدو هذا الرأي رأيًا معتدلاً يقوم على العقل والفطرة السليمة، إلا أن هذا الرأي أيضًا قد اعتمد على أراء العلماء السابقين، ولا يقدم الصورة الصحيحة للإسلام في ضوء القرآن الكريم.

إنني أرى أن السبب الحقيقي للانحراف عن الإسلام وما تلاه من اضمحلالٍ للمجتمع المسلم هو أننا قد قمنا ببناء سياجٍ من علوم التفسير حول القرآن الكريم. إننا لا نسمح للقرآن بأن يكون له دور حازم وقاطع، ولكن على النقيض من ذلك، نبدأ مباشرة بالبحث عن آراء الفقهاء الذين ننتمي إلى مدرستهم عندما تواجهنا مشكلة أو

قضية ما، أما القضايا التي لا نجد لها أثرًا في تلك الكتب، فقد جرت العادة أن ننكر كل ما هو جديد، حتى يصبح هذا الشيء الجديد جزءًا لا يتجزأ من حياتنا ونجد أنفسنا واقعين في حوزته وقبضته. فبداية من استخدام مكبرات الصوت إلى ذبح الحيوانات والطيور باستخدام الماكينات الآلية، نجد أن علماءنا قد حرموا كل هذه الأشياء في البداية، لكن شيئا فشيئًا، أصبحت هذه الآلات المحرمة مفضلة لديهم، حتى أننا لا نجد خطيبًا يحب أن يخاطب جمهوره دون استخدام الميكروفون. وحقيقة الأمر أن الله تعالى لم يسمح للبشر أن يحللوا أو يحرموا ما يشاءون، فكل الأفعال التي تقع تحت هذا النوع حددها القرآن الكريم تمامًا. ولذلك، فعلينا أن نقلع عن تلك النظرية التي ترى أن الحق في تفسير أو تأويل الإسلام مقصور على أي فئة معينة من الناس. والحق أن الإسلام قد جاء لوضع حدٍ لهذه الفئة التي تقف بين البشر وخالقهم، كما أن جميع الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى إلى العالم قد أعلنوا أنهم قد جاءوا لعمل اتصالٍ مباشر بين الله ﷻ وبين خلقه، ولا يجب أن يُسمح لكنيسة أو جماعة من العلماء أن يقفوا حائلاً دون ذلك. أما تنحية كتاب الله ﷻ والتماس الهداية من العلماء، والبحث في كتب السابقين لمعرفة آرائهم ومواقفهم، فهو عمل لا يرضاه الله. والقرآن الكريم يصور مثل هذا العمل في قول الله ﷻ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

ويجب أن يدرك مفكرو المسلمين أن الله قد أنزل القرآن على خاتم الأنبياء ﷺ، وهو ما لا يخضع لتفسيرات الفقهاء الأربعة، كذلك فإن الفقهاء المتقدمين بشر مثلنا، وهم عرضة للخطأ، ونحن غير ملزمين بتحمل تبعة الأخطاء التي ارتكبوها على أكتافنا الضعيفة، حيث يكفي ما ارتكبناه من أخطاء الحذف والإضافة. ولنسأل أنفسنا، لماذا نلجأ إلى الاستشهاد بما دونه الفقهاء الكبار الأربعة في القضايا الجدلية؟ ففي الحقبة ما بين أبي حنيفة إلى ابن حنبل، ظهر في التاريخ ثلاثون إمامًا آخر، وجميعهم تمتع بنفس المكانة التي تمتع بها الفقهاء الأربعة زيادة ونقصًا على حسب علمهم وسعة إطلاعهم، ومع ذلك، وُضعت الكتب التي كتبوها طي النسيان، ولم يؤد ذلك إلى حدوث نقص في فهم الإيمان. ونسأل مرة أخرى، هل كان سيبقى فهم الناس للإيمان

ناقصًا دون مؤلفات الأئمة الأربعة؟ هذا هو السؤال الذي يجب على علماء المسلمين مواجهة أنفسهم به. إنه يجب أن يتضح للجميع أن الأئمة الأربعة لم يأتوا إلى الأرض كممثلين لله ﷺ، كذلك لا يحثنا القرآن الكريم على الاتباع الكامل لأي أحد بعد موت النبي ﷺ. إن أولئك الذين يوجهون الاتهامات إلى هيئة قانون الأحوال الشخصية أو دار الإفتاء في ديوباندي بشأن عدم التعامل مع قضية عمرانة بشكل فطن، وفي إطار تحقيق العدالة، أو أولئك الذين ثار غضبهم من حقيقة أن مؤسساتنا الدينية التي تأسست لتفهيم وتدريس القرآن ليست لديها الشجاعة لالتماس الهداية من القرآن بشكل مباشر، يجب أن يدركوا أن منهج النظام الذي تدربوا وتعلموا في ظله لم تمنح القرآن المكانة المحورية التي توقعناها منها. وإذا ألقيت نظرةً على منهج المعاهد الإسلامية، فسوف تعرف عدد الساعات المخصصة لدراسة القرآن الكريم وما تشتمل عليه هذه المناهج. ويمكن أن يقال إن هناك بعض المواد الأخرى – بالإضافة إلى القرآن الكريم – التي يتم تدريسها حتى تساعد على فهم أفضل للقرآن. وإذا كان هذا صحيحًا، وإذا كان تدريس العلوم الاجتماعية القديمة يمكن أن تساعدنا على فهم القرآن الكريم بصورة أفضل، فلماذا يصر علماء المسلمين المتقدمين على استثناء العلوم الاجتماعية الحديثة من المنهج؟

والسؤال الآن، هل ستحصل عمرانة على العدل من خلال فهم علماء المسلمين التقليديين للفقه أو من خلال نظام العدالة الجنائية تحت إشراف الدولة؟ هذا السؤال من الأهمية بمكان، حيث إنه يثير انتباه الكثير من الناس. ومن أحد المظاهر الهامة التي نشأت عن هذه الحادثة هي علامة الاستفهام الكبيرة التي ثارت حول كفاءة رجال الفتوى ومدى فهم علمائنا للقرآن. إن أولئك الذين يرون أنه يجب – وفقًا للمذهب الحنفي – حرمان عمرانة من زوجها بسبب جريمة ارتكبها والده، وأولئك الذين يصفون هذا الرأي الفقهي بأنه شريعة الله المنزلة وينحازون إلى حقوق المسلم المنصوص عليها في قانون الأحوال الشخصية، يخضعون لفكرة أنه يجب أن تحاكم جريمة الاغتصاب التي ارتكبها والد الزوج بموجب نظام العدالة القضائية الذي تشرف عليه الدولة، لأن القانون الإسلامي لا يُمكن أن ينفذ هنا، ومن ثم لا يمكن رجمه حتى الموت. ما هذا التفسير الغريب للقانون، فبينما تصر بشدة على فرض

الشريعة على طرف واحد مدعيًا أن هذه قضية عقيدةٍ وإيمان، تسمح للطرف الآخر بالهروب من أحكام الشريعة بدعوى أن القانون الإسلامي لا يمكن تطبيقه هنا. ومن الأمور الأخرى في هذا الصدد، أنه كما تبذل الجهود لفسخ زواج عمرانة على أسس غير قرآنية، فإن الرأي الذي يرى بوجوب رجم والد الزوج حتى الموت مخالف للقرآن أيضًا؛ لأن عقوبة المغتصب هي الجلد وليس الرجم حتى الموت كما نص القرآن الكريم على ذلك في سورة النور، لكن أولئك الذين يمنحون أقوال وآراء الفقهاء أهمية تفوق أهمية القرآن الكريم لن يكفوا عن القول بأن آية الرجم كانت موجودةً في القرآن الكريم، ثم تم نسخها بعد ذلك، لكن حكمها لا يزال باقيًا. ومما يدعو للأسف أن من يقول هذه الأقوال ينتهك قدسية القرآن الكريم بكل جرأة ووقاحة.

وطالما لم يقم مفكرو المسلمين بمجهود منظم لسحب حق شرح وتفسير الإسلام من رجال الفتوى الذين تنقصهم المعرفة الكاملة بالقرآن، ومن العلماء الحمقى، فلا يمكن أن نتوقع حدوث أي تحسن في الموقف الحالي. ويجب على المسلمين الاعتماد على القرآن بدلاً من الاعتماد على طائفة من العلماء، كما يجب أن يُطبع في أذهان وقلوب عامة المسلمين أنه لا يوجد في الإسلام أي أفضلية لطائفة معينة من العلماء، كما أن الإسلام لا يعترف بالقيادة الدينية لأي طائفة، وطالما أن هذا لا يحدث، فسوف يمكن لأعداء الإسلام افتراء الأكاذيب على الإسلام ورسم صورة هزلية له. ويجب على مسلمي الهند الآن أن يدركوا أنه من غير المستحسن الاعتماد على التكيات أو المدارس لحماية الدين، ولكن عليهم أن يعرضوا أنفسهم على كتاب الله مع الاحتفاظ به بين أيديهم إلى الأبد.

إن القرآن كما أنزل على محمد متاح لنا حتى اليوم, لكن علماء المسلمين – وهم الكنيسة الخفية أو الفاتيكان غير المرئي – لا يسمحون لنا أن نتفاعل مع الوحي بطريقتنا؛ فنحن أحرار في التلاوة لكننا لسنا أحرارًا في التأويل. هل يمكننا أن نستجمع من الشجاعة ما يكفي لإعادة فتح كتاب الله ﷻ؟ إننا نعيش في مجتمع يعتقد بأن الجدل الديني قد انتهى وأغلق للأبد. إن بيننا أناس يعتقدون بإخلاص أن العقل البشري لم يعد قادرًا على استنباط الهداية من النص وأن فقهاء الماضي العظام قد حسموا القضايا جملة واحدة للأبد, لذلك فهناك فكرة خاطئة شاعت بين المسلمين تقول بأن ظهور المذاهب الفقهية الأربعة بين أهل السنة هو أمر إلهي.

فالعلماء – كما نعرفهم اليوم – بهويتهم المختلفة وزيهم المميز، لم يكونوا معروفين لدينا على الأقل حتى نهاية القرن الأول من الهجرة. فقد قيل إن القاضي أبو يوسف هو أول عالم يصنع لنفسه - وللعلماء الآخرين في المحاكم إبان فترة العصر العباسي - رداءً خاصًا. وتدريجيًا، أصبح هذا الرداء مع بعض التعديلات التي أدخلت عليه هو السمة المميزة لعلمائنا

تفكيك الكنيسة في الإسلام

في العصور السالفة تميز الإسلام بالبساطة والتلقائية؛ فعندما سُئل إبراهيم ﷺ – وهو نموذج المسلم الحق لكل الأجيال القادمة – أن يُسْلِم (إرادته لله) فعل ذلك بكل تلقائية قائلاً:

﴿... قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة 131)

وكذلك الحال بالنسبة لملكة سبأ التي قبلت الحقيقة على الفور بمجرد أن اتضح لها أن سليمان ﷺ لم يكن مجرد ملك عادي بل رسول من عند الله ﷻ, واعترفت قائلة:

﴿...قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

فلإسلام لله كان أمرًا يسيرًا حتى جاءت الأديان المنظمة على الساحة.

ولم يحدث في تاريخ الإنسانية أن هُزم الدين بالإلحاد أو باللادينية, بل عدوه اللدود كان غالبًا هو الدين المنظم أو المؤسس؛ ففي العهد الجديد نجد عيسى ﷺ يعنف الفريسسين (وهم الحاخامات على عهد عيسى ﷺ) بلا هوادة لتجاهلهم أهم الأشياء وهي العدل والرحمة والإيمان. أما قادة الدين المنظم، فهم بالرغم مما يتظاهرون به من التقى والورع إلا أنهم في الحقيقة منافقون "يعفّون عن البعوضة ويبلعون الجمل". وها هو ذا نص كلام المسيح الذي يقول فيه:

"ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تشبهون قبورًا مبيضة تظهر من خارج جميلة وهي من الداخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة." (متَّى 23-27)

ويخبرنا القرآن أن أحد أهداف النبي الأمي بمكة هو أن يخفف عن الإنسانية نير الشكلية الدينية وإصرها:

﴿ ...وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف 157)

لم يعترف الإسلام بدور كنسي لبيت العبادة أو بجماعة معينة من الناس لتأدية الشعائر الدينية, بل إنه كلف كل فرد أن يكون هو نفسه "البابا" وهو نفسه الوسيط بين نفسه وبين الله ﷻ. لكن بالرغم من هذا الموقف الأيديولوجي الواضح, إلا أنه بمرور الوقت بدأت بالتدريج تظهر ظاهرة تشبه (دور) الكنيسة. وهذه الظاهرة ظهرت خلسة بين جماعة المسلمين وقامت مجموعة من العلماء، ممن يُعتبرون قطاع طرق في الدين، بأن احتكروا حق تأويل كلام الله ﷻ. وهذا لم يحدث بين يوم وليلة, فنحن هنا نشير إلى الانحراف الرئيسي في تاريخنا الفكري, وهي نقطة سأعود إليها فيما بعد.

نظر الجيل الأول للمسلمين إلى القرآن على أنه كتاب هداية للناس كافة, العامة منهم والخاصة على السواء, وهو ما يسميه القرآن "هدىً للناس" أو "بيانًا للناس" وفقًا للتعبير القرآني. أما القضايا التي تذكر بصراحة في الكتاب, فلم يألُ الرعيل الأول من المسلمين جهدًا في التوصل إلى اتفاق بشأنها؛ حيث وضعوا في اعتبارهم القواعد العامة التي أرساها القرآن لعمل التوازن بين العدل والرحمة. هذه الأحكام رغم أنها فتنت لُبَاب الصفوة وقتذاك لم تكن حقائق جامدة أو أبدية تحتكم إلى نفس أسس العدالة حتى وإن تغيرت الظروف تغيرًا تامًّا؛ فعندما اضطر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب إلى أن يُعَدِّل بعضًا من الأحكام التي كانت سارية في عهد الخليفة السابق أبي بكر الصديق أو حتى في عهد النبي ﷺ نفسه فإنه إنما كان يرسخ مبدءًا عامًّا وهو أن الإنسان عليه أن ينظر إلى روح الحكم لا الحكم نفسه. إن عمر ﷺ قام بتغيير جذري في الأحكام (السنن) التي أرساها من سبقوه. فعلى سبيل المثال, اتخذ عمر ﷺ موقفًا مغايرًا تمام المغايرة بالنسبة للإعانات المالية التي كان يأخذها "المؤلفة قلوبهم", وهي

أموال كانت تُدفع لأعداء محتملين حتى تهدئ روعهم أو لتأليف قلوب الداخلين الجدد في الدين. وأدخل عمر ﷺ أيضًا تغييرات جوهرية في توزيع الغنائم واتخذ موقفًا ثابتًا بخصوص طبيعة الأرض التي يفتحها المسلمون, لأنه كان على وعي بأن ما اتخذه من إجراءات إنما كان الغرض منه هو تأكيد العدل لاختلاف الظرف.

وفي صدر الإسلام اعتاد الخليفة واعتاد ولاته كذلك أن يأخذوا الحكمة المتراكمة للأجيال في الاعتبار قبل اتخاذ أي قرار بشأن مسألة هم بصددها تتطلب النظر في الأحكام المستقرة - أو السنن كما يسمونها؛ حيث كان العدل هو اهتمامهم الأول وشغلهم الشاغل على أساس من هداية القرآن، فقد كان من الحكمة دائمًا الاستفادة من العقول البشرية لتقييم ما إذا كانت سنة بعينها أو معروفًا بعينه ما زال يحمل العدل. وهؤلاء الذين شُغلوا بهذا النشاط الفكري قد أُخِذ كلامهم بكثير من الاحترام, وكانوا يُسَمَّون بـ "أهل الرأي". لكن الإفادة من الحكمة المتراكمة شيء والبحث عن المشروعية شيء آخر, فحتى نهاية القرن الأول من الهجرة كان "أهل الرأي" من الرفعة بمكان؛ حيث كان هناك اعتراف اجتماعي بالثقة في آرائهم الفردية. لكن مع بداية القرن الثاني الهجري, وبسبب حالة التحزب التي امتدت حتى شملت جامعي الأحاديث فقد تغير المشهد الفكري بالتدريج؛ فلو كانت السنن يُنْظر إليها باعتبارها إفادة من الحكمة المتراكمة, فإنهم مالوا إلى الرأي بأن الحديث النبوي حتى وإن كانت سلسلة سنده مطعونًا فيها هو الفرصة الأفضل لإثراء فهمنا. وبنهاية القرن الثاني, كان لدعاة هذه الرؤية – وهم ما يُطلق عليهم "أهل الحديث" – اليد العليا, بل إنهم وسموا "أهل الرأي" بأنهم "أهل الهوى والبدع". وقد تَوَّجت جهود هذا الاتجاه الجديد الباحث عن المشروعية في الحديث النبوي في كل أمر من الأمور بإخراج عديد من كتب الأحاديث, وأبرز مثال لها هو "مسند أحمد", وهو مختصر يحوي أربعين ألف حديث. وقيل إن أبا حنيفة وهو واحد من أطول الناس باعًا بين أهل الرأي قد قَبِل سبعة عشر حديثًا فحسب, ومع ذلك شعر بأنه مضطر أن يُعْمِل عقله في المسائل التي هو بصددها.

إن الاتجاه الجديد في البحث عن المشروعية في غير القرآن وفي المادة التاريخية التي غربلها الإدراك الفردي للرواة كان له أثر مدمر على عقلية المسلم. ومن الخطأ

الزعم بأن مفتاح فهم القرآن يكمن في المادة التاريخية (أقوال الأثر) المحفوظة في عديد من المجلدات والتي لا يتحدث بشأنها إلا المتخصصون فحسب, لكن الذي حدث من جراء ذلك هو أن الرجل العادي قد استغلق فهمه للقرآن. وفيما بعد, فُرضت قيود أشد صرامة على أولئك الذين يرغبون في الحديث عن قضايا دينية؛ فبعضهم ادعى أنه يجب على من يتجرد للفتوى أن يحفظ على الأقل ثلاثمائة ألف حديث، بل إن بعضهم قال إنه يجب على من يعمل بالفتوى أن يحفظ كتاب "المبسوط". أما القرآن, فقد ساد الزعم بأن من يتناولون النص القرآني يجب أن يكونوا من أولئك النفر الذين لهم علم واسع بمدونات الحديث وبالسياق التاريخي وكذلك بالناسخ والمنسوخ. باختصار, انتهى الأمر إلى الاعتقاد بأن كتاب الله لم يُقصد به إلا الصفوة المتعلمة وحدهم, أو "الراسخون في العلم", ففي رسالته الشهيرة "الرسالة" وفي معرض حديثه عن تأييد الإجماع والأساس المنطقي له, حدا الأمر به [أي الإمام الشافعي] أن يدعي أنه بخلاف العلماء أو المتخصصين فإن الرجل العادي لا إلزام عليه أن يفهم مثل هذه القضايا.

إن القرآن كما أنزل على محمد متاح لنا حتى اليوم, لكن علماء المسلمين – وهم الكنيسة الخفية أو الفاتيكان غير المرئي – لا يسمحون لنا أن نتفاعل مع الوحي بطريقتنا؛ فنحن أحرار في التلاوة لكننا لسنا أحرارًا في التأويل. وبدلاً من الاعتماد الوحيد على النص الموحى به, فقد قيل لنا نحن المسلمين عبر قرون أن الشريعة الإسلامية تبنى على أربعة أصول: القرآن والحديث والإجماع والقياس. ونحن لا نرتكب خطأً عاديًّا بوضع الوحي على قدم المساواة مع المكونات التاريخية والأدوات المنطقية, فبينما الوحي يمكن أن يطمئننا إلى الوجهة التي نبتغيها فإن القياس العقلي – وهو ما يمكن أن نطلق عليه "الاستحسان" أو "الاستصلاح" أو "المصالح المرسلة" بناءً على مكوِّن تاريخي بعينه, يمكن أن يذهب بنا في اتجاهات متعارضة, ولا نعدم من الظرفاء من يدعي أن "الإجماع" هو حكم نهائي لكل الأزمان التالية وأن المسألة قد ختمت وإلى الأبد, بل منهم من يجرؤ على وضع "الإجماع" في مرتبة أعلى من الوحي؛ فهذا "ابن عَقِيل" الحنبلي يزعم أنه بالرغم من عصمة النص إلا أنه يمكن أن يُنسَخ بآية أخرى, ولكن هذا لا يسري على الإجماع على حد قوله, فبمجرد أن يكون

هناك إجماع لا يمكن أن يُلـغى. هذا النمط من التفكير القائل بأن هناك قضايا قد حدث إجماع بشأنها ولا يمكن أن تُطرح من جديد للمناقشة قد أقام حواجز في داخل عقلية المسلم, وطالما أنه من المفترض أننا نقرأ النص بطريقتنا نحن فإن المحصلة النهائية لفهمنا للقرآن يبقى هو ما فهمه القدماء منذ قرون مضت طبقًا للسياق الاجتماعي الخاص بهم. ولكونهم بشر فهم بالتأكيد قد أخطئوا, لكن علينا أن نتحمل عبء خطئهم على كاهلنا, فمما أصبح معلومًا أن أي خروج عن التفسير التقليدي للقرآن إن لم يكن مؤيدًا بقول من أقوال جهابذة الماضي فإنه يقع ضمن التفسير بالرأي ومن ثَمَّ لن يكون مقبولاً.

هل يمكننا أن نستجمع من الشجاعة ما يكفي لإعادة فتح كتاب الله ﷻ؟ إننا نعيش في مجتمع يعتقد بأن الجدل الديني قد انتهى وأغلق للأبد. إن بيننا أناس يعتقدون بإخلاص أن العقل البشري لم يعد قادرًا على استنباط الهداية من النص وأن فقهاء الماضي العظام قد حسموا القضايا جملة واحدة للأبد, بل إن بعضهم ذهب إلى أبعد من ذلك, ذهب إلى الاعتقاد بأن أي آية في القرآن لم يتناولها بالرأي جهابذة التفسير في الماضي فهي إما أن تكون متشابهة أو منسوخة كما يريد منا الفقيه الحنفي **"الكرخي"** أن نعتقد! لذلك فهناك فكرة خاطئة شاعت بين المسلمين تقول بأن ظهور المذاهب الفقهية الأربعة بين أهل السنة هو أمر إلهي؛ ومن ثم فلن يحدث لنا أن نتصور حياة إسلامية بدونهم. وبين جهابذة الماضي يراودنا إحساس غالب بأن فقههم كان استجابة للأوساط العباسية. وبالرغم من أن ذهننا تجاه مدونات الفقه يُعتبر صفحة بيضاء مقارنة بكتاب الله الذي يمكن أن يوصل لنا الكثير, فإننا مع ذلك نخشى من البداية الجديدة. إننا في الحقيقة نخشى من نجاح ثورة فكرية كبيرة لقراءة النص قراءة جديدة.

مرة أخرى نقول إن فتح كتاب الله سيكون حدث العصر, لأنه سيغير مجرى تاريخ الإنسانية. ولا شك أن فتح كتاب الله في غيبة الرسول له مخاطره, لكن هذا ما يريده الله ﷻ منا أن نفعله لأنه سبحانه لن يرسل رسولاً آخر. إن الكتاب وحده كافٍ في غيبة الرسول, لكن هناك أسئلة جوهرية يتعين التعامل معها عند إعادة فتح الكتاب, حيث من ستكون له السلطة الأوحد لتأويل كلام الله ﷻ: أهم صفوة المتدينين, أم العلماء, أم أعضاء مجامع الفقه, أم الهيئات العليا للعلماء التي تحظى برعاية الدولة أم وزراء

الأوقاف الإسلامية؟ ومن سيكون المتحدث الشرعي باسم الله ﷺ في الأرض؟ هل يمكن أن يُدْرَس القرآن في ضوئه هو وفي بيئة معاصرة أو أنه يُدْرَس فحسب في إطار نموذج فقهي معين؟ هذه الأسئلة تستحق الدرس بوجدان قبل أن نقوم بعملية إعادة فتح كتاب الله.

مضى أحد عشر قرنًا منذ أن ظهر على السطح مصطلح "مذهب" بهذا المعنى, تحديدًا منذ نهاية القرن الأول الهجري. إن مادة المصطلح مأخوذة من الفعل "ذهب, يذهب" والتي تتضمن معنى أن عالمًا من العلماء الذين لهم باع في العلم قد سلك هذا الطريق في رأيه, وكان الاصطلاح "مذهب" – والذي فرقنا اليوم شيعًا – يعبر عن المنهج العلمي المتبع فحسب, وقد كان كذلك. لكن لم يجُل بخاطرهم أنه في يوم من الأيام ستؤدي هذه الأداة الأكاديمية في التحليل إلى مثل هذا الانقسام الحاد بين جماعة المسلمين وأن الأجيال القادمة من المسلمين ستشعر بأنها مضطرة أن تتخذ لنفسها هوية من الهويات الفقهية. هل هناك كبت فقهي أكثر من أن يُضطر من لهم عقل سليم وقلب حساس أن يعرضوا فهمهم للنص مع فهم واحد من فقهاء الماضي وأن يلتجأ إلى واحد من المعسكرات الفقهية رغم حقيقة أن هذه الانقسامات الفقهية ما هي إلا نتاج تاريخي وليست أمرًا من عند الله ﷺ بأي حال من الأحوال. كان هناك العديد من المذاهب الفقهية وأصحابها ممن طوتهم صفحة التاريخ, أما المذاهب الأربعة أو الخمسة التي استمرت لاحتضان الدولة لهم فقد كانوا على خلاف اصطلاحي بين بعضهم بعضًا؛ فلم يتقرر حتى الآن من هم "أهل الهوى" ومن يستحقون لقب "أهل الحديث" أو من هم "أهل العدل" أو من يحق لهم أن يَدَّعوا أنهم "أهل السنة والجماعة".

من الزعم القول بأنه لا يُـتـَصور حياة للمسلمين بدون كبار الفقهاء, وما أظن أن هناك سفسطة تحت الشمس أشنع من ذلك, فهذه المغالطة قد جمدت عقول المسلمين لقرون. هل هم يقصدون تفاصيل الصلوات المفروضة أو من تجب عليه الزكاة أو المواقيت التي يبدأ الحاج منها رحلته والتي بينها الفقهاء تبيينـًا حقيقيًّا؟ الإجابة لا شيء من ذلك, فالحقيقة أن المرء في الحياة العملية لا يسير وراء فقيهه في كل التفاصيل شبرًا بشبر. لقد وجدت أن أحد الأحناف قد وصل بسنن الصلاة إلى أربعين سُـنـَّـة كما

ورد في المذهب الحنفي, وأن حنبليًّا وصل بها إلى حوالي ثمانية وستين سُنـَّة كما فعل فقهاء الحنابلة. إن كتب الفقه ما هي إلا مسارد للاختلافات في كل أمر من الأمور, بل لا يوجد فيها ما يمكن أن يدعيه الفقهاء أنه إجماع, لكن الاعتقاد الخاطئ بأن الفقه يُسَيِّر أمورنا الدينية هو ما جعلنا نعتمد اعتمادًا كليًّا على بشر مثلنا؛ فعندما يقترح علينا فقيه أو مفتٍ بأن نريق أربعين دلوًا من ماء لنطهر به بئرًا ألقيت فيها جيفة كلب نتنة أو عندما يخبرنا فقيه حنفي أن نغسل أحد طرفي الثوب الجاف الذي كان قد تبلل بالبول ثم جف ولا يُـعْـلم أي الطرفين قد ابتل بالبول, فإن الفقيه أو المفتي في هذه الحالة لا ينطق بالوحي الإلهي, فهو إما أن ينطلق من أقوال شيوخ مذهبه المدونة في كتبهم وإما أن يُـعْـمِـل عقله وهو أمر نادر الحدوث. إن عقله هو نفس العقل الذي وهبنا الله ﷻ إياه, فلا مجال إذن أن نعتمد على عقول بشرية أخرى مثلنا بدلاً من إعمال عقولنا؛ فلو أن المذهب الشافعي يمدنا بقائمة طويلة والحنفي يمدنا بقائمة قصيرة نسبيًّا عن نوعية اللحم الذي يحل للمرء أكله, فإن هذا يرجع إلى تفضيل شخصي متأثر بحقائق المكان المؤقتة ولا أصل إلهي لها بحال, فإن القرآن قد بَيَّـن الحلال والحرام, وأما ما سوى ذلك من أمور من مثل كيف تـذبُّ زنبورًا وقف على أنفك أو كيف تتعامل مع ذبابة ضئيلة لكن مزعجة فـمَرَدُّ ذلك إلى أنفسنا نتخير من المنهج ما يناسب ظروفنا.

إن إعادة فتح الكتاب الكريم فتحًا فعالاً لا يتطلب أقل من إنهاء موقف ما يشبه الموقف الكنسي في مجتمع المسلمين, فإن هذه الكنيسة غير المرئية – رغم مرور ما يقرب من أحد عشر عامًا – لم تفصح عن نفسها في أية مؤسسة قائمة بالفعل, إنها وراء كل مصطلح ديني يريد أن يقف في وجه هذا التحدي. إنها لا تتطلب أقل من "كاريزما" أو جاذبية الوحي الإلهي لتضع حدًّا لهذه المؤسسة المحسوسة بغموض والمنظمة بخفاء. إن أقصى ما يمكن أن نفعله هو أن نترك كلام الله يفصح عن نفسه, ويجب علينا أن نقنع كل عقل مفكر بيننا أن منهج فهم القرآن الذي طبقه القدماء كان مناسبًا لزمانهم, فقد كانت هذه هي طريقتهم في التأكد من أن العدل وفحوى القرآن قد وصلا للناس. وفي موقف مغاير, نطبق – وعن غفلة منا – نفس المنهج لكن ليس بغرض الوصول إلى نفس المستوى من العدل بل بما يمكن أن يؤدي في بعض

الأحيان إلى نتائج عكسية. إن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ حينما عطل حدًّا قرآنيًّا بقطع يد السارق كان يدرك أنه يطبق الإجراء الصحيح لتأكيد العدل وقت المجاعة. وبالمثل عندما نادى بعدم زواج المسلمين من نساء "أهل الكتاب" أو عندما نادى الفقهاء المتأخرون بعدم زواج المسلمين من نساء "أهل الكتاب" رغم موافقة القرآن الصريحة على ذلك فإنهم كانوا يؤكدون بطريقتهم على التجانس الاجتماعي الذي يسود فيه العدل والسلام. ويتحدث مؤرخونا عن الأحكام العُمَرية التي فرضها على "أهل الذمة" (غير المسلمين) حتى يلبسوا ثياب "الغيار", وهو كالمعطف الطويل, حتى يُعْرفوا من غيرهم, ولم يُسمح لهم بركوب الخيل أو شراء العقارات أو بناء الكنائس في بلاد المسلمين. وهذه الأحكام وإن كانت تناسب السياق الذي عاشوا فيه إلا أنها قد لا تُحْدث نفس التجانس الاجتماعي في عالمنا الذي تغير تغيرًا جذريًّا حيث تسود فيه قاعدة التعامل بالمثل على مستوى العلاقات الدبلوماسية.

ولنأخذ أمثلة أخرى على ذلك؛ بناءً على ما تشير إليه الآية:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ...﴾ (النساء 3)

فعندما يفضل الفقهاء تعميم هذا السياق المخصص للزواج بحد أقصى من أربع نسوة فمن المحتمل أنهم كانوا يفكرون في الوقت نفسه في مسألة أن إعطاء الفرصة الشرعية لأرامل الحرب يدور في فلك تحقيق العدالة الاجتماعية, لكن ربما لا يستمر هذا الموقف أبد الدهر, فإننا نصطدم في القرآن بآيات مثل:

﴿ ... وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ ...﴾ (المائدة 5)

إن مثل هذه الآيات وغيرها توضح أن الخلاص لا يتأتى من خلال أمة واحدة كما نجد في الآية:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ

بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ (البقرة 62)

إن المفسرين والفقهاء جعلونا نعتقد أن مثل هذه الآيات وأشباهها منسوخة. إنه من اللغو المحض أن نعتقد أن أية آية في القرآن لم تعد تهدي الناس وترشدهم أو أن تطبيق أية ما ستجلب سخط الله أو ستبلغ مبلغ الخطيئة. إن العيش في عالم يتضاءل تضاؤلاً متناهيًا وتتبخر فيه الحدود بين "دار الإسلام" و"دار الكفر" حتى أصبح من العسير على أية جماعة أن تعيش بمعزل عن الناس, فإن تكوين جبهة واحدة من الأمم المؤمنة انطلاقًا من المبدأ القرآني "كلمة سواء" قد أصبح أكثر إلحاحًا من ذي قبل. إن غض الطرف عن إقرار القرآن للعمل المشترك والإصرار بغير وعي على التأويل التقليدي للآية: "غير المغضوب عليهم ولا الضالين" أن المقصود هم اليهود النصارى على التوالي, فإن ذلك لن يحرز تقدمًا. باختصار, إن إعادة فتح الكتاب الكريم سيعني أننا من النضج بحيث نستطيع قراءة النص بأنفسنا وأننا نريد أن نأخذ اتجاهًا مخالفًا عن اتجاه السابقين لو نشأت الحاجة لذلك. لكن طالما أننا لا نريد أن نمتص هذه الصدمة النفسية فإن كل دعاوانا لإعادة فتح الكتاب الكريم لن تفعل شيئًا إلا أن تضع ختمًا فوق ختمه.

يمكن تحقيق المبادئ الإسلامية في العدالة، والمساواة، والحرية عندما يدرك كل إنسان – رجلاً كان أو امرأة – بشكل كامل وفعلي أنه لا توجد واسطة بين العبد وربه. ويجب على علماء الإسلام التوقف عن القيام بدور رجال الدين، كما أن المواقف الشبيهة بمواقف الكنيسة والتي تسللت خلسة إلى جسد نظام الحكم في الإسلام يجب أن تتوقف. إن القرآن يقدم النبي محمدًا ﷺ على أنه محرر العقل الإنساني من أغلال الأحبار؛ ولذلك يجب على المسلمين أن يتجنبوا جميع أشكال عبادة السلف. ولا ريب أن العقل المسلم الجديد الذي يعمل في إطار النموذج القرآني معرض لارتكاب الأخطاء، لكن تأكيد القرآن بشكل غير عادي على استخدام العقل لا يدع أمامنا خيارًا آخر.

العقل مقابل الإفتاء

تصوروا الموقف التالي من مواقف طلب الفتيا:

رجل يسال عن صورة غليان الحليب حتى يسيل من الإناء بحيث يخشى ضياعه، هل يجوز للمستفتي أن يزيحه فوراً من الموقد رغم ما يخشى في ذلك من احتراق اليد أو إلحاق ضرر بها، فاحتراق اليد عبارة عن ضرر بدني في النفس بينما ضياع الحليب يعد ضرراً مالياً، فأيهما أهون ويفضل تحمله في مثل هذه الحالة؟ وما الذي ترشدنا إليه القاعدة الفقهية المعروفة: أهون البليتين؟ وطبقاً للقواعد الفقهية المعروفة مثل ""لا ضرر ولا ضرار"" و ""المشقة تجلب التيسير""، وما شابهها من القواعد، ماذا يختار المستفتي: الضرر البدني أم الضرر المالي؟ هذه تساؤلات يحتاج الفقهاء فيها إلى مزيد من المعلومات لإصدارالفتوى الشرعية، منها: الوضع الاقتصادي للمستفتي؛ والكمية الحقيقية للحليب؛ ومدى التأثير السلبي لضياع الحليب على الوضع الاقتصادي للمستفتي، وهل هو يملك الحليب أم أنه مؤظف مؤتمن وتقع على عاتقه مسؤولية الحفاظ عليه؛ هذه التساؤلات وغيرها العديد يمكن أن تسهم في تحويل هذا الموقف إلى قضية تحتاج إلى استفتاء فقهي، ولكننا نرى بوجه عام أن المسلم العادي إنما يقوم بتحديد قدر الضرر المالي والبدني بصورة تلقائية في حياته العادية حسب ظروفه، ولا يشعر بضرورة الرجوع إلى الاسترشاد بعلماء الدين وأصحاب الفتيا، إذا يستطيع المرء بعقله الفطري أن يقرر تلقائياً التصرف المناسب في مثل هذا الوضع؛ حيث يمكن للعقل البشري وبشكل مدهش أن يقدر الموقف ويختار بناءً عليه بين

ضياع الحليب واحتراق اليد خاصة وأن الأمر لا يتعدى بضع ثوان، وإذا كان الأمر ذلك، وإذا كان الإنسان يتصرف في مواقف كهذه بطبيعته وفطرته التي أدوعها الله فيه فلماذا يشعر الإنسان بالحاجة إلى مراجعة أصحاب الفتوى وانتظار توجيهاتهم في مختلف الأمور، ولماذا يحس الإنسان بضرورة التوقف والاعتماد على عقول الآخرين دون الاكتفاء بما منحه الله من عقل؟ وللاستدراك على ذلك، ربما يقال إن مسألة تحمل أهون البليتين من ضياع الحليب أو احتراق اليد أمر دنيوي، أما في الأمور الدينية فلا يمكن الاستناد إلى العقل وملكة الفهم الإنساني وحدهما؛ وهذا خطأ ولا يشك في كونه خطأ حتى أهل الفتيا أنفسهم.

من المتفق عليه بين الجمهور أن الإسلام لا يفرق بين الدين والدنيا، ولكن رغم هذه الحقيقة نصادف بعضاً من أصحاب الفتيا يحملون جميع أقوالهم وآرائهم على العلوم الدينية، ويطالبون عموم المسلمين أن يقدسوا فتاواهم وآراءهم هذه؛ وبما أن الإسلام لم يفرق بين الدين والدنيا، فلا يجوز تصنيف العلوم إلى دينية وأخرى دنيوية، كما لا يجوز أن يدعى فريق من المسلمين بأنهم متخصصون في العلوم الدينية ومن حقهم أن يطالبوا المسلمين باتباعهم في كل ما يتعلق بالدين، وفي سياق التصور القرآني للحياة لا نجد أن القرآن الكريم قد استخدم كلمتي ""الدين"" و ""الدنيا"" كألفاظ متضادة، وإنما استخدمهما في سياق تكاملي الدلالة بحيث لا يكتمل أحدهما دون الآخر، فقد علمنا القرآن أن متاع الحياة الدنيا - رغم كونها فانية - هو وسيلة للفوز والفلاح في الآخرة، كما نجده قد أمر الإنسان بأن لا ينسى نصيبه من الدنيا، حيث قال: "ولا تنس نصيبك من الدنيا" (القصص:77)

وأهل الفتوى يعلمون أكثر مني ومنك أن لفظة الدين لم تستعمل في القرآن للدلالة على مجموعة من العبادات، بل الدين الحق عبارة عن الدلالة على عبودية عباد الله الكاملة بدون شروط، فمبدأ "ويكون الدين كله لله" القرآني يستنتج وضعا يساير وضع "كلمة الله هي العليا" القرآني نفسه، وقد تم توضيح هذه الحقيقة توضيحا كاملا أن المعرفة الإلهية للأمة المحمدية لا ترشدها إلى ديانة خاصة غير مسبوقة في التاريخ، وإنما هي الملة الإبراهيمية الحنيفة السمحة التي اتبعها الأنبياء السابقون ومن تبعهم بإحسان، فالمدلولات التي نتحدث في ضوئها على القضايا الدينية أو العلوم الشرعية

تخلو صفحات القرآن عن أي تعريف لها، القرآن يتوخى من الإنسان أن يلتمس الحلول لجميع مشاكله وقضاياه في ضوئه وفي ضوء السنة النبوية دون اللجوء إلى أي شيئ آخر، وبالعكس من ذلك إذا تم تفويض بعض المسائل إلى أهل الدنيا والبعض إلى أهل الدين فلاغرو أن يؤدى هذا التصنيف غير الطبيعي إلى فساد وفتنة تدع الحليم حيران.

السؤال الذي يطرح نفسه هنا: في حين لا يقر الإسلام بأي تفريق بين جوانب الدين والدنيا في حياة الإنسان، ويطالب الإنسان بأن يودع حياته كلها في عبادة الله وابتغاء مرضاته، فمن أين يسمح لطبقة علماء الدين بأن يعتبروا أنفسهم مهرة متخصصين في الأمور الدينية، ويرغبوا العامة بأن يتوجهوا إليهم لمعرفة الأمور الدينية؟ إن أهل الفتيا عامة يستدلون على دورهم الخاص في المجتمع بهذه الآية: "فسئلوا أهل الذكر"، ويستنتج منها فيما يبدو للناظر بأن القرآن الكريم يتوخى تأسيس طبقة من أهل الذكر وتأهيلهم للقيادة الدينية، ولكن حينما نقرأ الآية في سياقها الصحيح نفهم بوضوح كبير أن المراد من أهل الذكر هم علماء أهل الكتاب الذين يعرفون نزول الوحي في الأمم السالفة، والدعوة القرآنية ليست بغريبة عليهم، فالذين يختصون هذه الآية لرجال الدين ويستدلون بها على وجودهم شأنهم شأن اليهود "يحرفون الكلم عن مواضعه" :في عملية تحريف يقومون بها، وما أنزل الله بها من سلطان. ومما يستدلون به على هذه المكانة لعلماء الدين آية أخرى من سورة التوبة: "فلولا نفر من كل فرقة طائفة منهم ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم" اقرأ هذا الجزء من الآية الكاملة وفي سياقها الصحيح الذي وردت فيه يتضح لك أن المدلول هو عدم التزام المؤمنين جماعيا أن يخرجوا للجهاد، حيث تخلو المدن منهم قاطبة، بل يجب أن يشغل بعض منهم أنفسهم لفهم الشئون الاجتماعية حيث يمكنهم معاونة المسلمين على القيام بحياة اجتماعية بعدما يرجعون من الجهاد، كما يفهم البعض من هذه الآية أن يقوم فريق في أي قوم بفهم الدين الصحيح ولما يرجعوا بعد الحصول على المعارف الدينية إلى قومهم يعلموهم كيفية العمل والبقاء على التقوى ويجب أن لا يغيب عن أذهاننا أن الدين في القرآن الكريم لا يحدد من مدلوله ما يقتصر على شعائر العبادة أو العلوم الفقهية ومسائل الصلاة والصيام، بل المدلول الحقيقي الكامل هو

النظام الاجتماعي الإلهي الشامل، وما يتوجب للقيام بذلك النوع من النظام الشامل من تواجد خبراء الأمور الاجتماعية المطلعين على الهدف الأساسي للوحي، ولا يمكن التغاضي عن أهميتهم، أما زعم من يزعم أن الآية القرآنية إنما تخاطب طبقة رجال الدين في العصر الحالي فهذا لا يعد إلا استهزاء وسخرية بالآية القرآنية الشريفة، فإذا ليس المراد من الدين ما يتصوره رجال الدين فكيف يمكن أن يعتبر خبراء دين العلماء في مصداقية الآية الكريمة؟

نالت شهادة دكتوراه لاهوتية في أوساط الزوايا والدوائر المسيحية المتصوفة شهرة بالغة في العصور المتوسطة، وبالاستناد إلى توزيع مثل تلك الشهادات المليئة بالمصطلحات الفخمة كان رجال الكهنوت يريدون أن يقروا للعامة أن علماء المسيحية الذين وقفوا حياتهم كلها للزوايا والصوامع والكنائس إنما يحتلون مكانة عالية من بين عامة الناس، فيجب أن يعتبروهم حجة في العلوم الدينية، وقبل إصلاحيات مارتن لوثر وحتى في زمانه اكتظت الأوساط المسيحية بمباحثات حول أولوية الكنيسة أو الأناجيل؟ وهل يجب أن تفضل الكنيسة على الأناجيل دائما وعلى كل حال؟ أصر رجال الكنيسة على تقرير وتفويض حق تفسير الأناجيل وشرحه وفهمه إلى البابا ومن يصاحبه من رجال الكهنوت، أما التفسيرات التي تأتي من خارج هذه الطبقة للقديسيين والأحبار فلا يمكن أن تنال درجة الاعتبار من غير تأييد من البابا، مهما تنسمت الأولى بالاستدلال القوى من الأناجيل والرصانة الفكرية البالغة، وفكرة احتكارية التفسير الرهبانى عرفت لدى اليهود مثلما عرفت لدى المسيحيين، فهم يرون أن الربيين والحاخامات يجيدون تفسير التوراة أكثر مما كان أجاده سيدنا موسى عليه السلام، بل وعلماء اليهود يرون أن الله حينما أسند التوراة إلى عباده، فلا يجوز تفسيره وشرحه إلا من خلال تفاسير الأحبار والربيين والحاخامات.

على أن الإسلام استنكر احتكارية طبقة رجال الدين، ولكن ما حدث فعلا هو أن فكرة توزيع الشهادات الدينية من عالم و فاضل ومفتي ومحدث وقاض ومفسر وما إلى ذلك من الشهادات أدت بنا إلى التباس فكري من شأنه أن يخيل إلينا أن رجلا لم يختلف منا في شيئ غير أنه يحمل شهادة العالمية أو الفضيلة أو أنه يعرف الآن بالمفتي أو القاضي، وهو قد تمكن من الجلوس على مسند عال من القضاء والإفتاء

وأنه لايرد قوله، بل يستند إليه في جميع الأمور الدينية، ويعتبر جميع ما يتفوه به حقا لا يشوبه الباطل! وإذا نرى إلى تلك المقررات التي يدرسها هذا العالم "الرباني" في الأعوام الإثنى عشر من عمره في رحاب مدرسة دينية لا تعدو كتبا تصفحها، وهى تعد على الأصابع، فكيف يتحول بعد هذا التصفح للكتب التي لم يسبر حقائقها ولم يتشرب روحها إلى عالم يحتج بعلمه؟ قارن ذلك بالمقررات الدراسية في المدارس الحكومية والخاصة الحديثة وما أدخل فيها من تعديلات خلال النصف من القرن الماضي، والتي تبذل فيها من المجهودات لتثقيف الناشئ بما يتجدد من شئون الدنيا وتطورات العلوم، رغم ذلك كله ليس أحد منا من يتوقع من طالب استكمل الثانوية أن يبلغ من الرصانة الفكرية والرجاحة العقلية والخبرة ما يؤهله للتبوء على مسند يلجأ إليه أهل الدنيا ويستشيرونه في أمورهم، ويعملون حسب إرشاداته؟ بل بالعكس من ذلك يعتبر أنه بدأ الآن مسيرته العلمية، وسوف يصل إلى المرحلة الجامعية ويحتك بمجالس البحوث والتحقيق لكي يستطيع أن يتصف بالتبصر ووجهة نظر نقدية فاحصة، فهل من المعقول أن يعتبر خريجوا المدارس الدينية الثانوية وفترة دراستهم التي لا تعدو عشرة أعوام أو اثني عشرعاما أنهم بلغوا أوج الكمال في العلم والتحقيق، ونظن خاطئين أن من أمثال هؤلاء المتخرجين الثانويين مؤهلون لقيادتنا وجديرون بها، وأن آرائهم الآن بمثابة الحجة القاطعة في أمور الدين، الواقع أن مثل هذا التصور بمثابة ظلم على هؤلاء "الأبرياء".

كيف يجوز أن يتم إحلال متخرجين ثانويين محل القيادة وهم في مدارسهم الإسلامية لم يتصفحوا إلا كتبا تعد على الأصابع في مقررات تقليدية متجمدة عبر القرون تصدت أمام أدنى التعديلات؟ وإذا حدث ذلك فعلا فما يتوقع من مثل هذه القيادة؟ وقد صرح القرآن الكريم: هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون" ولكننا لا يسايرنا هذا الموقف القرآني العقلي في تصرفاتنا، ويشاهد بوجه عام في مجالس الفقهاء ورجال الإفتاء أنهم في تفهم القضايا الجديدة وشرحها والحكم عليها شرعيا يحصلون على خدمات خبراء ومتخصصين في الموضوع، ويتم كل ذلك شفويا، وبعد هذا الاطلاع الشفوي على ايجابيات وسلبيات الموضوع من المتخصص يقومون بإصدار فتاواهم مستخدمين فيها مصطلحات الحرام والحلال وما يجوز وما لا يجوز،

ومن أمثلة ذلك أن رجال الدين في استفتائهم بخصوص التلفاز وشبكة الانترنيت، هل يجوز أو لا يجوز من وجهة نظر دينية، قاموا بعقد مجلس للفقهاء والمجتهدين، ولأجل أن هؤلاء الفقهاء والمجتهدين في الشريعة لم يكونوا مطلعين على حقيقة تلك الآلات الحديثة وما لها من آثار إيجابية أوسلبية، فحصلوا على خدمة خبير متخصص في هذا المجال، وبعد الاستماع إلى معلومات أدلاها الخبير في الموضوع أراد علماء الدين أن يجمعوا على رأي، وكالعادة انقسموا إلى فريقين، فريق يقول بتحريم التلفاز والانترنيت وفريق آخر يذهب إلى تحليله، فمن قائل بأن ظهور الصور على شاشة التلفاز لا يجوزه الشرع طبقا لتحريم الصور في الإسلام، وآخر يستفيد من المدرسة الفقهية المالكية ويقول بتحليل صور التلفاز لكونها غير مظللة، أي لا ظل لها، فيذهب مذهب الجواز، وحينما سئل علماء الدين عن رأيهم في مكبر الصوت هل يجوز استخدامه في الأذان؟ حاولوا الاطلاع على حقيقة الصوت عبر مكبر الصوت، هل هو الصوت الحقيقي، أو أنه انعكاس لذلك الصوت؟ ولأجل أن هذه الآلات الفيزيائية كانت خارجة عن نطاق علمهم الديني اقتضت الضرورة أن يحصلوا على المعلومات من مدرس للعلوم المعروف ب"سيتا رام" في مدرسة ابتدائية قريبة، فأخبرهم أن ارتفاع الصوت من خلال مكبر الصوت يشابه الصدى في الوادي، فلأجل أن صوت مكبر الصوت كان من قبيل الصدى أو الانعكاس، ولا يجوز الاعتناء به لكونه انعكاسا للأصل، لا الأصل نفسه، ولكن بعد مضى الوقت لما وسع اطلاع علماء الدين العلمي ووصلوا إلى الخبراء في هذا المجال أدركوا أن هذه الآلة تمتلك إمكانية تضعيف الصوت أضعافا مضاعفة، ومن ثم نال مكبر الصوت قبولا عاما، وعندما سئل الشيخ أشرف على التهانوى في الهند عن الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم في الجراموفون، فأفتى با لكراهية في ذلك باعتباره من آلات الطرب، والآن وقد عم فينا استخدام أشرطة مسموعة ومرئية و الأسطوانات "سيديهات" منوعة لا يخطر على بالنا أن هذه السيديهات بمثابة محافل المطربين والمطربات التي تضج دائما بأصوات الطرب والغناء، وما يوجد من رأيين مختلفين بخصوص التلفاز لدى علماء الدين سببه الرئيسي أن المسألة لم تتحدد ملامحها الرئيسية أمامهم حتى الآن، هل الصور المعروضة على شاشة التلفاز أصلية أو أنها انعكاس لها، فبعض العلماء يقولون بحلته باعتبار أن المتكلم تنعكس صورته عبر النشرة المباشرة مثل الصورة المباشرة في

المرآة، ويغيب هذا الانعكاس تلقائيا عندما ينسحب المتكلم من واجهة الكاميرا، ويرى البعض بأنه يمكن إعادة نشرها ومعنى ذلك أنه يمكن فيه حفظ الصور وتخزينها، وهذا مما لا تجوزه الشريعة، ومن علماء المدرسة الفقهية الحنفية من يتخذون موقفا متشددا من حرمة الصور، ولكنهم يستحلون بل يفضلون استخدام التلفاز لنشر الدعوة الإسلامية، بينما نصادف منهم من يتحمس لضرورة تأسيس محطات تلفازية مخصصة لنشر رسالة الإسلام في العصر الحالي، ولكن رغم كل هذه الآراء "الشرعية" يصعب لعامة المسلمين أن يعرفوا الحكم الحقيقي في الشريعة الربانية عن هذه الآلات الحديثة، فهنا من يعدد منافعها، وهنا من يقول: "إثمهما أكبر من نفعهما"!

ومما يبعث على الحيرة أن الذين لا يملكون كفاءات لتفهم الدقائق التقنية للآلات الحديثة، كيف يجترئون على الإدلاء برأي حتمي ظانين أنفسهم أرباب الفتيا، ويرجون من العامة أن يتبعوهم؟ عقد في الأيام الماضية أول مؤتمر علمي دولي في مدينة بندقية (فينس) السياحية في ايطاليا، وكان الموضوع: مستقبل العلوم التطبيقية والخوض في أبعادها المختلفة، و استدعي كاتب هذه الأسطر للمشاركة فيها، وتناولت الأبحاث المقدمة فيها أبعاد الخلية النسبية (Stem Cell) وجملة التحقيقات العلمية التي تمت في هذا المجال، وكل ذلك في جو مفعم بالتحمس، ونوقش فيه ما يوجد لدى الأوساط الدينية من تحفظات بخصوص الاستنساخ، وذكر فيها ما افتت به أوساط إسلامية شهيرة من أمثال مجمع الفقه الإسلامي (جدة) و جامعة الأزهر، وقد اشتكى أهل العلوم التطبيقية بوجه عام أن ما ورد من آراء في الموضوع من الأوساط الدينية يتضح من دراستها أن هؤلاء الأفاضل لا يعرفون في الواقع مغزى المسألة تماما، والحقيقة أن ما ظهر من مباحثات في هذا الموضوع في أجهزة الإعلام العالمية يشوبه عنصر الدعاية، وبعض الباحثين يحاولون أن يقرروا في لغة الدعاية أن الأيام المقبلة تشهد تطور السلسلة الجينية (DNA) تطورا يحتل رئاسة العلوم التطبيقية، ويتم استخدامها لما يشبه خوارق للعادة في مجالات الصحة والأمن، أما مسألة الاستنساخ واعتبارها تدخلا إنسانيا في الخلق الإلهي فللاطلاع على حقيقتها وما لها وما عليها يجب أن يتسنم بنظرة متخصصة، وبدونها يبقى الكلام فيها مجرد كلام يشبه القصة العلمية.

أما هذا التصور أن بعض البحوث الإنسانية عبارة عن التدخل في الخلق الالهى، وأن ذلك محاولة للتبوء على منصب اللاهوت فهو في الواقع لا يعدو مغالطة، فالكون كما خلقه الله يحمل في طيه من الأسرار والرموز مايفوق الحصر، ومسيرة الإنسان الحضارية من أول يومها عبارة عن كشف تلك الأسرار والرموز وتسخير القوات المستترة في الطبيعة، والله جل وعلا يريد من الإنسان أن يسخر هذا الكون، فنزول الماء من السماء واختصاب الأرض به بألوان من الزروع عمل طبيعي يحير العقول ويجعل الإنسان يخشى الله عز وجل بالتدبر والتفكر فيه، والله يحب أن يواصل عباده الذين حملوا العلم عملية تسخير الكون، فهم الذين يمكن أن نسميهم بالعلماء في القرآن: "إنما يخشى الله من عباده العلماء"، وبالعكس من ذلك إذا اكتفينا بعقد جلسات لإصدار الفتاوى بشأن هذه الأمم التي تقوم بعملية تسخير الكون، أو تقرير ما يجوز استخدامه من منتوجاته ومخترعاته وما لا يجوز، فهذه العقلية دوما تجعلنا نمسك بأذيال هذه الأمم ونحاول اللحاق بها، ولا نلعب دورا قياديا في هذه الدنيا، فكيف هذا العلم الشرعي الذي يجعل حملته يتابعون أصحاب الاكتشافات العلمية من غير أن يؤهلهم علمهم لقيادة العالم، والذين اقتصرت مهمتهم على مجرد إصدار الفتاوى بخصوص الآلات الحديثة في سياق فقهي مقيد تحليلا وتحريما ؟

فالذين يخطئون في ظنهم أن طبقة علماء الدين هذه هي طبقة ورثة علوم النبوة، كيف يمكنهم أن يتغاضوا هذه الحقيقة أن مسئولية قيادة المسيرة الإنسانية بدأ من البعثة المحمدية إلى نهاية مطاف التاريخ ملقاة على كواهل أتباع النبي صلى الله عليه وسلم، فالقسمة الظالمة للثروة و احتكار الوسائل المادية في أيد خاصة و سلطة الرأسماليين في العالم، كل هذا يشكل ظواهر بشعة لن يتحملها أتباع خاتم النبيين، أضف إلى ذلك ما يتمخض التلوث البيئي والتغيير المفاجئي في الطقس و الاستهلاك الاعمى للموارد الطبيعية إنها تثير قضايا هامة، فمن يداويها غير حملة الرسالة المحمدية؟ وماذا يكون البديل للوقود التقليدي (البترول) في المستقبل؟ وهل يمكن تقليل التلوث البيئي من خلال الوقود الهائدروجيني؟ هذا وما أشبهه من تساؤلات توجه نفسها إلى حملة الوحي السماوي الأخير أتباع محمد صلى الله عليه وسلم.

يدهشنا أن من فوضت إليهم قيادة الأمم في هذا العالم والذين كان المرجو منهم أن يقودوا في مجالات الاكتشافات والمنتوجات والمخترعات من خلال التفكير في آيات الله في هذا الكون، وقعوا فريسة لتعريف وتفسير محرف للعلم حتى ابتعدوا عن التفكير في آيات الله رغم كونه من الواجبات الدينية لديهم ، فابتعادا من التعريف القرآني للعالم قادتهم ثنوية التصنيف العلمي بين ديني وغير ديني إلى عالم من الانحطاط الفكري اقتصرت فيه وظيفتهم على الكلام في المصطلحات الشرعية وغير الشرعية مثل أحبار اليهود، رغم أن الله قد أوضح في كتابه ما أحله لعباده وما حرم عليهم بتفصيل قائلا: "منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة" أما الراسخون في العلم فكان يتوقع منهم أن يجتنبوا من والنقاش والجدال وإدلاء الآراء، ويقولوا " آمنا، ولكن هيهات! هل يمكن أن يطمئن العقل على أن من يحتاجون إلى محاضرات الخبراء للاطلاع على حقيقة الآلات الحديثة، والذين يجادلون حتى الآن على موضوع الصور في كونها أصلا أو عكسا على شاشة التلفاز، يسند إليهم حق الحكم في المسألة، ولا يعتبر بكلام الخبراء الذين اطلعوا حقا على تلك الآلات وعرفوا حقيقتها!

إن الحرم المكي, وهو ملتقى الوحدة الإسلامية, كان يشهد على مدار خمسة قرون أربع صلوات في وقت واحد طبقًا للمذاهب الأربعة, وما عادت وحدة الصلاة في الحرم المكي إلا في وقت متأخر على أيدي قبائل البدو في نجد تحت حكم القيادة السياسية للملك عبد العزيز, مؤسس المملكة العربية السعودية المعاصرة. إذا كانت القبائل البدوية في نجد قد استطاعت بإرادة سياسية خالصة أن تستأصل الانحراف الذي ظهر على مدار قرون مضت، فلماذا يعجز المصلحون المعاصرون في وضع نهاية لشتاتنا الفقهي الذي امتد على مدار قرون مضت؟

الإسلام في مقابل أيديولوجية الأسلمة

في أوج أيام عزة الإسلام حينما كان رسول الله الخاتم ﷺ يعيش بيننا, لم يخطر ببال أحد أن يدعي أنه إسلامي, لكن كانت قمة الخضوع والتذلل وأعلى درجات السُّلم الروحي الذي يمكن أن يرتقيه الإنسان هو أن يكون مسلمًا. إن نبي الله إبراهيم – وهو نموذج لكل الأجيال المسلمة القادمة – قد أُعْطِي لقب "أبي الأنبياء" فحسب, ثم كان الإسلام اتجاهًا أكثر منه هوية.

إننا اليوم نعيش عصر أيديولوجية الأسلمة, حيث يوجد بيننا من المسلمين من يفتخرون بأن يُدعوا إسلاميين. إن ظهور هذه الطائفة الجديدة بين المسلمين يمكن أن يُعتبر ظاهرة من ظواهر القرن العشرين, وإن وجدت لها جذور في الاتجاه المتعالي للعقلية الفقهية في الماضي. وفي مقابل الإسلام, ظهرت أيديولوجية الأسلمة كدين الله العالمي لكل الأزمان كرد فعل من مسلمي القرن العشرين على الإمبريالية الجديدة؛ فبينما يمثل الإسلام بوابة مفتوحة لكل من يبحثون عن العزاء والسلوى, يُنظر إلى أيديولوجية الأسلمة بصفة عامة على أنها أيديولوجية يمكن أن تعيد بناء الهيمنة الإسلامية. وتقتصر جاذبية أيديولوجية الأسلمة على المسلمين, بينما تستقبلها بقية شعوب العالم على أنها تهديد, وبينما مازالت أيديولوجية الأسلمة تـُعْتبر سلاحًا قويًّا

في أيدي المسلمين مازالت هناك حقيقة قائمة تقول إنها لم تقدم للمسلمين سوى نذر يسير.

ومما لا شك فيه أن أيديولوجية الأسلمة ـ كحركة قومية ـ قد لعبت دورًا مهمًّا في الماضي ولا تزال تعطي زخمًا لحركات الكفاح التحرري في الشيشان وأفغانستان والعراق على سبيل المثال, لكن إذا نظرنا إليها على أنها حركات قائمة على التعاليم النبوية فسيجافينا الصواب؛ فالإسلام وأيديولوجية الأسلمة وإن كانا يبدوان متشابكين في بعض الأحيان إلا أن جوهر كل منهما يختلف عن الآخر؛ فكلاهما له أيديولوجية تختلف عن الآخر اختلافًا بيِّنًا. وبإيجاز شديد, إن أيديولوجية الأسلمة هي أيديولوجية قومية نمت بين المسلمين, وهي في أحسن أحوالها تخاطب المسلمين وحدهم وتشترك في قليل مع الإسلام المستمد من التعاليم النبوية والذي يضمن مستقبلاً أفضل للإنسانية جمعاء سواء في الحياة الدنيا أو في الآخرة.

وقد ألقت اليوم صدى النغمة القومية لأيديولوجية الأسلمة بظلالها على الشكل الحقيقي للإسلام. ففي هذه الحقبة من التاريخ التي تنظر وسائل الإعلام العالمية فيها إلى الإسلام على أنه شيطان وإلى كل مسلم على أنه إرهابي محتمل فليس من اليسير أن نعزل أنفسنا عن الصدام الحضاري القائم, ولا يحتاج الأمر أقل من واحد في قدر نبي حتى يشكلنا بالطريقة التي تجعلنا أوصياء على رسالة الخلاص للناس كافة. إن القومية الإسلامية أو أيديولوجية الأسلمة كما نسميها لا يمكنها أن تفعل شيئًا أكثر من إضافة مزيد من الوقود إلى النار. والراجح أنه قد حان الوقت لنمعن النظر في أيديولوجية الأسلمة, فلا يمكننا أن نتجاهل حقيقة أن أيديولوجية الأسلمة قد خلقت سيناريو كئيبًا في الدول ذات الأغلبية المسلمة مثل الجزائر وتونس ومصر والتي أعطى الإسلاميون فيها أنفسهم – دون غيرهم – الحق في تأويل أوامر الله, وقام الإسلاميون بشن حرب على بلدهم. إن إراقة الدماء على نحو يقصد من ورائه إحداث تغيير سياسي قد شكك إلى حد بعيد، ليس في طريقة أدائهم فحسب، ولكن في طبيعة أيديولوجيتهم الإسلامية كذلك. ففي أثناء الحملة الانتخابية الجزائرية عام 1991 لقد ادعى علي بلحاج الحق الوحيد في تأويل الإسلام وتطبيقه وذلك في الانتخابات التشريعية ـ التي كان متوقَّعًا أن يفوز فيها – "وهي آخر انتخابات تشهدها

الجزائر". هذا الزهو بالنفس الذي يصبغ الإسلاميين المعاصرين, وإن بَدَوا على خلاف ذلك أنهم ديموقراطيون, له جذوره في أوساط الفقهاء في الماضي, وهي نقطة سأعود إليها فيما بعد.

إن ظهور طائفة متدينة بين المسلمين ليس ظاهرة يُلام عليها من يُوصَفون بأنهم إسلاميين, فنظام الحكم الطالباني في أفغانستان قد شهد إحياءً لكثير من المصطلحات الدينية التي كانت تستخدم في صدر الإسلام وكان الملا عمر يفضل أن يدعو نفسه "أمير المؤمنين", وهناك أيضًا كان المسلمون يُحْملون على الاعتقاد بأن الفقه الحنفي – كما يتراءى لطائفة الدوبند - هو الشكل الحقيقي للإسلام. وقد خلق هذا الجو للعلماء والمسلمين الذين ينتمون لمذاهب فقهية أخرى غير الدوبند وضعًا خانقـًا، ولطالما نادوا بسقوط النظام. إن فشل الإسلاميين المعاصرين في تأسيس نظام إسلامي سياسي يكمن في نظرتنا الفقهية المنقسمة تجاه الإسلام. وبالرغم من أن الإسلاميين قد بذلوا جهدهم في تقريب الفوارق الفقهية بين المسلمين إلا أنهم لم يدركوا أنهم بتكوينهم تنظيمات كثيرة في الكيان السياسي للإسلام قد مهدوا الطريق لمزيد من التفسخ للإسلام ذاته؛ ففي مصر وحدها على سبيل المثال, أدى انشقاق كثير من الأفراد عن الإخوان المسلمين على مدار سنين عدة إلى تكوين شراذم عديدة من الجماعات حتى أضحى الموقف فوضويًّا بحيث إن بعض هذه الشراذم من الجماعات اتهمت إخوانها من الإسلاميين بالخيانة حتى وصل الأمر إلى إهدار دمهم.

هذا, وإن بدا الإسلام والغرب اليوم على خَـطَّي تصادم إلا أن التهديد الحقيقي للإسلام والمسلمين يأتي من الداخل, فبلوى الاحتلال الأمريكي لأفغانستان والعراق ليست هينة لكن الأكثر إزعاجًا هو حقيقة أن أوصياء رسالة الله الخاتمة عاجزون حتى عن ترتيب بيتهم من الداخل وإن كان لا يُعْجزهم إنقاذ العالم من المكائد الإمبريالية. ومع ذلك لا ننكر أن تحالف الشمال في أفغانستان قد لعب دورًا محوريًّا في سقوط نظام طالبان وكذلك لولا الانقسام الشيعي السني في العراق لما وجدت قوات الاحتلال سهولة في تمديد بقائها هناك. إن أساس المشكلة يكمن في داخلنا, إنه التقسيم الفقهي العميق للأمة الذي جعل من المستحيل بالنسبة لنا أن نكوِّن جبهة متحدة في وجه أي

اعتداء خارجي, فعلى مدار تاريخنا الممتد لأربعة عشر قرنًا ما استطاع أحد أن يهزمنا إلا نحن!

إن أزمتنا كأمة إسلامية هي أزمة مزدوجة؛ فالخصومات الداخلية قد أغرت الأمم الأجنبية بأن يُخضعونا ويحتلوا أراضينا, لكن ما يقُضُّ مضاجعنا هو أن الموقف يبدو لا بُرْء منه, فإننا جميعًا على غير وعي بهذا المرض الذي أصابنا. وبخصوص حقيقة أن انقسامنا الفقهي غير جديد وأن أحدًا من الماضي لم يستطع أن يستجمع شجاعة في استئصال هذا الخلاف, فإن كثيرين منا يعتقدون أن العودة إلى صفاء الإسلام وتحاشي المذاهب الفقهية ربما يكون أمرًا معياريًّا لكن غير ذي جدوى. في الحقيقة, إننا تعايشنا مع المذاهب الفقهية الأربعة المتنازعة عبر قرون مضت وقبلناها عبر تلك السنوات كأصوات شرعية معبرة عن الإسلام لدرجة أن أي رجوع عن منهجها يبدو لنا كأنه هدم للإسلام ذاته.

لقد قام النبي الخاتم محمد ﷺ بتجديد الإسلام – الذي هو دين أبي الأنبياء إبراهيم ﷺ - في الذاكرة البشرية لكل الأجيال القادمة, وقد وُضِّح ذلك الأمر وحفظ كوثيقة في القرآن وأخذ شكلاً معياريًّا أثناء حياة النبي ﷺ. إن ظهور الفقهاء والمُحَدّثين في القرون التالية كان نتيجة طبيعية لتأكيد النبي ﷺ ورفعه لشأن العلم, لكن لا يمكن اعتبارهم أركانـًا مؤسسة للإسلام ولا أن تأويلهم للدين يمكن أن يملك مفاتيح كل العصور التالية, وما كان لأئمة الفقه الأربعة - الذين ننظر إليهم اليوم على أنهم حقائق مسلمة – أن يصلوا إلينا لو لم ترعَ الدولة مذاهبهم الأربعة المتنازعة على عهد السلطان بيبرس الملقب بالملك الظاهر (1260-1277م), لقد كان القرار سياسيًّا من الدرجة الأولى لسحق الاضطراب الاجتماعي الذي مزق مصر وأدى في النهاية إلى انقسام دائم للأمة. إن الحرم المكي, وهو ملتقى الوحدة الإسلامية, كان يشهد على مدار خمسة قرون أربع صلوات في وقت واحد طبقًا للمذاهب الأربعة, وما عادت وحدة الصلاة في الحرم المكي إلا في وقت متأخر على أيدي قبائل البدو في نجد تحت حكم القيادة السياسية للملك عبد العزيز, مؤسس المملكة العربية السعودية المعاصرة. إن الانقسام الفقهي العميق للأمة, والذي نعتبره اليوم مُسَلـَّمة ليس جزءًا لا يتجزأ من الإسلام الموافق للتعاليم النبوية, إنه يحتاج إلى إرادة فكرية وسياسية حتى توضع

الأمور في نصابها الصحيح وللأبد. تخيلوا أنه على مدار ما يقرب من خمسة قرون عندما كان يتعين على المسلمين أن ينقسموا في الصلاة في الحرم المكي لم يكن العلماء الواعون بيننا من الندرة بحيث استشعروا أن العقلية الفقهية قد مزقتنا شر ممزق. حقًّا لم تكن لديهم الشجاعة الفكرية ولا الإرادة السياسية التي كانت للحركة السلفية في مطلع القرن العشرين في الجزيرة العربية. إذا كانت القبائل البدوية في نجد قد استطاعت بإرادة سياسية خالصة أن تستأصل الانحراف الذي ظهر على مدار قرون مضت، فلماذا يعجز المصلحون المعاصرون في وضع نهاية لشتاتنا الفقهي الذي امتد على مدار قرون مضت؟ روى "ولي الله الدهلوي" في رسالته المسماة "الأسباب في بيان الاختلاف" طرفًا مثيرًا في هذه الحلقة:

> (يقول أبو زرعة) سألت أستاذي الشيخ البلقيني ذات يوم ما الذي أوقف الشيخ تقي الدين السبكي عن فهم الاجتهاد... كان في البداية غير راغب في الإجابة, وعند ذلك قلت إنه طبقًا لما أعلم فإن ذلك كان راجعًا للمناصب السياسية التي كان يتقلدها الفقهاء من المذاهب الأربعة, ولو تجرأ أي شخص أن يذهب لما وراء حدود "التقليد" فلن يظفر بشيء, بل إنه سيُحْرم من أي منصب في المحكمة. إن عامة الناس لا يقتربون منه طبقًا لأوامر سامية ووسموه "بالمبتدع". (قال أبو زرعة) إن الإمام البلقيني عند سماعه ذلك ابتسم واتفق معي في الرأي.

طالما بقي مفكرونا وعلماؤنا راضين مبتسمين عن شتاتنا الفكري فإن الأمل في الإصلاح يبقى ضئيلاً.

ويجب أن يدرك مفكرو المسلمين أن الله قد أنزل القرآن على خاتم الأنبياء ﷺ، وهو ما لا يخضع لتفسيرات الفقهاء الأربعة، كذلك فإن الفقهاء المتقدمين بشر مثلنا، وهم عرضة للخطأ، ونحن غير ملزمين بتحمل تبعة الأخطاء التي ارتكبوها على أكتافنا الضعيفة، حيث يكفي ما ارتكبناه من أخطاء الحذف والإضافة.

إعادة اكتشاف المستقبل

(مقابلة الدكتور راشد شاز مع البروفيسور يوجندر سيكاند)

راشد شاز هو عالم مسلم شهير يقيم في "نيو دلهي" وله العديد من المؤلفات، كما يتولى تحرير مجلة إسلامية على الإنترنت عنوانها: (www.futureislam.com). وفي مقابلته مع يوجندر سيكاند (Yoginder Sikand) يتحدث راشد شاز عن أعماله، لاسيما آرائه عن الجدل الدائر عن الإسلام والمسلمين.

(مجلة قلندر على الانترنت)

س: في كتابكم الأخير "الإسلام؛ محاورة المستقبل" (Islam: Negotiating the Future) أثرتم عددًا من القضايا الجديدة التي كانت غائبة عن كتاباتكم السابقة, بما في ذلك نقد بعض جوانب التفكير التقليدي عند المسلمين والحاجة إلى التكافل بين المجتمعات, كيف توضحون هذا التحول؟

ج: لن أسميه تحولاً, إنه أشبه ما يكون بتوسع أو تطوير في تفكيري القائم على التفكير في السبيل الذي يسلكه العالم الآن, فإن الأحداث الحالية قد أجبرتني على إدراك أننا يجب أن نتوقف عن القلق بشأن الخير الذي يمكن أن يعم مجتمعاتنا وحدنا, والتي تقود حتمًا إلى كثير من العداء والصراع. وبدلاً من ذلك, يتعين علينا أن نبدأ التفكير من منطلق الخير لكل الإنسانية, وهذا تحديدًا ما لا يقوم به غالبية المسلمين والهندوس والمسيحيين وغيرهم. إن الدين قد تضاءل بالنسبة للكثيرين منا إلى ما يشبه عبادة فرد بعينه وإلى مشروع يُعنى بمجتمع معين من المجتمعات بدلاً من أن يكون لخير الإنسانية جمعاء.

وهذا, كما قلت أمر واقع بين المسلمين وغيرهم من المجتمعات, فالمسلمون يخلطون خلطًا شنيعًا بين مضمون الإسلام ورسالته. هذا الإدراك بدأ يتضح لي عندما كنت محررًا لمجلة "عليكره جامعية" (Aligarh Magazine) وزرت باكستان في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي وقابلت قادة مختلف فصائل الجهاد الذين نشطوا في باكستان ضد المحتلين الروس. لقد حدثوني بمنتهى الحماس عن الإسلام, لكن بمجرد أن تم طرد الروس أعلنوا الحرب على أنفسهم. لقد أجبروا الإمبراطورية السوفيتية على الركوع لكنهم فشلوا في تأسيس نظام يقيم العدل الذي يتحدث عنه الإسلام والذي يدعون أنهم يتنافسون فيه. الشيء نفسه حدث مع نظام طالبان, أو على سبيل المثال في الصراع الطائفي في باكستان بين الجماعات الشيعية والسنية وبين الجماعات السنية بضعهم بعضًا. إن الطوائف المختلفة تفشل في تحمل خلافاتها أو في التحاور فيما بينها دون التردي في جدل ديني شرس. كيف تفكر في الوحدة والخير للإنسانية التي يتحدث عنها القرآن, والتي قام بها أتباع محمد ﷺ إذا كنت لا تستطيع أن تفهم الآخرين دون أن تصنفهم على أنهم أعداء؟

حينما أفكر في هذا الأمر ينتابني شعور بأن واحدًا من أبرز أسباب هذا المرض يكمن في بعض القضايا الفكرية وبعض الأخطاء في طريقة تفكيرنا وفي فهم الإسلام الذي لو سُمِح له أن يمر دون مناقشة فلن يثبت فاجعة المسلمين أنفسهم ولكن سيؤثر تأثيرًا كبيرًا فما أعتقده هو أنه مهمة الإسلام في نشر العدالة بين كل البشر وكذلك عالمية رسالة القرآن.

س: ماذا تعني بذلك بالضبط؟

ج: إن القرآن وما صح من أحاديث نبوية تمثل للمسلمين المصادر الوحيدة الموثوق بها لفهم الدين, وهذا يُعد كافيًا بالنسبة لمشروع عن العدل العالمي الذي يتحدث عنه الإسلام. ولكن, بدلاً من الاعتماد على هذه المصادر, فإن غالبية المسلمين قد اعتمدوا على مر العصور على مادة التفسير التي هي نتاج بشري وكذلك على كتب مختلف الأئمة والعلماء الذين اعتبرهم المسلمون الكلمة الأخيرة في الدين.

وبدلاً من تمحيص هذه المادة في ضوء القرآن, فإنهم دأبوا على فعل العكس. وبسبب ذلك, فإن رسالة القرآن للعالمين قد غابت في تفكير عموم المسلمين.

قطعًا على المرء أن يحترم الكبار وعلماء الماضي وأمانتهم, لكنهم أيضًا كانوا بشرًا يمكن أن يقع منهم الخطأ وليسوا منزهين عن الخطأ أو مكللين بالكمال؛ فقد انطبعت آراؤهم – التي كانت نتاج عصرهم كما يظهر ذلك من كتبهم – بالظروف المكانية المؤقتة التي عاشوا فيها, ومن ثم لا يمكن أخذ آرائهم على أنها الكلمة الأخيرة في أي موضوع. وبالرغم من أن القرآن قد عارض أية فكرة عن الوساطة بين الله ﷻ والبشر, فإن هذا بالضبط ما يقوم به كثير من المسلمين تجاه هؤلاء الأئمة والعلماء الذين عاشوا في الماضي. ولهذا السبب, كما قلت, فإن رسالة الإسلام العالمية قد انزوت في الظل, وتضاءل الإسلام عند كثير من المسلمين إلى أقل مما يشبه عبادة النبي محمد ﷺ كما بينت ذلك في آخر كتاب لي. وهذه الطريقة في تناول الإسلام تحجب المسلمين عن إدراك الأمر القرآني بنشر العدل والرحمة في العالم.

س: هل يمكنكم أن توضحوا في أية نقطة بالضبط؟

ج: حسنًا, ما أقصده كما يقرر القرآن والإسلام هو أن "الإسلام" (بمعنى التسليم والخضوع) هو الدين الذي نزل به جميع الأنبياء من لدن آدم ﷺ إلى محمدﷺ. والقرآن يشدد في هذه المسألة بالتحديد على أن لا نفرق بين أحد من الأنبياء وأن نتعامل معهم على حد سواء. لكن ما حدث هو أن كل مجتمع رأى كل نبي يخصه في مرتبة أعلى من غيره من الأنبياء سواء بدافع إنساني أو بدافع الهوية أو لأسباب سياسية أو اقتصادية؛ فنرى لذلك عبادة المسيح ﷺ بين المسيحيين وعبادة موسى ﷺ بين اليهود, إضافة إلى ما أسميته في آخر كتاب لي عبادة محمد ﷺ بين كثير من المسلمين, وبذلك تكون الرسالة العالمية للدين قد تم تدميرها في خفاء.

وفي حالة المسلمين, نجد أن حكايات قد بدأت تنتشر بعد وفاة النبي ﷺ تقول بأنه أفضل الأنبياء أو – كما يقول الصوفية – إن العالم قد خـُلِق من نوره (النور المحمدي) وهكذا, بل هناك من القصص المشابهة التي اختـُلِقت واعتبرت أحاديث أو روايات منسوبة إلى النبي ﷺ نفسه. وبهذه الطريقة انزوت في الظل النقطة التي

أبرزها القرآن وهي أن النبي محمد ﷺ قد أُرْسِل لإحياء دين إبراهيم ﷺ ونشره – وهو التوحيد الحق, وبالتالي فإن عالمية القرآن قد استـُبْـدلت بمحلية المسلمين. لقد تضاءل الإسلام كمشروع عالمي إلى مشروع محلي لمجتمع المسلمين في عقول كثير من المسلمين, وهذا نوع من "الطالبانية" أو ما يُطلق عليه في العربية "العصبيات" التي شدد القرآن في النهي عنها.

إنني لا أؤيد موقف "أهل القرآن" الذين يعتقدون أن الحديث النبوي مشكوك فيه برمته, لكنني أحتاط من تحليل مرويات تنسب إلى الأحاديث؛ لأن كثيرًا من هذه الروايات مختلق بيّن الاختلاق وتتعارض مع مقاصد القرآن. فمثل هذه الروايات تشير بالسلب إلى الناس الذين يؤمنون بأديان أخرى أو إلى النساء – على سبيل المثال – وقد استخدمت لتبرير سيادة النظام الأبوي والعداء للآخرين. إن أية رواية يتم اعتبارها حديثًا صحيحًا لا بد أولاً أن يُنـْظر إليها في ضوء القرآن وروحه الداعية إلى العدل وعالمية الدين, فإذا ما تعارضت الرواية مع هذه المبادئ فلا يجب أن يقال حينئذ إنها صحيحة. لكن للأسف هذا لا يحدث, فمن وجهة النظر الإسلامية فإن الكمال وحده للقرآن وأن كل النصوص الأخرى ما هي إلا تاريخ وليست جزءًا جوهريًا من الدين, من ثم لا يجب اعتبارها وحيًا من السماء؛ وتلك هي مشكلة غالبية مدونات الحديث. والحق يقال إن بعض الناس تنافسوا فيما بينهم لرواية الأخبار, أو حتى اختلاقها, حتى يتم اعتبارها أحاديث ومن هنا فقد لعب البحث عن الاعتراف (بصحة الحديث) دورًا في ذلك أو على الأقل في بعض الأمثلة.

وهناك عديد من المشاكل مع كثير من هذه المرويات؛ فبعض منها رواه راوٍ واحد وبالتالي فلا يمكن الاعتماد عليه اعتمادًا كليًا, وبعض آخر مشكوك في ثقة رواته, ومن ثم يجب النظر إلى تلك الروايات من منظور السياق المكاني المؤقت, وكذلك يجب النظر إلى الموقف الذي دعا الرسول ﷺ إلى قول شيء معين أو فعله والذي قيل فيه الحديث حتى لا يتم تعميم شيء قيل في سياق محدد إلى أمر عام. وفي كثير من الأحيان اخـْتـُلِقت الأحاديث لأغراض سياسية بحتة.

على سبيل المثال, أعطى العباسيون مراكز مرموقة لليهود في دولتهم, وهو ما لم يَرُق لبعض الناس؛ ومن هنا بدأ اختلاق حكايات للتشهير باليهود ككل, ومن ثم نجد سيرة ابن إسحاق, وهو أقدم كتاب لسيرة النبي ﷺ بين أيدينا, يذكر أن النبي ﷺ قد ذبح كل قبيلة "بني قريظة" وسبى كل نسائها؛ فلا يمكن الوثوق بكل ما قاله ابن إسحاق ثقة تامة. وقبل كل ذلك فإنه لم يرد ذكر لقصة بني قريظة والذي يبدو أنها ربما تكون مختلقة لتبرير الكراهية ضد كل اليهود وتوجيه اللوم للعباسيين لإعطائهم اليهودَ مراكز مرموقة. ويتضح الآن أن الكراهية ضد اليهود كشعب لم تأتِ من القرآن نفسه. ورغم أن القرآن ينتقد بعض اليهود إلا أنه يذكر في الوقت نفسه أن منهم من يخشون الله ﷻ حق خشيته. وبالتالي, فإن هذه الطريقة في اتهام كل اليهود والنصارى وغيرهم من غير المسلمين خبط عشواء والذي يظهر من بعض الروايات هو في الحقيقة يتعارض مع القرآن, ومن ثم لا يمكن أن يقال عنها إنها أحاديث صحيحة. إن القرآن ينحى باللائمة على أناس بعينهم من "قريش" لموقفهم الحاقد على النبي ﷺ ويفعل الشيء نفسه تجاه بعض اليهود, لكن لا يزعم أحد اليوم أن ذرية قريش في مكة ملعونون من الله ﷻ. لكن لماذا يذيع بعض المفكرين في القرن العشرين أن اليهود برمتهم كشعب هم أعداء الله ﷻ؟ من الواضح أن هذا راجع إلى أحداث سياسية معاصرة ولا يمكن أن يقال إن لها سندًا من القرآن. إنني أكرر وأقول إن هذه المرويات تسير في اتجاه معاكس لفكرة القرآن عن العالمية.

فعلى المرء أن يحتاط حتى في حالة ما يعتبره معظم السُّنة كتبَ "الصحاح الستة", فلا أحد يعرف على وجه الدقة متى بدأت فكرة أن هذه الكتب "صحاح", ولا يوجد حتى إجماع على تحديد هذه "الصحاح الستة", بل إن صحيح البخاري الذي يعتبره معظم السُّنة أصح كتاب للحديث يحوي بعض المرويات المشكوك في صحتها. إن البخاري نفسه لم يدرِ بخلده أن الروايات التي جمعها سيعتبرها المسلمون من بعده أقدس كتاب بعد القرآن. أقول إذا كان الله ﷻ يعتبر كتب الأحاديث جزءًا مكينًا في الدين, فكيف إذن فُـقِد حوالي خمسة وعشرون كتابًا للروايات قبل البخاري مما كان يعتبر أحاديث؟ أو لماذا أمر الخليفة الأول عند

أهل السّـنة, سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ, بحرق مجموعة من الروايات المنسوبة إلى النبي ﷺ والتي جمعها شخص ما؟ ما يبدو جليًا في الظاهر أنه خاف من خطر أن يعتبر المسلمون هذه الروايات جزءًا أصيلاً في الدين بجانب القرآن.

س: في ضوء ما قلتم, كيف تنظرون إلى التراث الفقهي؟

ج: مرة أخرى إنني أرى أنواعًا مشابهة من المشاكل التي تتعلق بالتراث الفقهي. إن القرآن هو بحق الكتاب الذي به الروح التي تدعو الناس إلى التسليم لله ﷻ, وليس مجرد كتاب يحوي أحكامًا فقهية, وإن مقاصد القرآن ومجاله لا يمكن أن يقتصرا على مجرد الشعائر والفقه كما سعى كثير من الناس عن غير قصد إلى تجريد القرآن إلى هذا المقصد. لكن كثيرًا من المسلمين عندهم نفس الفكرة الخاطئة أن الإسلام لا يمكن أن يُفـهم بطريقة أوسع من خلال التصنيفات الفقهية, وإن الفقه هو بالأساس ما يتم تدريسه في المدارس. وكان من نتائج ذلك انزواء الرسالة العالمية للإسلام إلى الظل بسبب هذا الهوس بتفاصيل الفقه وقواعده, وهذا ما جعل أئمة المذاهب الفقهية الأربعة عند السّـنة وكذلك المذهب الجعفري عند الشيعة من القداسة بحيث ساد الاعتقاد بأن ما قالوه هو الحق ذاته وأن أي تفكير أو فعل خلاف ما قالوه بدعة, حتى وصل الأمر إلى أن ادعى "شاه ولي الله" – وهو من علماء القرن السابع عشر في دلهي وممن لهم باع بين الأوساط السنية في الهند – إلى أن المذاهب الفقهية الأربعة هي بمدد من عند الله ﷻ – أو على حد قوله "من جانب الله ﷻ". كيف يكون ذلك, بينما هذه المذاهب قد نمت بعد وقت طويل من وفاة النبي ﷺ؟ فلو كانت هذه المذاهب بمدد مباشر من الله ﷻ, فلماذا لم يُذكروا في القرآن؟ ألا تتعارض هذه الفكرة مع المفهوم القرآني من أن القرآن هو الوحي الخاتم؟ إن هذا يشبه في المسيحية أقوال بولس التي يعتبرونها الآن جزءًا أصلاً من الكتاب المقدس, أو الأحبار الذين يعتبرهم اليهود – كما وصفهم القرآن – المتحدثين المعصومين باسم الرب.

يجب أن نفهم ظهور المذاهب الفقهية وتطورها من الناحية التاريخية, لا أن نقبلها على أنها أمر من عند الله ﷻ. قام الحكام بتفضيل بعض المذاهب الفقهية على بعض وكان هناك تـنافس بين علماء المذاهب المختلفة على الفوز بحظوة

الحكام, وهذا ما أدى طبيعيًّا إلى التنافس المذهبي والذي وصل إلى حد تخصيص أماكن للصلاة في المسجد الحرام لمذاهب مختلفة واستمر هذا حتى وقت قريب. ومن ثم فقد حوى التراث الفقهي العديد من الأحكام التي وضعت المسلمين في مكان بعيد وفي مكانة أعلى من غيرهم سعيًا وراء تشويه عالمية الرسالة الإسلامية وتحويلها إلى مجرد مشروع إسلامي محلي يهتم بالخير للمسلمين دون غيرهم. ومن الجلي أن مثل هذا التأويل للإسلام لا يجذب أحدًا من الأديان الأخرى.

س: أكدتم في كتاباتكم على أهمية الحوار بين أتباع الديانات "الإبراهيمية": اليهودية والنصرانية والإسلام, لكن ماذا عن الحوار بين الهندوس والمسلمين لا سيما في السياق الهندي؟

ج: إن القرآن يخص النصارى واليهود بالذكر على أنهم "أهل الكتاب" ويحض المسلمين على العمل سويًّا من أجل الله ﷻ. لكن لم يذكر القرآن الهندوس على وجه التحديد, بسبب أن القرآن قد نزل في الجزيرة العربية حيث لم يكن هناك هندوس في ذلك الزمن, لكن ذكر القرآن أن كل أمة قد أرسل لها رسول, وبالتأكيد أن الهند كان لها نصيب من نبي أو أكثر باعتبارها حضارة من الحضارات القديمة. وهذا ما حدا بالبيروني, على سبيل المثال – وهو من الكتاب العرب في القرن العاشر – أن يذكر وجود فكرة التوحيد بين الهندوس أيضًا, بل إن بعض الكتاب المسلمين يقولون إن شخصيات دينية هندوسية بعينها ربما كانت رسلاً أرسلها الله ﷻ, ثم حُرّفت رسالتهم بعد ذلك بمرور الزمن ثم اعتبرهم أتباعهم بعد ذلك أنهم تجسيد لله ﷻ. لذلك, فهم يقولون إن الهندوس أيضًا يمكن أن يُعْتبروا مشابهين "لأهل الكتاب" من أجل العلاقات الاجتماعية.. إلخ.

إن عملية قبول الهندوس في العقيدة الإسلامية سيتخذ مناحي بعيدة لأغراض وعوامل سياسية محددة. أحد هذه العوامل هي الطبيعية التركيبية "لدين الله" التي سعى الإمبراطور المغولي "أكبر" إلى ترويجها والتي يعتبرها كثير من العلماء تهديدًا للإسلام. وقد قاد هذا إلى نوع من الدفاعية والعزوف المتنامي لنشر العملية الأولى للتعارف مع الهندوس. وقد تجسد هذا, على سبيل المثال, في المقولات

القاسية التي أطلقها الشيخ "أحمد سيرهندي" و "شاه ولي الله" عن الهندوس وإصرارهم على الجوانب العربية في الثقافة الإسلامية التي قدموها على أنها "إسلامية" ربما من أجل تمييز المسلمين عن غيرهم وكذلك لاعتقادهم الخاطئ بأن الثقافة العربية جزء أصيل من الإسلام.

س: كيف ترون التمازج بين الثقافة العربية والإسلام كمؤثر على ما تعتبره رسالة القرآن العالمية؟

ج: إن المقصد من الإسلام هو مخاطبة الإنسانية جمعاء, فكيف يروج الإسلام إذن ثقافة بعينها؟ نعم نحن بحاجة إلى دراسة اللغة العربية حتى نفهم القرآن, ولكن هذا لا يعني أن للغة العربية أية مكانة خاصة عند الله ﷻ. وقبل كل هذا وبعده فإن الله ﷻ قد أرسل رسالات قبل النبي محمد ﷺ بلغات أخرى, ومن ثم كيف يتم تمييز اللغة العربية عند الله ﷻ على ما عداها من اللغات الأخرى؟ ومع ذلك تجد من المسلمين من يصر حتى الآن على القول بأن اللغة العربية هي لغة أهل الجنة!

إننا بتفضيل الثقافة العربية على هذا النحو نكون قد خلقنا "إسلامًا ثقافيًا" يتعارض مع الطبيعة العالمية للقرآن. لذلك, فإن الناس يعتقدون أنه لكي يصبح المرء مسلمًا عليه أن يقبل الطرائق العربية. على سبيل المثال, أعرف امرأة هندوسية تدعى "شانتي" تحولت إلى الإسلام واتخذت اسم "عائشة", لماذا لم تحتفظ باسمها السابق؟ لا ضرر من ذلك, فإن "شانتي" اسم مقبول تمام القبول من وجهة النظر الإسلامية فهو يعني "السلام", ولكن لأنه من المعتقد خطأً أنه لكي تصبح مسلمًا عليك بأن تهجر ثقافتك فقد قررتْ (شانتي) أن تطلق على نفسها اسمًا عربيًا. ومثال آخر ما قام به "كات ستيفنز" (Cat Stevens) عندما تحول إلى الإسلام أطلق على نفسه "يوسف إسلام" وهو الآن يلبس زيًا عربيًا. وهذا ما يحدث أيضًا مع الهنود الذين يتحولون إلى المسيحية حيث يختارون لأنفسهم أسماء أوروبية. هذا النوع من التوفيق بين الإسلام والثقافة العربية الذي يقوم به كثير من المسلمين هو خطأ, بل إنه يبعث برسالة مفادها أن من يريد أن يصبح مسلمًا سيهجر ثقافته هجرًا باتًا. كيف يتوافق ذلك مع إصرار القرآن على أن الإسلام

دين عالمي وأنه "دين الفطرة"؟ فإذا كان الإسلام دينًا عالميًّا, كما نعتقد, فيجب بالتأكيد حينئذٍ أن يعطي الفرصة الكافية ليتسع للثقافات المحلية.

أعتقد أن واحدًا من أهم العوامل وراء الخلط الخاطئ بين الإسلام والثقافة العربية يكمن في التاريخ عندما استغل الخلفاء والسلاطين – بداية من العباسيين – هذا "الإسلام المُعَرَّب" حتى يروجوا لبناء مشروع إمبراطورية عربية. ونتيجة لذلك, اعْتُبِر غير المسلمين - إلى حد ما - في مرتبة أدنى كما يتطلب التوافق مع نواميس الثقافة العربية حتى يُعتبروا مسلمين صالحين. إذا قست ذلك بما قاله الرسول ﷺ من أنه لا فرق بين عربي وعجمي وإصرار القرآن على أن المقياس الوحيد للأفضلية عند الله ﷻ هو التقوى, ستفهم حينئذٍ كيف يتعارض ذلك مع عالمية القرآن, بل ويمكنك أيضًا أن تفهم أن هذا النوع من "الإسلام المُعَرّب" لن يثير اهتمام الآخرين.

لقد قدم هذا "الإسلام المُعَرّب" خدمة بناء هذه الإمبراطورية التي قادت إلى الفكرة غير القرآنية أن العالم منقسم إلى معسكرين متنافسين: "دار الإسلام" و"دار الحرب", ونعرف الأخيرة بأنها الأقاليم التي لا تخضع لحكم المسلمين والتي يجب إخضاعها لهيمنة الإمبراطورية الإسلامية. ورغم أن هذه الفكرة لا وجود لها في القرآن, نجد من العلماء من طورها حتى يبرر التوسع الإمبراطوري العباسي. هذا السعي نحو الإمبريالية قد ترك أثرًا يصعب محوه على طريقة تفكير علماء المسلمين, الذين ينظرون بالتالي إلى المجتمعات الأخرى نظرة سلبية. إن واحدًا من المهام الرئيسية التي علينا اليوم هي إعادة تقييم هذه الأفكار الثقافية والتاريخية البالية التي غطت على عالمية رسالة القرآن ومناداته بالرحمة والمحبة والعدل للناس كافة لا لمجتمع بعينه فحسب.

س: في السياق المعاصر, ما الدور الذي يمكن أن يلعبه أو يجب أن يلعبه المسلمون - في رأيكم - من أجل تعزيز حوار الأديان؟

ج: إنني هنا لا أتحدث عن "المسلمين ذوي الثقافة الإسلامية", ولكنني أنطلق من منظور التصنيف القرآني "مسلم" كما استخدمت الكلمة في القرآن للإشارة إلى "الخضوع والتسليم (لله)". وكما يقول القرآن فإن ذلك يمكن أن يشمل الناس من

مجتمعات أخرى أيضًا؛ فمن وجهة النظر القرآنية, تشمل الفكرة "أمة مسلمة" (أو المجتمع المسلم) كل الناس من مجتمعات أخرى الذين يسلمون أنفسهم لله ﷻ ولمشيئته ويتبعون بإيمان تعاليم الرسل الذين أرسلهم الله ﷻ لمجتمعاتهم. أما "ذوو الثقافة الإسلامية" الذين يتصادف أن يحملوا أسماءً "إسلامية" أو "عربية" فليسوا جزءًا من هذا المجتمع, فليس لأجل البشر أن تحدد من سيدخل الجنة ومن سيحرم منها, فإن القرآن يحكي لنا أن الله ﷻ يرضى عن بعض "المسلمين" أو "الذين أسلموا وجههم لله" من بين المسيحيين واليهود, وكذلك الحال بالنسبة لطوائف أخرى كالهندوس. من ناحية أخرى, هناك كثير من المسلمين "ممن يحملون الثقافة الإسلامية" ولا يتبعون الإسلام في حياتهم. لذلك يجب أن نتخلص من فكرة أن الخلاص يكمن في الهيمنة على أي مجتمع آخر والاعتقاد بأن "الذين يسلمون وجههم لله" لا يوجدون إلا في مجتمع واحد فحسب. هذه الفكرة تضرب بجذورها في الإسلام "الفقهي", والإسلام "المُعَرّب" الذي انحصر في تقاليد معبودة مثل غيره ومن ثم فقد بريقه عند الآخرين.

وحيث إن الإسلام هو دين عالمي فيتعين على المسلمين أن يفكروا في الخير للناس كافة لا لأنفسهم فحسب؛ فالإسلام يدعو إلى إقامة العدل بين الناس كافة حتى يدرك كل شخص نفسه. وبالتالي فهذا يعني أنه يجب على "الذين يسلمون وجههم لله" والذين يهتمون بانتهاكات حقوق الإنسان أو الحرب أو الإمبريالية أو النهب الذي تقوم به الشركات متعددة الجنسيات أو ما شابه ذلك يجب أن يتضامنوا يدًا بيد ويجاهدوا سويًا, ولذلك يوجد في الغرب, على سبيل المثال, من يهبون أنفسهم لحقوق الإنسان ومن يعارضون الحرب والرأسمالية. بعض منهم "مسلمون – أي أسلموا وجههم لله" بطريقتهم الخاصة ويسيرون على نهج الأنبياء – سواء أدركوا ذلك أم لم يدركوه. وعلى المسلمين, الذين أقصد بهم "أتباع النبي ﷺ" وليس من يحملون "ثقافة إسلامية" – أن يتعاونوا معهم ويمدوا لهم يد العون.

وتؤثر هذه الطريقة في فهم الإسلام أيضًا على ما نفهمه من "التبليغ" و"التحول للإسلام", فالتحول للإسلام ليس مجرد اعتراف لفظي بالعقيدة أو اتباع ثقافة أخرى, إنه يجب أن يُترْجم ذلك إلى تحويل إرادة الإنسان إلى عمل ما

يريده الله ﷻ, والمجاهدة لإرساء العدل للناس كافة. ويجب أن يُنظر إليه في ضوء مقولة القرآن أنه لو شاء الله ﷻ لجعل الناس أمة واحدة, لكن الله ﷻ لم يفعل ذلك. إنه ﷻ خلقنا في مجتمعات شتى لأن القرآن يقول إن الله ﷻ يريد منا أن نتنافس في عمل الخير, لذلك فيجب أن يعمل كل "أهل الإيمان" سويًا لدرء الظلم ونشر الخير.

هذا الجهاد لإرساء العدل لا يجب أن يأخذ شكل الأوامر لهذا المجتمع أو ذاك. لذلك, عندما يبدأ من أُطلق عليهم "ذوي الثقافة الإسلامية" في المطالبة بحقوقهم أو مزاياهم لكونهم أفرادًا في المجتمع الإسلامي فأنا لا أفكر فيه على أنه موقف إسلامي؛ فالمطالبة بشيء على أساس كون الإنسان عضوًا في مجتمع ما هو نوع من "الطالبانية" في نظري التي تتعارض مع الفكرة القرآنية عن العدل للناس كافة وتجعل من المسلمين مجرد "قوم" أو "فرقة" بدلاً من أن يكونوا الطليعة التي يراها القرآن للمسلم الحق, لذلك عندما يقول الناس إن "المسلمين" – على سبيل المثال – والتي يعنون بها "ذوي الثقافة الإسلامية" يجب أن يجاهدوا جنبًا إلى جنب مع المجتمعات المقهورة ضد هيمنة الطبقة الهندوسية المنغلقة, فإن ما أخشاه أن يؤدي ذلك إلى استبدال مجموعة من الظالمين بمجموعة أخرى لا إلى تحدٍّ لنظام القهر ذاته. وفي رأيي أن هذا ينتقص من أجندة الإسلام الأشمل, فالمسلمون الحقيقيون بمعنى "من يسلمون وجههم لله" ليسوا مجرد مجتمع آخر مثلنا بل خلفاء للنبي الخاتم؛ فلكونهم "خير أمة" فإن عليهم رسالة عالمية في إرساء العدل والرحمة وتوصيل الهداية للناس كافة. وهذا هو ما يجعلني أعارض فكرة "المحلية" الإسلامية بل وأنتقد اتجاه "ذوي الثقافة الإسلامية" نحو المطالبة بحقوق ومزايا لأنفسهم, فهذا لن يؤدي إلا إلى إسلام يُسَاء تأويله على أنه مشروع خاص بمجتمع ذي ثقافة معينة.

س: كيف تنعكس "ثقافة" الفقه الإسلامي التي تحدثتم عنها في المدارس (الدينية)؟

ج: إن أشكال الفقه تمثل جوهر المناهج في الهند, أما القرآن فلا يلقى إلا قليلاً من الاهتمام النسبي في "الدرس النظامي" وهو المنهج المتبع في غالبية المدارس

(الدينية) في الهند. فكان يجب أن يُعـْطى القرآن الحظ الأوفر, لكن بدلاً من الدراسة المستفيضة للفقه والتفسير القرآني وأعمال العلماء في ضوء القرآن, ما حدث هو العكس بصفة عامة؛ فإن النصوص التي كانت تـُدَرّس في العصور الوسطى لفهم القرآن, مثل كتب الفلسفة والفلك, هي ذاتها التي تستخدم في المدارس, بل لا يُزود الطلاب بالمعرفة الكافية عن العالم من حولهم. بالتالي أعتقد أنهم غير قادرين على تفسير الإسلام على الوجه الصحيح؛ حيث إنهم يركزون في الأساس على الجوانب الشعائرية والتـفاصيل الفقهية.

إن العالِم, بالمعنى الإسلامي للمصطلح, يختلف إلى حدٍّ ما عن ما تدرسه هذه المدارس بصفة عامة, فإن القرآن لم يحصر المعرفة المقبولة في الفقه فحسب أو في المواد التي تدرسها هذه المدارس في الوقت الحالي, فإن عالِم الفيزياء الذي يدرك ببحثه عجائب الطبيعة ويدهش لعظمة الله ﷻ ويعمق ذلك من إيمانه بالله ﷻ هو"عالِم" مثل الذي يُـدَرّس الفقه في المدرسة.

المدارس (الدينية) لا تشجع على المناقشة أو الاختلاف أو استخدام الفكر والعقل بطريقة نقدية, وهذا في اعتقادي ما لا يريده القرآن, فإن القرآن يحثـنا على استخدام العقل لنتدبر ما في الطبيعة من دلائل كوسيلة لإدراك عظمة الله ﷻ. أقصد أن أقول إن رءوسنا ليست مجرد شواخص نضع فوقها القبعات لا أن نستخدمها في أي شيء آخر. إن عالِمًا معروفًا من مدارس "الدوبند" وهو "أشرف علي ثانوي" يقول إننا لا ينبغي علينا أن نستخدم عقولنا, وبدلاً من ذلك علينا أن نمارس "التقليد" وأن نتمسك بصرامة بما قاله العلماء في الماضي. لم يكن العلماء معصومين من الخطأ لكونهم بشرًا مثلنا. لقد كانوا نتاج زمنهم كما نحن نتاج زمننا. فإننا وإن كنا نُكِنُّ لهم الاحترام لتفانيهم, لماذا ينبغي علينا أن نتوقف عن التفكير وأن نقتصر على ما قالوه؟ إن من يفعل ذلك هو في الحقيقة يخالف القرآن الذي يدعونا إلى أن نستخدم عقولنا. إن القرآن ينهي تحديدًا عن قبول فتاوى علماء الماضي وآرائهم باعتبارها الكلمة النهائية في أمر ما, فالقرآن على سبيل المثال يتحدث عن بعض اليهود والنصارى الذين اتخذوا أحبارهم

ورهبانهم أربابًا من دون الله, بمعنى أنهم اعتبروهم وسطاء معصومين بين الله والناس.

هناك مشكلة أخرى تتعلق بالمدارس ناتجة عن تركيزهم على الفقه بشكل أساسي وهذه المشكلة هي "الطائفية". ففي الهند نجد كل المدارس (الدينية) تقريبًا تتبع مذهبًا أو آخر, ويسمى "مسلك", وكل مدرسة تحاول أن تروج لـ (مسلكها) الخاص بها حتى ولو على حساب الآخرين. فحينما يتعلم التلاميذ من البداية أن (مسلكهم) وحده هو الحق وما سواه باطل, كيف تتوقع منهم أن يروجوا للوحدة أو أن يبحثوا عن الحقيقة؟

س: بِمَ تشعرون تجاه فكرة "الدولة الإسلامية" كما ينادي بها الإسلاميون؟

ج: إن المقصد من الدولة في الإسلام هو إقامة العدل, وإذا لم تقم الدولة بذلك فلا يمكن أن يُطلق عليها "إسلامية" حتى لو كانت تدعي ذلك. وعندما تنظر إلى التاريخ الحديث تجد الجهود التي بذلها دعاة ما يُسمى بـ "الدولة الإسلامية" تجد أنها انتهت إلى ما يمكن أن يُطلق عليه "فتكنة (نسبة إلى الفاتيكان) السلطة الدينية"؛ حيث مجموعة من الناس يَدّعون أنهم خبراء يسعون إلى حكم الباقين. ومن الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى الظلم والفرْقة لأن الحكام – بما فيهم أولئك الذين يزعمون أنهم يتحدثون باسم الإسلام – مثل غيرهم من البشر غير معصومين من الخطأ. وقد أدى ذلك أيضًا إلى ممارسة القمع من قبل أولئك الأوصياء على التفسيرات الأخرى للإسلام. فهناك سعي لكبت كثير من الآراء المخالفة بقوة الدولة, لكن هذا ليس الطريق الأمثل للتعامل مع الخلافات. إن البشر يفهمون القرآن لكونه مكتوبًا بلغة بشرية, وبالتالي لا بد أن تكون هناك دائمًا خلافات حول كيفية تأويله, فهناك كثير من الآيات في القرآن لا يمكن أن تفسر تفسيرًا حرفيًا, بل يمكن أن تأخذ على سبيل المجاز, وبالتالي فعلى المرء تجاه مثل هذه الآيات أن يُعْمِل عقله في فهمها وسينشأ دائمًا خلاف حول فهمها. وبالتالي فإننا لا نملك الحق في أن نشجب من يخالفنا في الفهم بأن نخرجه من زمرة الإسلام. إن أفضل طريق للتعامل مع هذا هو الحوار وليس القهر بالقوة. لكن ما يحدث باسم تأسيس "دولة إسلامية" في

دولة ما أن المدارس الإسلامية ذات الفكر والفقه المختلف يتم قهرها بما يؤدي إلى عواقب تراجيدية ونزاع شديد.

س: كيف ترون الحديث عن "صراع الحضارات"؟ هل تؤمنون بهذه المقولة؟

ج: لا أعتقد أن يكون لهذا الخطاب أية صلاحية. في الحقيقة, هناك بعض الناس ممن يرون العالم بهذه الطريقة: وهي أن الإسلام والغرب في صدام, ولكنني لا أوافق على ذلك, وأقول أيضًا إن الطرق الخاطئة في فهم الدين هي أيضًا مشكلة تحتاج إلى كبير عناية. فهذه قضية ترتبط بالمجتمعات, وبطبيعة الحال فإن الناس الذين يعتقدون أن دينهم يطلب منهم أن يكرهوا الآخرين أو أن يؤسسوا هيمنتهم الخاصة بهم عن طريق إخضاع الآخرين وهزيمتهم والقيام ببعض الحيل دفاعًا عن الأيديولوجية المسيحية أو اليهودية أو الإسلامية أو حتى الهندوسية في الهند, فهذا ما يجب محاربته. فأنا أخشى أن تظل المشكلة قائمة طالما أننا نَقصر الدين في مشروعات محلية ضيقة.

أعتقد أن الدين ليس هو الأساس فيما ما يُسمى بـ "صراع الحضارات", إنه ببساطة يُساق لأغراض سياسية. إن الأسباب الرئيسية لما يسمى "صراع" هي أسباب اقتصادية وسياسية, وتحديدًا ترجع إلى الإمبريالية الغربية والرأسمالية. إنه بالأساس صراع على الموارد. فهذه هي القضية: إن كل "من أسلموا وجههم لله" – بغض النظر عن مجتمعهم أو معتقدهم الديني – يجب أن يضموا أيديهم ويجاهدوا من أجل تحقيق نظام عالمي يسوده العدل.

ولأن المسلمين كانوا يقدرون حرية الفكر، فإنهم سعوا إلى الهداية من خلال ما ورد في كتاب الله، وليس من خلال أقوال قادتهم أو علمائهم، وحين أشاع العلماء والأدباء العرف الذي انتشر فيما بعد، والذي يقضي بتقديم أنفسهم على أنهم قديسون، متميزون عن البشر العاديين، بدأت الألقاب الدينية الفخمة والرنانة توضع قبل الأسماء وبعدها، ودخل الفكر الإسلامي مرحلة الركود، واللجوء إلى التقليد الأعمى.

صورة الإسلام
في صورته الأصلية الإصلاحية

يؤمن 1.6 مليار شخص يعيشون على هذا الكوكب أنه قد عُهد إليهم بأن يكون لهم دور في تاريخ المستقبل بفضل أنهم خير أمة أخرجت للناس، بل إن الاعتقاد بأنهم خير أمة له من الإيمان في نفوسهم درجة تعدل الإيمان بوحدانية الله تعالى، ورسله، واليوم الآخر، والملائكة الموكلين بالوحي. وقد أدى هذا الموقف الأيديولوجي الخاص بقيادة العالم، وعلى عكس الحقائق الصارمة شديدة الوضوح الخاصة بعالم الواقع الذي وجد المسلمون أنفسهم فيه واقعين في شرك عداوة وكراهية العالم لهم، إلى حدوث انفصامٍ في الشخصية بين المسلمين، حيث يسأل المسلون أنفسهم، إذا كنا خير أمة أخرجت للناس وقُدِّر لها أن تقود التاريخ حتى نهاية العالم، فلماذا وجدنا أنفسنا على مدى قرون نعيش على هامش التاريخ؟

إن القول بأن الأمة المسلمة في حالة من الانحدار الدائم، وأن هناك شيء ما قد انحرف في تاريخها الطويل عبر القرون لم يعد ادعاءًا جديدًا على أسماعنا، ومع ذلك، فإن ما ركَّز المفكرون والمصلحون المسلمون عليه حتى الآن هو مجرد إصلاح المجتمع المسلم، أما إصلاح وتطهير الإسلام التاريخي من العناصر الدخيلة عليه، فلم يكن محل اهتمامهم، بل إنهم قد تجاهلوا تقريبًا حقيقة أن التاريخ الإسلامي، ووفقًا للشكل الذي تم نقله إلينا عبر الأجيال قد استوعب أشكالاً مختلفة من المفاهيم الفردية

والتفسيرات البشرية. إن إقرار المدارس الفقهية الأربع في الإسلام السني في القرن التاسع الهجري قد أضفى مزيدًا من الارتباك على العقل المسلم. لقد أخذنا انحرافنا الفكري كما جاء إلينا، وكما لو كان أئمة الفقه الأربعة جزءًا من التدبير الإلهي، وكما جاء ولي الله الدهلوي فيما بعد في القرن الثامن عشر وأراد أن يقيم الحجة علي ذلك. أما الاجتهاد، ونعني به قراءة مستقلة وجديدة للنص فقد تم قبوله كمبدأ إسلامي، ولكن ليس إلى المدى الذي يسمح بتأسيس مدرسة فقهية خامسة. وباختصار، لقد سُمح لنا أن نفكر فقط في إطار المنهج الفقهي للمدارس الأربع دون إجراء أي تقييم نقدي للمقدمة المنطقية الفكرية التي قامت عليها هذه المدارس، كما جاء إلينا أن القراءة الجديدة والمستقلة الحقيقية للنص تطلبت وجود المجتهد المطلق الذي يلم بكافة فروع العلوم المعرفة، فهو عقل خارق عقمت الأرحام أن تلد مثله في القرون المتأخرة، وقد أفضى ذلك إلى توقف العقل المسلم عن التفكير وهو ما كان كارثةً بكل المقاييس، وهذا النقطة سوف أعود إليها فيما بعد.

وتدفع الحركة الإسلامية المعاصرة بالقول إن العودة إلى الإسلام سوف يعيد الأمة الإسلامية إلى مجدها، إلا أن هذه الحركة قد عجزت عن إدراك أن المفاهيم الأيدلوجية التي نخاطب اليوم بها الأمة المحاصرة باسم الإسلام ليست هي التي قدمها النبي ﷺ في القرن السادس الميلادي. إنني أعتقد أن الإسلام التبشيري في صورته النقية الأولى يحتاج إلى إعادة صياغته قبل أن نشرع في التبشير بالإسلام.

إن حقيقة أن الأمة الإسلامية ليست هي الجماعة الموحدة الوحيدة، وأن هناك العديد من المفاهيم المختلفة في الإسلام التي تتناقض مع بعضها البعض لأمرٌ كافي الدلالة على أن إصلاح الإسلام التاريخي لا يعد رهبنة جديدة. إن كل جماعة بين المسلمين تستقي شرعيتها من ادعائها بأنها الجماعة الوحيدة التي ورثت جوهر الإسلام الحقيقي، ومن ثم في الوحيدة التي تملك الحق في الخلاص، ووفقًا لهذا الرأي الذي تعتنقه تقريبًا كافة الطوائف والجماعات الدينية بدرجاتٍ متفاوتة الشدة، فإن الطوائف الأخرى تحتاج في إصلاحها إلى العودة إلى الإسلام في صورته الأصلية، إلا أنه لا توجد في الواقع جماعة من هذه الجماعات تسمح بهذا النوع من الإصلاح في صفوفها خشية ألا يؤدي ذلك إلى تفكك الجماعة نفسها.

دعونا نوضح هذا الأمر، ولنأخذ السلفيين على سبيل المثال، حيث نجد أنهم بصفة عامة لا يؤمنون بالتقليد، أي الإتباع الأعمى للفقهاء، ولكنهم بدلاً من ذلك، يشجعون على الرجوع إلى القرآن والسنة، إلا أن آراءهم في السنة وبحثهم عنها في المصادر التاريخية قد أفضى بهم إلى الوقوع في أسر الهياكل التاريخية. والسؤال الآن، أي كتابٍ سوى القرآن يمكن الرجوع إليه على نحو موثوقٍ به في إعادة صياغة الخصائص المكانية والزمنية لزمن النبي ﷺ؟ إن أي قراءة للقرآن الكريم في ضوء المصادر التاريخية مرتبطة بإدخال الهواجس البشرية. ونرى أهل الحديث، كما يتشدقون بهذه التسمية، يؤكدون على المكانة الفائقة لكتب الحديث، والتي لا تتعدى - وفقًا لأي تقييم موضوعي – أن تكون تاريخًا في أوثق شكل يمكن لبشرٍ أن يتصوره، إلا أنها مع ذلك لا تخلو من الخطأ البشري، كما أنها وفقًا لأي تقدير ليست مطلقة وخالصة محضة مثل كلمات الوحي الإلهي. إن تطهير الإسلام التاريخي من العناصر الدخيلة عليه وتطهير عناصر التفسير البشري الخاصة بالعهود المنصرمة سيكون ممكنًا فقط إذا كانت لدينا الشجاعة والرؤية لتقييم الكتابات التاريخية والتفسيرية في ضوء القرآن وليس العكس.

لا يزال الاجتهاد إلى الآن مقصورٌ بصفة أساسية على التوفيق بين المدارس الفقهية الأربع المتعارضة، ومازال الصمت يخيم علينا بنوع من الغموض يتعلق بما إذا كان يمكن تخيل الحياة الإسلامية دون وجود هذه المدارس الفقهية الأربع. وإذا كان أئمة الفقه العظام ليسوا أمرًا إلهيًا، وإذا كان الإسلام قد اكتمل قبل مجيئهم، فلمَ نخشى من أن طي صفحتهم بشكلٍ نهائي سوف يؤدي إلى تصدع الهيكل الديني؟ وهل تعد المادة الفقهية الخاصة بالعهود الماضية أمرًا جوهريًا ومحوريًا للإسلام؟ وهل الفقه مُلزمٌ كالقرآن وأسوة النبي ﷺ؟ لا!! ليس الأمر كذلك إذا سألنا القرآن الذي يحث كل فرد على التفكير والتدبر واستخراج نصيبه من الهداية، إن القرآن نفسه بيانًا للناس وهدىً للمتقين. ولا ريب أن البشر لديهم كامل الحرية في صياغة قوانين توافق حياتهم وبيئتهم المعاصرة، لكن يجب ألا يحظى ذلك بقدسية الأجيال المتأخر، وباختصار، يجب علينا ألا نشرك شيئًا مع كتاب الله تعالى.

إن التقليد أو الاتباع الأعمى لن يقودنا إلى غاية، وكل ما يمكنه فعله هو خلق نوع من شبح التدين. لقد وجد الإسرائيليون الذين عُهد إليهم فيما مضى بقيادة العالم أن زمام التاريخ ينسل من أيديهم عندما اعتقدوا أن زعماءهم قد قاموا باستخراج الهدي الأساسي من التلمود، وأن ما يجب عليهم فقط هو اتباع فتاوى التلمود، وأصبح من المستحيل عليهم التفكير في الحياة الدينية دون التلمود، وما لبث الأمر بعد ذلك أن أصبح فقه هلال وشماي (Hillal and Shimmaei) وكلمات الحبر أكيفا (Akiva) أجزاءً متلازمة في الديانة اليهودية. هذه النظريات الخاطئة عن الوحي الإلهي والتي قتلها السابقون بحثًا، والتي لم تترك لنا شيئًا لنفكر فيه قد نجحت في وضع العديد من الحواجز داخل عقولنا.

ولم يستطع بنوا إسرائيل - رغم ما أوتوه من تراث علمي عتيق ومعرفة عميقة - أن يعيدوا صلتهم بالتوراة مرةً أخرى، حيث وجدوا أن مقاصد النص قد غُلِّفت وأحيطت من قبل كتاب التلمود، ونظرًا لأنهم قد آمنوا بقدسية التلمود كإيمانهم بالنص نفسه، فلم يكن هناك بدٌ من الالتفاف حوله وعدم تجاوزه إلى غيره. ومن خلال إصابة العقل بالتوقف عن التفكير، فقد قاموا بتدبير أحكامهم الخاصة، وأفضى ذلك أن يفقدوا قدرتهم على الإبداع والريادة. ويعبر القرآن عن تلك الحالة التي أصابتهم وقد مُسخوا قردة خاسئين، فهي أمة مقلِّدة ليس لها نصيب من الثقة والاعتزاز بالنفس. إن أي أمة تتوقف عن تقديم حلول إبداعية، أو تعتمد على حكمة السابقين كما يقول القرآن "وجدنا آباءنا كذلك يفعلون" هي أمة محكوم عليها بالفناء.

الإسلام التاريخي في مقابل الإسلام في صورته الأصلية الإصلاحية

الإسلام التاريخي هو بناء ثقافي, إنه مزيجٌ من الإسلام وعناصر كثيرة أخرى, وقد اعتبر علماء الإسلام – نتيجة انجذابهم للمجادلات المعاصرة في عصورهم – أنه من الضروري أن يُعدِّلوا رؤيتهم للإسلام, ولا لوم عليهم في ذلك؛ فلا توجد فلسفة دينية تعمل في فراغ, حيث يتوجب عليها أن تخاطب العقل المعاصر والبيئة التي شكلته, لكن كان على الأجيال اللاحقة أن تميز بين الرسالة والبيئة المحيطة. ففي بغداد

في العصر العباسي, ذهَل العقل المسلم من ترجمة مدونات من المعارف اليونانية إلى العربية, حيث أثرت المجتمعات الدينية الأولى وكذلك علماؤها الذين تحولوا إلى الإسلام في دراسة الإسلام بالمنهج الذي برعوا فيه من قبل. وقد أثرت أيضا المعرفة اليونانية والطريقة التلمودية في الاستقصاء في تطور الفقه تأثيرًا بالغًا, ويَدين ظهور التصوف بين المسلمين للزهد المسيحي بتاريخه الطويل في العزوف عن الدنيا وهو ما راق لمجتمع الثراء المادي للمسلمين في ذلك الوقت. ثم كانت هناك بعد ذلك نزعات فردية لبعض الأفراد البارزين الذين صاغوا تأويلات زائفة للإسلام بمرور الوقت. ورغم أن هذه الصيغ المتعددة للإسلام التاريخي قد نبعت أساسًا من مادة تفسيرية إنسانية إلا أنها جميعًا كانت تعتبر شرعية, حيث حاز مفسرو الإسلام في ذلك الوقت مكانة السلطة الدينية. وما لبثت كل طائفة بين المسلمين أن عملت لنفسها مجموعة من الكتب التي لم تميزها عن غيرها من الجماعات فحسب، ولكنها سيطرت وحكمت مشاعرهم الدينية, على سبيل المثال, نجد أن المطالعة التاريخية للرسول أصبحت مفتاحًا للفهم الإسلامي بين أهل الحديث، بينما لا يُوصف شيء عند الشيعة بأنه صحيح إلا إذا كان عن طريق الأئمة "المعصومين". وأصبح مستحيلاً في الإسلام السني أن تفهم الإسلام بدون مدونات الفقه. ومع ظهور المنظمات الدينية مؤخرًا على الساحة, أصبحت كتابات مؤسسيها محورية في الفهم الإسلامي. إن ظهور تأويلات بشرية عديدة للقرآن موازية لكتاب الله قد نتج عنها تفتيت الأمة إلى عديدٍ من الفصائل المتحاربة, فبمجرد أن لعبت التأويلات البشرية للقرآن دورًا رئيسيًا في حياتنا الدينية, أصبح من المستحيل أن تلغي الوساوس البشرية التي ظهرت فجأة في كتابات العلماء, فمنذ الشافعي حتى وقتنا الحاضر, أصبح من المقبول اتفاقًا أن يُنظر إلى رسالة الله من خلال مصدر بشري, فعندما نشر أبو حامد الغزالي كتبه في البداية, عارضه علماء عصره معارضة لا هوادة فيها, وكانت المعارضة من الشدة بحيث إن كتبه قد أحرقت على رؤوس الأشهاد في العالم الإسلامي, لكن رويدًا رويدًا بدأت المعارضة تخمد وانصهرت رؤاه في تفكير المسلمين السائد, حتى أضحى الغزالي اليوم "حجة الإسلام", والنموذج الأمثل للفهم الإسلامي.

ويشبه الموالون للإسلام التاريخي – إلى حدٍ بعيد – المسافرين على قطارٍ مزدحم؛ حيث يقاومون في البداية أي قادم جديد يدخل العربة, ثم بعد ذلك عندما يتأقلم في الجلوس ينضم هو أيضًا إلى زمرة المقاومة, إن مزج ما هو إلهي بالنية الإنسانية هي ظاهرة مستمرة في الإسلام التاريخي.

وعلى خلاف النموذج التاريخي, فإن الإسلام الفطري يعتقد بأنه محفوظ للأبد بين صفحات القرآن ويمكن إعادة بناءه بالكامل في أي وقت, والموالون للإسلام الفطري ينظرون إلى القرآن على أنه وثيقة معاصرة وكتاب للهداية مُكتفٍ بنفسه. ويعتقدون أنه لا ضرر من الإفادة من السابقين في الماضي, لكن لا ينبغي أن يكونوا لزامًا علينا بالمرة, وهم لا يتجاهلون التراث كلية لكنهم يعتقدون بأن العلماء السابقين ليسوا هم الكلمة الأخيرة في الأمور, فتعظيم السابقين لن يكون ذا نفع لنا:

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

إن التقييم الواضح والأمين للمادة التأويلية للإسلام – والتي تمتد على مدار ثلاثة عشر قرنـًا تقريبًا – ستكون مبادرة لمطلع عهد جديد, وستكون بمثابة إعادة بناء للأقوال المأثورة التي جَرّ عليها الزمن أذيال العفاء في الإسلام. إن ما ينبغي علينا ألا نغفل حقيقة أن قوة الأفكار هي بالأساس ما يشكل مصير أمةٍ من الأمم, وأن إعادة بناء أقوال القرآن المأثورة لزمننا سوف يغير الاتجاهات الفكرية الجامدة تغييرًا جذريًا للأمة التي تعتبر أن إضافة حواشٍ إلى الكتب القديمة هي قمة التفوق الأكاديمي.

إن الدعوة لإعادة تقييم التراث الحالي في الإسلام على نموذج إلهامي لا ينبغي أن يُأخذ على أنه مجرد تحرك أكاديمي فحسب, فلا يمكن للحركات الأكاديمية التقليدية إلا أن تضيف مزيدًا من الظلال على الألوان الحالية للإسلام. إن إعادة بناء الإسلام الفطري سيحتاج منا لعقل مستعد وروح متفتحة؛ بمعنى أن المتلقي المعاصر ينبغي عليه أن يكون على وعي تامٍ بروعة الوحي، وفي نفس الوقت يجب أن يكون لديه الاعتداد بالنفس والثقة بأنه هو – وليس غيره – المنوط بخطاب هذه الرسالة العظيمة. إن مما لا شك فيه أن لدينا حدودًا بسبب بشريتنا, لكن رغم كل فشلنا فإن الله تعالى يريد منا أن نؤيد ونفهم الرسالة السامية, فهو سبحانه يأمرنا مرارًا وتكرارًا أن نـُعْمل

عقولنا في الوصول إلى القصد الإلهي, وعلى كل شخصٍ أن يبذل كل ما في وسعه من جهد, وهذا وحده يمكن أن يمهد الطريق لإعادة فتح الكتاب الذي ظل مهجورًا لقرون بسبب اعتمادنا المفرط على السابقين.

إن القرآن يخاطب الإنسان العادي, إنه خيط مقدس يربط الإنسان بالله دون واسطة, لكن ظهور الوضع المشابه لموقف الكنيسة في الإسلام ووجود رجل الدين الذي يدعي الحق الأوحد في تأويل مقصد الله هو فكرة غريبة سلكت طريقها في تفكير المسلمين أثناء الدولة العباسية, أما الإسلام الفطري فإنه لا يعتقد بالكهنوت الديني, فالله لم يُعيّن أحدًا كنائبٍ عنه سبحانه على الأرض وكذلك لم يُعيّن الرسول ﷺ جماعة معينة كنائبة عنه, بل بدلاً من ذلك نعتقد نحن المسلمين كحاملين للوحي الخاتم بأن الأمة كلها قد كُلفت بالقيام بمهمة النبوة؛ فالنبي ﷺ في لحظاته الأخيرة عزف عن تعيين أي شخص كقائد للمسلمين حتى لا يعطي فردًا بعينه سلطة لا يستحقها على غيره. وبالرغم من الوضوح الجلي للموقف الإيديولوجي المضاد لفكرة طبقة رجال الدين فإن وجود كهنوت ديني منظم بين المسلمين يوضح بجلاء أن شيئًا ما قد ضرب في عمق جذور المهمة الإسلامية, فمثل ما يجده المرء في الكنيسة الكاثوليكية من البابا, والأسقف والأب نجد أيضًا "سماحة الشيخ" و "فضيلة الشيخ", وفي التدرج الهرمي لرجال الدين الشيعة نجد "آية الله العظمى" و"آية الله" و "حجة الإسلام", الخ. إن علماء الإسلام – بغض النظر عما يبدون عليه من تفرد أو قدسية – لم ينزلوا من الأرض بعد, وبالتالي فإن أقوالهم لا ينبغي أن تمر دون مراجعة.

إن ما تعسر القيام به في القرون الماضية يمكن الآن أن يتحقق. فلندع النور السامي للوحي يشرق في طريقنا!

إن القرآن الكريم كتاب مفصل، ولا يدع مجالاً لأي مناورات تفسيرية، وأي قراءة للنص في سياق أسباب النزول لا تعد فقط أمرًا شبيهًا بوضع الوحي الإلهي تابعًا للتاريخ، ولكنها تقف أيضًا عائقًا أمام قراءة جديدة للنص انطلاقًا من وضعنا الخاص، لقد نقل الله ﷻ إلينا ما يريده، فهل الله في حاجة إلى مساعدة تفسيراتنا البشرية لجعل قصده واضحًا ومفهومًا؟ إن القرآن الكريم - كما أخبرنا الله - بيان للناس، ونحن جميعًا في حاجة إلى قراءته كدليل هداية وإرشاد بشكل يومي، وهذا الاتجاه وحده هو الذي يمكن أن يولِّد الحركة الجماهيرية القائمة على الوحي الإلهي.

هل ضعفت الهوية الإسلامية؟

منذ حوالي أربعين عامًا، عندما ادعى "ولفريد كانتويل سميث" (Wilfred Cantwell Smith) اعتناقه للدين الإسلامي، وهو ما رآه كثير من المسلمين نصرًا كبيرًا لهم، لم يدرك سوى القليل منهم أنه بادعائه للإسلام قد أثار جدلاً أيديولوجيًا كبيرًا في عالم الأديان. لم يكن "سميث" مسيحيًا عاديًا، ولكنه كان عالمًا فذًا يحيط علمًا بكل أنواع وأشكال المناقشات الكلامية في الإسلام والتي تناولت الهوية الإسلامية. إن "سميث" يرى أن جوهر التعاليم الإسلامية هو الخضوع لله ﷻ، ولذلك فقد شعر أنه كمسيحي متدين يمكن أن يكون مسلمًا من الداخل. إن الدين عند "سميث" هو الخضوع لله ﷻ وليس شارةً أو علامةً أيدلوجية يتقمصها الشخص، فالإسلام الذي جاء به محمد ﷺ لم يكن مقبولاً له، وعلى الرغم من ذلك، لم يكن من الممكن له أن يصرح بقوله "لست بمسلم"؛ إذ كيف يجرؤ رجل تقي مثله أن يقول إنه ليس خاضعًا لله أو ليس بمسلم؟

لقد تميزت الحقبة التاريخية التي عاش فيها "سميث" بوجود دوافع ما بعد الاستعمار؛ فالمسلمون حول العالم كانوا ينظرون إلى الإسلام على أنه هوية عالمية أكثر من كونه رسالة إنقاذ عالمية. من هنا لاقى إعلان "سميث" إسلامه استجابة فاترة من قبل علماء العصر، حتى أن تلميذه الوفي "مشير الحق"، الذي أعلن في مناسبات

عديدة تعريف "سميث" للدين الإسلامي، كان يحاول دائمًا أن ينأى بنفسه بعيدًا. كان لدى "مشير الحق" الفرصة للاقتراب من "سميث" بحكم كونه طالبًا بجامعة المعبد "Temple University"، ولم يكن لديه شك في ورع وتقوى "سميث". لكن هل كان "سميث" حقًا مسلم بالمعنى اللغوي للكلمة؟ يرى "مشير الحق" أن تنحية الخلاف حول هذه القضية جانبًا لم يكن أمرًا خطيرًا فقط، ولكنه كان معضلة أيدلوجية أيضًا. عندما زعم "سميث" أنه مسلم في الدين المسيحي، فإنه في الحقيقة قد أثار من جديد حوارًا كان قائمًا منذ زمنٍ بعيد، وهو الحوار الذي تزعمه المتكلمون المسلمون في القرون الأولى للإسلام حول: ما الذي يجعل الشخص مسلمًا، الإيمان أم العمل؟

إن قياس إيمان الفرد أو أية محاولة للوصول إلى تعريفٍ له أمرٌ محفوفٌ بالمخاطر؛ إذ أن التعريف الفقهي أو الشرعي للدين يمكن أن يكون غير حاسم لما به من بعض الأشياء المتناقضة. إن معظم الأديان السماوية الأساسية، فيما عدا الدين الإسلامي، تُعرف اليوم بأسماء مختلفة عن الأسماء التي كان مؤسسوها يطلقون عليها. لم يتوقع المسيح يومًا أنه سوف يأتي زمانٌ يطلق فيه على أتباعه "مسيحيين" أو أن يطلق على ديانته اسم "المسيحية". هذا ينطبق أيضًا على كل من اليهودية والهندوسية والبوذية والكنفوشية وبعض الأديان الأخرى. معظم هذه المصطلحات استحدثها بعض الدخلاء ولذلك فإنها لا تعكس جوهر التعاليم الدينية التي جاءت بها هذه الأديان.

حاول المستشرقون الأوائل أن يقوموا بتفسير الدين الإسلامي من خلال مفاهيم وحقائق مسيحية. في البداية أطلقوا على الدين الإسلامي اسم "المحمدية"، لكن حديثًا جدًا أدرك علماء كبار من الغرب المسلمين أن الإسلام ليس مذهبًا محمديًا لأنه قال بأن الدين الإسلامي استمرارًا لملة إبراهيم ﷺ. ينتمي "سميث" لهذا العصر المستنير، وقد اندهش عندما علم أن كلمة "إسلام" قد وردت في القرآن الكريم بعدة معاني تشمل جميع أنواع الخضوع التي انفردت بها الأمة الإسلامية، وقد شهد أيضًا تلك المعركة الضارية التي دارت في باكستان بين القديانيين وأهل السنة حول نفس القضية. في واقع الأمر، جعلت الحركة المناهضة للقديانيين من قضية الهوية بالكامل في بؤرة التركيز. جاء في تقارير لجنة منير "Munir Commission Reports" أن العلماء

لم يتمكنوا من تقديم تعريف قاطع ومتفق عليه من الجميع عن "من هو المسلم". إذا كان الإسلام اتجاهًا وإذا كان إسلام المرء يعتمد على خضوعه لله، فهل يمكن أن يكون هناك مسلمون خارج دار الإسلام التقليدية؟ كان هذا سؤالاً طبيعيًا اختلف عليه "سميث" وكثير من الطلاب الآخرين الذين يدرسون الدين الإسلامي. أما بالنسبة لادعاء "سميث" اعتناقه للدين الإسلامي، فقد يكون نوعًا من الفراسة الفكرية، ولكن بالنسبة لنا فإن أية محاولة لإعادة تعريف كلمة "الإسلام" سوف تتسبب حتمًا في إحداث نوعٍ من التحول في النموذج.

من هو المسلم إذًا؟ هل الإسلام خاصية دينية للأمة الإسلامية وحدها، أم هل من الممكن وجود آخرين يستحقون اعتناق الإسلام الذي يعد استمرارًا لملة إبراهيم عليه السلام؟ إنني أرى أن أية محاولة لإعطاء إجابة قاطعة وصادقة عن هذه القضية بالغة التعقيد سوف تضلل القضية نفسها. ودعوني أفصل القول في ذلك: إن العقل البشري يوظف اللغة كأداة للتفكير والإدراك، والإنسان فقط هو الذي يتمتع بالمقدرة على تحديد اسم لأي ظاهرة وهذا ما يميزه عن غيره من المخلوقات. لكن هناك بعض القيود المفروضة على استخدام الكلمات كأدوات للتفكير والتعبير، خاصة إذا كانت هذه الكلمات حية، فإنها تتطور تدريجيًا. أما على الجانب الآخر، فإن لغة الله ﷻ لغة تواصل، فهو ﷻ بمقدوره لا ريب أن يترجم مقاصده العلية إلى لغة بشرية ولكن في هذه الحالة سوف تحمل طابعًا سماويًا من الكمال مع تبسيطها كي يفهمها البشر. ومن أجل سد الفجوة بين المقاصد الإلهية ولغة البشر، فإن الله ﷻ لا يجعل من نفسه بشرًا أبدًا، لكنه يأمرنا أن نمجد المقاصد الإلهية بلغة بشرية يمكن إدراكها. عندما يقول القرآن الكريم:

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ ﴾ (العلق: 1)،

فإنه يذكر الإنسان مرارًا وتكرارًا بأصله المتواضع، بل ويحثه دائمًا على القراءة الحثيثة، قال تعالى:

﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ﴾ (العلق: 3).

هذه القراءة الحثيثة يجب أن تقر علانيةً أن القرآن ليس كتابًا عاديًا وليس بمقدور أي لغة بشرية أن تستوعب المقصد الإلهي، كما لا يمكن لأي تفسير أن يفرض سياجًا حول معانيه. إن أقصى ما يمكن للإنسان أن يفعله هو أن يدرك ويقدر قوة المقصد الإلهي الذي يمكن من خلاله إيجاد اتجاهٍ لرحلته الروحية. على النقيض من ذلك، إذا درس المرء النص كمسودة قانونية مستنتجًا كل الأوامر والنواهي، فإنه من المحتمل أن ينتهي دون أن يصل إلى حقيقة الأمر. إن بني إسرائيل - كما يخبرنا القرآن الكريم- أمرهم الله ﷻ أن يذبحوا بقرة، ولكنهم بدلاً من أن يذعنوا للأمر الإلهي على الفور أثاروا العديد من الأسئلة كي يضيقوا نطاق البحث عن البقرة. هذه الطريقة في محاولة الفهم والوصول إلى هذا القدر من الدقة من المؤكد أنها ضد النص الإلهي.

لم يستطع العقل الفقهي أن يجد في القرآن تعريفًا دقيقًا للهوية الإسلامية، بل بدلا من ذلك يريد الله ﷻ منا أن نكون خاضعين له حتى يمكن أن يطلق علينا اسم "ربانيين"، والاتجاه هنا هو الهوية. إن إعلان اعتناق الشخص للنصرانية أو اليهودية ليس أمرًا مقبولاً؛ فالمؤمن يجب أن يصطبغ بصبغة الله ﷻ لأنها الهوية الصحيحة. يقول ﷻ في القرآن الكريم:

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

إن الفرقة والتوحيد لا يجتمعان أبدًا؛ فالمسلِّمون لله لا يمكن أن يكونوا جادين في دعواهم ما لم يتخلوا عن هويتهم الخاصة من أجل صياغة هوية عالمية للربانيين، والقرآن الكريم دائمًا ما يذكرنا أن أنبياء الله (إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى) ليسوا يهودًا أو نصارى؛ إنهم ينتمون إلى مجموعة واحدة من المسلِّمين لله، وهذا الخضوع قدم لهم هوية واحدة واسمًا واحدًا، قال تعالى: "هو سماكم المسلمين". إن الأمر القرآني "كونوا ربانيين"، وقوله تعالى "صبغة الله" به دلالات كافية على أن القرآن الكريم يريد منا أن نؤسس مجتمعًا عالميًا تتلاشى فيه هوية المجموعات الصغيرة من أجل خلق هوية عالمية خاضعة لله وحده. هذه الأخوة العالمية التي يرمز إليها القرآن بقوله "الأمة المسلمة" مصطلح كبير يشمل كل الأنبياء وأتباعهم. إن دعاء نبي الله إبراهيم ﵇ قائلاً:

﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (البقرة: 128)

لا يشمل هؤلاء الطغاة الذين قد يدعون أنهم من ذرية إبراهيم، قال تعالى:

﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (البقرة: 124).

إن إعادة تعريف الهوية الإسلامية ليست نوعًا من الترف الأكاديمي لنا، حيث يعتمد هذا في حقيقة الأمر على مستقبلنا. واليوم، في القرن الحادي والعشرين، عندما يجد المسلمون أنفسهم على حافة الهاوية وعندما تظهر حركات الإصلاح المزعومة على أنها ظاهرة سوف تنتهي، فعندئذٍ يكون قد حان الوقت المناسب لرحلة البحث في الذات. تخيل! بالأمس كنا محررين، حملة لواء الدين الخاتم المنقذ من الضلال، واليوم أصبحنا لا حول لنا ولا قوة، فلم نعد ندرك هذا التخلف الذي نعاني منه. ما الذي أصابنا؟ كيف وصل بنا الأمر إلى هذا الحد؟ قد يتطلب هذا قدرًا كبيرًا من الشجاعة في أن ننتقد أنفسنا بكل بوضوح وأن نكون صريحين في إظهار ما بنا من عيوب. إننا ندعي شرف أننا أصحاب رسالة عالمية، ولكننا لسنا أفضل حالاً من اليهود والنصارى في زمن النبي ﷺ. إننا أصبحنا مثلهم، بدلا من أن ندعو الناس إلى الله ﷻ ونعمل بلا كلل أو ملل في أن نوسع من قاعدتنا الاجتماعية، تجدنا نحث الناس أن يتحولوا إلى هويتنا الثقافية، وإذا كان الحال هكذا، فإنني أتساءل: لماذا نتوقع من الآخرين أن ينجذبوا تجاه هذا المشروع القومي الخالص.

كان الجيل الأول من المسلمين، على خلاف القوميين من المسلمين اليوم، ينعمون برؤية عالمية. كانوا في الظاهر مثل باقي العرب الذين عاشوا في عصرهم؛ يتحدثون نفس اللغة، يرتدون نفس النوع من اللباس، تظهر عليهم اللحى، ولكن من حيث الحيثية كانوا مواطنين يعيشون في عالم أكبر مختلف يعمل من أجل بناء مجتمع إسلامي عالمي خالٍ من التعصب. ورغم أن المظهر الخارجي كان واحدًا، إلا أن الإسلام قد حوَّلهم من الداخل. إن قبولهم لمحمد ﷺ نبيًا كان يعني العيش خلف العالم القديم الذي يتسم بالهوية القبلية، ومن أجل هذا لم يكونوا في حاجة إلى تدخل خارجي. وعلى الرغم من تحولهم الفكري والروحي، لم يُطلب منهم أن يرتدوا زيًا مختلفًا أو يغيروا أسمائهم. في هذه الأيام لم يكن هناك فكرة الأسماء الإسلامية أو أي عملية

مؤسسية من أجل اعتناق الدين أو صيغة خاصة لإعلان إيمان الفرد كما نعرفه اليوم. كان اعتناق الدين الإسلام في الأساس يعني أن الشخص قد ألقى بكل ثقله في المعسكر الإسلامي الذي يدعو له النبي محمد ﷺ وانضم إلى الجهاد النبوي ضد كل النزاعات والخلافات. ولم يكن إعلان الإسلام شفهيًا أو من خلال كلام منمق ذا أهمية كبيرة آنذاك، فقد كان الإيمان مسألة عمل أكثر منها مسألة كلام.

كان المسلمون الأوائل يدركون حقيقة أنهم كحملة لواء الدين الخاتم، كان منوطًا بهم قيادة العالم، ولكن هذا لم يكن يعني أن دور مجتمعات الأديان الأخرى قد انتهى. لقد شعروا في الحقيقة أنهم مجبرين أن يسعوا من أجل المشاركة وأن يضعوا مخططًا لهذا من خلال تطبيق مبدأ "كلمة سواء"، كما وردت في السياق القرآن. عندما كان المسلمون منفتحين على المجتمعات التي تدين بأديانٍ أخرى واتخذوهم كحلفاء محايدين، كانوا قوة لا يُستهان بها. مع ذلك، وبسبب بعض الأحوال السياسية المرتبكة، تغيرت أشياء كثيرة في بغداد حاضرة العصر العباسي. ومع ظهور الموالي على الساحة الاجتماعية وسيطرة أهل الكتاب وبعض المجموعات الأخرى على الخدمات الإدارية، شعرت بعض القبائل العربية بأن دورها يُهمَّش بشكل تدريجي. حدث ذلك في الوقت الذي حيكت فيه العديد من الحكايات المختلقة وتم نشرها بهدف إضعاف النسيج الاجتماعي المتعدد. على سبيل المثال ظهرت في ذلك العصر فقط قصة مختلقة عن بني قريظة لم تحدث أبدًا وهي أن النبي ﷺ كان يكره اليهود تمامًا ودائمًا كان ضدهم، وأنه أمر بنفسه بل وشهد إبادة قرية كاملة مكونة من 600 يهودي. نسمع أنه خلال هذه الفترة أيضًا كان الناس يتكلمون على الشروط العمرية على أهل الكتاب والتي ربما تُنسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب أو إلى شخصٍ آخر يُدعى عمرًا. لسنا متأكدين ما الذي سوف يميز اتجاهنا نحو أصحاب الديانات الأخرى. يمكن أن يتم تفسير كل من التقاليد التي أعطت الأفضلية لقبيلة قريش والدعوة إلى خلق نوعٍ من السيطرة العربية من خلال الخلفية التاريخية، وذلك عندما تكون العصبية العربية –بدلا من الإسلام- هي التي تملي علينا هويتنا. إننا نقلص دور الهوية العربية الإسلامية من خلال الدعوة إلى الوحدة العالمية للمسلمين، فالإسلام أصبح يمثل دور الأيديولوجية للإمبراطورية العربية التي تظهر بسرعة شديدة. من

قبل، كان المسلمون هم الذين يخدمون رسالة الإسلام، ولكن مع تأسيس الإمبراطورية، كان الإسلام هو الذي يخدم الإمبراطورية؟ ثم جاءت بعد ذلك حملتان صليبيتان اصطدمت في معارك ضارية مع الجيش الإسلامي لما يقرب من مائتي عام. من المؤكد أن هذا كان له تأثير كبير على استيعابنا للأمة النصرانية، وبالفعل حدث هذا، وقد تغيَّر المنهج الإسلامي كليةً، فقد بدا العالم لنا مقسمًا إلى دارٍ للإسلام ودارٍ للكفر، وقد كان الانتقال إلى دار الكفر والعيش فيها أمرًا مكروهًا. لكن أدي هذا الاتجاه في النهاية إلى انغلاق العقل المسلم؛ انغلقنا في بيئاتنا الخاصة فلم نعرف إلا القليل عن الأحداث التي كانت تدور من حولنا في العالم. ومع الظهور المفاجئ للقوى الاستعمارية خلصنا في النهاية إلى حقيقة جديدة، ولكن الوقت كان متأخرًا جدًا.

إننا في حاجة للعودة إلى الأصول إذا ما أردنا أن نبدأ من جديد، نعود من الإسلام الثقافي إلى الإسلام الخالص، بل إننا في حاجة شديدة إلى إعادة تقييم تراثنا التفسيري برمته من حيث تناوله للأشكال والأنماط المختلفة من الهوية الإسلامية. يمكننا أن نبدأ بداية متواضعة من خلال تبني هذه الافتراضات:

1. محور رسالة الإسلام هو الدعوة إلى تأسيس مجتمع عالمي من المسلمين (الربانيين). ومن منطلق أن صبغة الله هي السمة المميزة لأتباع النبي محمد ﷺ، فإنه يتوقع منهم أن يقدسوا الله ﷻ ولكن يكون ذلك في نوع من التوافق مع المجتمعات التي تدين بديانات أخرى. يجب ألا نتجاهل حقيقة أن محمدًا ﷺ هو نقطة التلاقي بين الديانات السماوية جميعًا، فإنه لم يأت ليؤسس أمة جديدة ولكن ليكمل ملة إبراهيم. إن المفهوم القرآني عن الأمة المسلمة مفهومٌ واسعٌ يشمل كل الأنبياء وأتباعهم.

2. مفهوم الولاء والبراء كما جاء في القرآن الكريم يبين لنا في الأساس أن الواقع الأيدلوجي منقسمٌ بين مسلمين وغير مسلمين. على الرغم من ذلك، فإن هذا لا يعني أن المسلمين يجب أن يبقوا داخل دار الإسلام ولا يخرجوا منها. إن المسلمين – على خلاف غيرهم من الأمم- ليسوا مجموعة ثقافية أو مجموعة تعيش في عزلة عن العالم. لا يجب أبدًا اعتبار الثقافة العربية،

التي حولت بكل أسفٍ أتباع النبي محمد ﷺ من أمة مسلمة إلى أمة محمدية على مدى تاريخهم، جزءًا متكاملاً من الإسلام.

بسبب تأثير التراث التفسيري، أصبح العقل المسلم في حيرة حول فهم بعض الآيات القرآنية التي تحدد تعاملنا مع أهل الكتاب والتي تبدو متعارضة في الظاهر. كان المفسرون في العادة يستخدمون سياقات تاريخية مناسبة للتوفيق بين الآيات المتعارضة التي بدت لهم مختلفة الاتجاه. في اعتقادي، يعد فهم الآية بمعزلٍ عن الآيات الأخرى أو السياق التاريخي لها نوعٌ من المنهجية المتصدعة؛ فلو سُمح للتاريخ أن ينسخ الوحي الإلهي لأدي هذا إلى كارثة. إن ما نحتاجه هو أن نعيد النظر في كل هذه الآيات التي تبدو متضاربة في الظاهر بطريقة واضحة. إن دراستي لهذه الآيات جعلني أؤمن بأن أتباع النبي محمد ﷺ لهم نوع من الأفضلية على غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى وذلك لأنهم حملة لواء الدين الخاتم. من هذا المنطلق يجب عليهم أن يسلكوا نهج النبي ﷺ في جهاده إلى أن تقوم الساعة. ولآن قيادة العالم مهمة شاقة في حد ذاتها، فإنه يجب وضع أسسها وسياساتها بكل عناية ولا يجب بأي حالٍ من الأحوال أن نسمح للآخر أن يؤثر في هذه السياسات أو يضعفها. وعلى الرغم من الاعتراف بأهل الديانات الأخرى إلا أننا لا نسمح لهم أن يصلوا إلى مراكز قيادية داخل الأمة أو يسمح لهم بالمشاركة في عمل السياسات، قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ ﴾ (النساء: 144).

ومع ذلك، لا يعني هذا أننا نحمل أي ضغينة ضدهم أو نعتبر دينهم أقل من ديننا، قال تعالى:

﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ (آل عمران: 113)

كذلك لأن الله عهد إلينا قيادة هذه الأمة، فقد أخبرنا القرآن الكريم ما الذي يمكن أن نتوقعه من الأمم الأخرى؛ من منهم سيقدم العون للمسلمين وإلى أي حدٍ يكون هذا العون، قال تعالى:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(المائدة: 82).

كذلك يجب ألا نتجاهل اليهود، قال تعالى:

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

(الأعراف:159).

إننا نسلم بهذه التوجيهات القرآنية، ولكن هناك بعضٌ من الشك في أن أتباع الأمم السابقة يشكلون أهمية كبيرة بالنسبة لنا. واعتمادًا على مبدأ "كلمة سواء" يجب علينا أن نصوِّغ علاقتنا بهم، ويجب الحكم على أصحاب هذه الديانات من منطلقٍ فردي وطبقًا لما يفعله كل فردٍ بعينه دون أن يؤثر ذلك على الآخرين؛ إذ من بينهم من ينكر وجود أي الهدي الإلهي من الأساس و لا يعير له بالاً. يجب علينا عدم السماح لهذه الأشياء الفظة أن تحدد وتشكل اتجاه جهادنا المشترك، قال تعالى:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴿١٢٠﴾ ﴾

(البقرة: 120).

3. إن ما يميز كلاً من أصحاب الديانات الأخرى والمسلمين القوميين المعاصرين أمام الله ﷻ هو الإيمان والعمل الصالح. ما من إنسان يُولد كافرًا؛ فالكفر -مثل الإيمان- يتكون من مجموعة من الاعتقادات التي يمكنها أن تستهوي أي شخصٍ بغض النظر عن الدولة أو الثقافة التي ينتمي إليها. لقد ذكر القرآن قصص هؤلاء الكفار من أهل الكتاب الذين كانوا يريدون دليلاً واضحًا على رحلتهم إلى الإيمان. إن الرحلة من عالم الإيمان إلى عالم

الكفر والعكس تعد في الأساس تغييرًا في المنظور الكلي للشخص، بل وتعد تغييرًا في النموذج. إنها أمرٌ ممكنٌ أمام أي شخص وفي أي وقت. عندما نقوم بمحاولة جادة لإعادة تشكيل مجتمع من المسلِّمين فإن المخاطب عندئذٍ لن يكون اليهود أو النصارى أو المسلمين القوميين المعاصرين، ولكنها سوف تكون مفتوحة أمام المسلِّمين من كل الصبغ. عندما يُنفخ في الصور، يأتي كلٌ من مجَّد الله ﷺ في تناغم وتوافق ويعلنون أنهم هم الأتباع الحقيقيين للأمة المسلمة. في الماضي، كان الناس الذين يستجيبون لدعوة النبي محمد ﷺ والتفوا حوله كانوا يأتون من أمم متفرقة، مؤمنة وغير مؤمنة؛ بلال الحبشي، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي، والمهاجرون من مكة، والأنصار من قبيلة يثرب. جاءوا جميعًا ليشاركوا في الرؤية العالمية الجديدة التي أصبحت السمة المميزة لهويتهم؛ وهي الخضوع لله الواحد. هذه الثورة الفكرية والروحية قد جعلت من تلك القبيلة البعيدة "يثرب" لتكون "المدينة المنورة". الآن أيضًا، ومن نفس المنطلق إذا استطاع أتباع النبي محمد ﷺ أن يعيدوا اكتشاف السبب في اختيارهم كمسلمين، فم المحتمل المحتمل جدًا أن يجدوا أنفسهم في مرحلة النور من جديد.

تم تهميش المرأة في المجتمع الإسلامي نتيجة بعض المفاهيم الثقافية البالية، ونحن نحتاج إلى فهم التشريع الخاص بلباس المرأة المحتشم كما جاء في القرآن الكريم، وبعيدًا عن التقيد باللباس الذي تفرضه العادات الثقافية. إن إنكار دور المرأة في المجتمع لا يعد فقط أمرًا مخالفًا للتعاليم القرآنية والعهود الأولى من تاريخنا، ولكنه قد أبقى على نصف قوى المجتمع بلا فاعلية لفترة كبيرة من الزمن. وإذا كان القرآن يأمرنا - مع الوضع في الاعتبار ضخامة الأجندة العالمية – بالتعاون مع أهل الكتاب، فكيف بنا أن نهمش دور نسائنا دون الاستفادة منهن؟

إن القرآن وما صح من أحاديث نبوية تمثل للمسلمين المصادر الوحيدة الموثوق بها لفهم الدين, وهذا يُعد كافيًا بالنسبة لمشروع عن العدل العالمي الذي يتحدث عنه الإسلام. ولكن, بدلاً من الاعتماد على هذه المصادر, فإن غالبية المسلمين قد اعتمدوا على مر العصور على مادة التفسير التي هي نتاج بشري وكذلك على كتب مختلف الأئمة والعلماء الذين اعتبرهم المسلمون الكلمة الأخيرة في الدين. وبدلاً من تمحيص هذه المادة في ضوء القرآن, فإنهم دأبوا على فعل العكس. وبسبب ذلك, فإن رسالة القرآن للعالمين قد غابت في تفكير عموم المسلمين.

المجلس الإسلامي الدولي

يعيش العالم الآن حالة من الاضطراب، ومما يزيد الأمر سوءًا أن الأمة الإسلامية والتي كان يجب أن تتولى أمر هذه الحالة المحزنة تمر بحالة من الفوضى التامة. وقد أدت حالة الفوضى التي يعاني منها العالم الإسلامي بشأن مسيرته المستقبلية إلى وقوع العالم تحت رحمة من ليس لديهم أدنى فكرة عن الهدي الإلهي ولا يحترم هذا الكوكب الذي نعيش عليه أو أي من سكانه. لقد أصبحنا أسرى موقف، حيث أدت بنا البراعة التقنية وما صاحبها من عولمة كافرة غافلة لا أخلاقية إلى الإخفاق العالمي حتى غدونا، نحن سكان هذا الكوكب، لا ندري إلى أين يأخذنا المسير أو ألى أين يمكننا الفرار؟

ومع ذلك، فما زالت هناك بارقة من أمل، حيث ما زال على هذا الكوكب عدد غير قليل من النفوس التقية ذات العقول الراجحة التي لا تعرف إلى الراحة سبيل والتي فطنت إلى خطورة الموقف، ومن بين أصحاب تلك النفوس مسلمون يتطلعون إلى المستقبل ومن بقي من أتباع الرسالات السابقة على خشية الله من اليهود والنصارى والأقوام الأخرى التي تؤمن بالله والتي مازالت تؤمن بأن الضامن الوحيد لمستقبل أفضل لعالمنا المضطرب يكمن فقط في إقامة مجتمع مستقبلي قوامه العدل؛ وتؤمن بأن الإنسان مخلوق جُبل على الخيرية وأن الضمير الإنساني ما زال حياً وهما

حقيقتان ظهرتا جليتين في التاريخ الحديث عندما خرج الملايين من الناس في كل أرجاء الدنيا - بغض النظر عن هوياتهم الدينية أو القومية – إلى الشوارع منددين بالحرب الأمريكية على الإرهاب، وهذا ولا شك يمثل ظاهرة تبعث الأمل لهؤلاء الذين لا زالوا يفكرون في تحرير عالمنا من براثن الأيدلوجيات المعادية للإنسانية وأتباعها، بالرغم من وجود كل هذه الصراعات؛ ولم يسبق أن شهد التاريخ الإنساني مثل هذه الهبة العظيمة التي قام بها الناس في شتى بقاع العالم داعين لاتخاذ تحرك جماعي في وقت واحد.

وفي التاريخ المعاصر، هناك دور خاص منوط بالأمة المحمدية أتباع آخر رسالات السماء إلى الأرض، فهي الأمة التي أمرها الله ورسوله بمعالجة كل العلل والأسقام التي تنتاب البشرية في المستقبل، وعلى الرغم من توضيح القرآن الكريم للمنهج الذي يجب أن يسير عليه المسلمون، فهم يقبعون على هامش التاريخ، ولا يرجع ذلك أساساً إلا إلى أوهام نسجتها خيالاتهم؛ أولاً: بدلاً من أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم "خير أمة أخرجت للناس" وأنهم مصدر الهدى بين الأمم، تاهوا بين صراعاتهم الداخلية بالنظر إلى كل شيء من زاوية مجتمعية، وبدا لهم العالم الذي تولوا مسؤوليته مقسوماً إلى دار الإسلام ودار الكفر مع محو هذا القسم الأخير تقريبًا من حساباتهم.

ثانيًا: كان ظهور الفكر الفقهي بين المسلمين والذي ينظر للأشياء على أنها إما أبيض وإما أسود وذلك من زاوية مجتمعية قد دفعهم إلى اعتبار "الآخرين" غرماء واعتبار أنفسهم مجرد أمة أخرى يمكنها تحيا حياة إسلامية في معزل عن غيرها.

ثالثًا: لقد أغفلوا حقيقة أن الأمة بأسرها لها دور قيادي وأن هذه المهمة العظيمة تتطلب منهم الحفاظ على علاقة حية بالوحي والتنزيل وأن يكونوا دوماً في حالة يقظة ومراقبة لمسيرة التاريخ، ولكن مما يندى له الجبين أن الجماهير المسلمة قد فقدت تدريجيًا تواصالها مع الوحي القرآني؛ وعهدوا بتلك المسؤولية انفراداً إلى مجموعة من العلماء التخصصين في تعلم القرآن وانزوت الأمة بدورها لتخلد إلى الراحة معولة على ما يصدره العلماء من فتاوى تمثل الأحكام الدينية؛ ومع ذلك، لم يستطع حتى العلماء القيام بدورهم كما ينبغي حيث أنهم وقعوا في شرك الفهم الخاطئ لبعض

الأفكار الأساسية الخاصة بطبيعة المعرفة ذاتها نتيجة لمعارضتهم العمياء للمعرفة العلمية والتفكير المنطقي، وعكوفهم على النظر إلى ما كتبه السلف أو رووه في فتاواهم على أنه المصدر الأسمى للمعرفة الإسلامية والتي يتعين على الأجيال اللاحقة ألا يحيدوا عنه؛ وكان هذا الموقف من الإجلال تجاه السلف علامة على انغلاق العقل المسلم، وكما فعل اليهود الذين غضب الله عليهم وفقدوا دور الريادة نتيجة لازدرائهم للهدي الإلهي لم نجد نحن المسلمون خيارًا سوى تقليد الآخرين فأصبحنا نسخة من اليهود الذين غضب الله عليهم وحولهم إلى قردة، بل ومثالاً حيًا على التحول إلى قردة خاسئين.

رابعًا: يمثل ظهور فئة من الرهبان بدعة في الإسلام، والذي كان في الواقع بداية ظهور العقل الرباني الذي حول دين الله البسيط إلى نظام معقد قاصر على المختصين بالدين أو الفقهاء أو من يمكن أن نقول عنهم إنهم أحبار أو رهبان الإسلام.

وفي الوقت الذي ظل فيه المسلمون على قناعة بأن العلماء قد أخذوا على عاتقهم الاهتمام بالمسؤوليات التي كانت على عاتق الرسل وجعل الأمة على اتصال بالوحي الإلهي، على النقيض من ذلك، اعتقد العلماء أن السلف قد استخرجوا كل شيء من القرآن وأنه لا يوجد شيء جديد يمكن العثور عليه في مجموعة النصوص الفقهية، وأعلن بعض علماء الإسلام الأفذاذ صراحة أنه لا شيء تقريبًا باقٍ يمكن أن نتدبره بعقولنا وأن وظيفة العالم الوحيدة هي تعريف المسلمين بما قاله السلف أو كتبوه حول أي موضوع بعينه. وقد بدا للكثيرين أن الهدف الوحيد للعقل البشري هو تغطيته بطربوش أو قبعة.

خامسًا: العلماء الذين يدعون أنفسهم "مندوبو النبي" جعلوا أنفسهم في المرتبة التالية للرسول. وقد اقترن هذا الادعاء الحصري بأنهم الورثة الوحيدون لميراث النبوة بالتبرير الخاطئ للترتيب الهرمي للسلطة الدينية من خلال الآية القرآنية

﴿ ... فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ... ﴾ (النحل 43)

مما أعطاهم سلطة فوق الوحي. ووسط الاختلاف الفقهي على دقائق الأمور ضاع جوهر الطاعة بالإضافة إلى اكتساب نطاق المعرفة وطبيعتها بين المسلمين معنى

الجيتو اليهودي. ولم يعد العالِم بين المسلمين هو الشخص الذي يشير إليه القرآن بأنه الذي يُصعق بالخشية من الله عند التفكر في دلائل وجود الله في الكون، ولكن أصبح سيد المناظرات على صغائر الأمور الذي يتحرك في نطاق قضايا إسلامية محدودة.

لقد أدى تردي حال الأمة الإسلامية وتخليها عن الوحي الإلهي إلى دفع مسيرة التاريخ الإنساني إلى وجهات مجهولة. وبما أن العالم الجديد قد أُنشئ غافلاً عن الهدي الإلهي، فإنه يحمل بين طياته عدد لا حصر له ولا يمكن تحمله من المخاطر. وقد قادتنا أغلب خطط التطور الخاصة بنا إلى موقف فلت فيه زمام الأمور من أيدينا. فها نحن نقف متفرجين صامتين نراقب الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان، بل لكرامة البشرية بأكملها في شتى أسقاع العالم. ولقد غدت أيدي الرأسمالية القاسية التي لا ترحم في حالة نشاط جم الآن باسم العولمة، مما يعطينا الشعور السيء والجنوني بعدم وجود أي ملاذٍ آمنٍ يمكننا الفرار إليه. ولقد جعلنا نظام الضرائب المثقل دائمًا سجناءً أبديين في كوكب منهك بيئيًا يحوم فيه خطر الدمار النهائي نتيجة استخدام الأسلحة النووية وأسلحة الدمار الشامل الأخرى التي صنعها الإنسان. فباختصار نحن مجبرون على أن نحيا في جو ملئه الخوف الدائم من المستقبل في عصر غير متوازن عالميًا.

وبسبب فداحة الأزمة فان النفوس المؤمنة في الديانات والثقافات المختلفة في جميع أنحاء العالم قد فطنت أخيرًا لخطورة الموقف؛ حيث أصبح هناك وعي متزايد بأنه لا يوجد سوى كوكب واحد فقط تحت تصرفنا، فإذا كان لزاما علينا خلق مستقبل لهذا الكوكب فإننا لا نستطيع أن نتجاهل المبادئ الإلهية للعيش في وئام مع الطبيعة. في الحقيقة، لقد تحولت الدعوة إلى تحرير العالم من براثن القيادة المتمردة إلى صيحة عامة في يومنا هذا؛ حيث خرجت الملايين من البشر في السنوات الأخيرة إلى الشوارع في مظاهرات حاشدة للتعبير عن معارضتهم الشديدة لهذا النظام الرأسمالي الذي لا يعرف الرحمة ومخططاته التي لا حدود لها والتي تهدف إلى الحرب والدمار. وما زال الجدل محتدما بين المنتمين للعقائد الدينية المختلفة ومن يخشون الله ومحبي المستقبل والأملين في الحياة من عباد الله بشأن ضرورة حدوث تغيير فى قادة هذا العالم، بحيث يأتي عباد الله الطائعون في المقدمة ليتولوا قيادة عالمنا وتوجيهه. وتتركز مناظراتنا ومشاوراتنا حول العديد من القضايا الشائكة في المنتديات التي تضم

العديد من العقائد، والاجتماعات الحاشدة المناهضه للحرب، ومنتديات السلام والتجمعات البيئية بشأن هذا الموضوع. ولم يحدث أبدا في التاريخ البشري أن تكون لدى الإنسان الرغبة الشديدة في توجيه الكوكب بشكل جديد والإصرار على الإطاحة بالنظام العالمي والتحرك بطريقة متناسقة يدًا بيد مع الآخرين من أجل تحقيق ذلك، بصرف النظر عن اللون أو العقيدة. وتوجد الملايين من الآذان اليقظة التي تنتظر بشغف سماع كلمة عزاء والدعوة إلى القيام بعمل متفق عليه ومشترك وعالمي – أو إلى "كلمةٍ سواءٍ" كما يقول الله في كتابه العزيز. ولكن أين هؤلاء الذين يدعون تأييد هذه الخطة العامة للتحرك العالمي أو معتنقي الرسالة الخاتمة؟

والقرآن، شأنه في ذلك شأن الكتب السماوية الأخرى، يشبه الموارد الطبيعية التي يستفيد مها الجميع فهو يعتبر بمثابة كنز عام لجميع البشر. وهذا الكتاب بالغ الأهمية لا يمكن أن نعتبره مجرد كتاب ديني خاص بالمسلمين فقط؛ وليس من حق أي مجموعة من البشر أن يخصوا أنفسهم بحق تفسير القرآن الكريم مهما بلغت منزلتهم الدينية أو الاجتماعية أو النفسية. والكتاب الذي يتوقف عليه مستقبل البشرية؛ يستحق بكل تأكيد تناولاً أفضل من فلا نتركه بالكامل بيد مجموعة قليلة من العقول البشرية غير المعصومين. والقرآن الكريم لا يحتاج الى أي تعليق فهو - كما يتحدث عن نفسه - كتاب هدى ورشاد لكل من يبحث عن السلوى

﴿... هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ (البقرة 2).

ومن الملاحظ وضوح أسلوبه وقدرة لغته على التواصل مع جميع البشر بشكل مثالي؛ فكلام الله بكل تأكيد لا يحتاج أي سلطة من البشر لتأكيد معانيه، ولكنه يتطلب منا نحن البشر أن نخضع بلا قيد أو شرط لما يأمرنا به، بدلاً من تفسيره على هوانا. ولأن القرآن الكريم هو بمثابة رسالة عامة من الله للبشر أجمعين؛ فإن الأمة الإسلامية مطالبة بقوة وبسرعة أن ترفع وصايتها على هذا الكتاب وتقدمه على أنه رسالة هدي عامة للبشر كافة.

وليس المسلمون فقط هم المطالبون بالنظر إلى الإسلام وكتابه الكريم نظرةُ غير تقليدية ، فجميع من يعبد الله وحده ويرغب في أن ينال نعمه وهدايته لا يمكنهم تجاهل

القرآن إلا على مسؤوليتهم. كيف يمكن لأحد أن يتجاهل رسالة من نفس الإله الذي يزعم أنه يطيعه وأنه يسلم أمره إليه. إن أولئك الذين يخشون الله يحتاجون منهجًا شاملاً؛ ويجب أن نؤكد على أن الإسلام ليس هو دين المسلمين وحدهم؛ فإنه ميراث مشترك لنا جميعًا. إن الإسلام هو دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وداود وسليمان وموسى وعيسى ودين أولئك الأنبياء الذين لا حصر لهم ممن قاموا بدعوة البشر إلى عبادة الله وحده ودخلوا تحت مظلة التوحيد. ويجب علينا أن نؤكد على أن الإسلام ليس شعارًا أيدولوجيًا يمكن رفعه؛ أو شيئًا مثل نجمة داود؛ ولكنه خضوع مطلق للإله الواحد. إن إنتصار الإسلام يجب أن يضمن عودة الفكر السليم لعالمنا مما يعطينا شعورًا بالراحة والحرية، وهو بالطبع يجب ألا يصل إلى حد إخضاع الأمم الأخرى للمسلمين؛ لأن فعل ذلك سينفي رسالة الإسلام نفسها. وباختصار؛ فإن انتصار الإسلام سوف يعني عودة النقاء إلى عالمنا.

ولا شك إن هذه لمهمة ضخمة، ونحن كمؤمنين بهذا الدين الخاتم ملتزومون بإنجاحها؛ كما نؤمن بأن هذا المشروع ليس مشروعًا اجتماعيًا فحسب ولذلك كان لزامًا علينا أن ندعو للمشاركة من الخارج - من جميع أولئك الذين يشاركوننا أمالنا وأحلامنا؛ وذلك كما أمرنا المولي عز جل في كتابه العزيز:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (آل عمران: 64).

هذه إذن هي الخلفية الأيدولوجية التي يقوم على أساسها المجلس الدولي للإسلام الذي نقترحه وهذه الفكرة لا تعني استقطاب المسلمين التقليديين وحدهم ولكن تعني صياغة تحالف فعال من جميع المؤمنين بالله في جميع الرسالات السابقة أيضًا. وسيكون هذا المجلس أعظم من مجرد منبر بين الرسالات؛ ولكنه سيكون منتدى عالمي حقيقيي لمن يؤمنون بالله إيمانًا مطلقًا. إننا ندعو القيادات الدينية وكبار الشخصيات في عالم الأعمال والمفكرين السياسين والاجتماعيين وكبار صناع القرار والصفوة الحاكمة

والمفكرين المستقلين لكي يتحدوا من أجل سعادة وخير الإنسانية أو كما ذكر القرآن؛ من أجل استباق الخيرات.

إن إعادة تعريف الهوية الإسلامية ليست نوعًا من الترف الأكاديمي لنا، حيث يعتمد هذا في حقيقة الأمر على مستقبلنا. واليوم، في القرن الحادي والعشرين، عندما يجد المسلمون أنفسهم على حافة الهاوية وعندما تظهر حركات الإصلاح المزعومة على أنها ظاهرة سوف تنتهي، فعندئذٍ يكون قد حان الوقت المناسب لرحلة البحث في الذات. قد يتطلب هذا قدرًا كبيرًا من الشجاعة في أن ننتقد أنفسنا بكل بوضوح وأن نكون صريحين في إظهار ما بنا من عيوب. إننا ندعى شرف أننا أصحاب رسالة عالمية، ولكننا لسنا أفضل حالاً من اليهود والنصارى في زمن النبي ﷺ. إننا أصبحنا مثلهم، بدلا من أن ندعو الناس إلى الله ﷻ ونعمل بلا كلل أو ملل في أن نوسع من قاعدتنا الاجتماعية، تجدنا نحث الناس أن يتحولوا إلى هويتنا الثقافية.

غدًا فجرٌ جديد

لم يأت العالم الذي نعيش فيه الآن بين عشية وضحاها، فعلى مدار أربعة عشر قرنًا من الزمان، شهد العالم انتقالاً تدريجيًا لعواصم العالم، ابتداء من مدينة النبي ﷺ إلى دمشق، ثم بغداد، واستانبول، وأمستردام، ووصولاً إلى لندن، وانتهاءً بواشنطن دي سي. ولا يمكن أن ننكر وجود بعض القوى الأخرى المتمثلة في مجلس الأمن، والتي تظهر على الساحة من حين لآخر، كذلك فإن ظهور الاتحاد الأوروبي وتمثيله للدول التي تحت مظلته، وظهور النمور الاقتصادية الآسيوية قد ولّد لدينا شعورًا بوجود لاعبين آخرين في الأفق يتمتعون بنفس القوة. وهناك حقيقة أخرى على نفس الدرجة من الأهمية، وتتمثل في أن الموارد الكبرى للطاقة التي يحتاج إليها العالم الحديث كي يستمر على نشاطه موجودة في العالم الإسلامي. ونظرًا لأن خمسين بالمائة من موارد الطاقة تقع في خمس دول فقط، فلا يمكن تصور وضع أي تخطيط لعالم المستقبل دون وضع هذه الدول في الاعتبار. ورغم كل ما تقدم، لا يمكن لأحدٍ أن ينكر أن واشنطن دي سي هي العاصمة التي تتحكم في العالم اليوم. وقد تأكد لدينا عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، والتدخل الأمريكي في شئون العالم، فضلاً عن العدوان على بعض الدول، وتنفيذ المجتمع الدولي للأوامر الأمريكية دون نقاش، أن وضع أي خطة لتغيير العالم دون اعتراف حقيقي بالهيمنة الأمريكية سوف تكون خطة غير واقعية.

إن النظرة الواقعية للموقف لا تعني أن النظام العالمي القائم غير قابل للتغيير، فالتاريخ يشهد على أنه لا توجد قوة على الأرض لا تُقهر. ولكن ما يجب علينا أن نفعله هو القيام بتقدير الموقف تقديرًا واقعيًا وصياغة استراتيجية مضادة على هذا الأساس، وعلينا أن نضع في الاعتبار أن الأماني الرومانسية والاعتقادات القائمة على الرغبة وحب الشيء مع البعد عن الواقعية سوف تؤدي إلى مزيد من الويلات للمأزق الذي نعيشه. وعلى الرغم من انقضاء ما يزيد عن أربع سنوات على أحداث الحادي عشر من سبتمبر، تلك الأحداث التي رجّت كيان العالم الإسلامي بصورة أكبر مما فعلته بالولايات المتحدة نفسها، إلا أن الأمة وبكل أسف لم تستطع أن تقدم خطة عمل مدروسة بشكلٍ جيد للمستقبل. وفي الحقيقة، لم تمض السنوات الأربع المنصرمة هوينًا على الأمريكيين، فعدم إنجاز المهمة الأمريكية في العراق على نحو غير متوقع، ومراسم الرئاسة غير العملية الخاصة بتولي قرضاي الحكم في أفغانستان، ووصول الجماعات الدينية إلى الحكم في باكستان وفلسطين، والأسوأ من ذلك استمرار الاضطرابات العامة المتزايدة ضد إدارة بوش داخل الدولة، كل ذلك قد أدى إلى وجود بعض العقبات الحقيقية، حتى أننا نسمع الآن أن مستقبل الدولار قد أصبح في خطر، كما توجد بعض التمتمات والبرامج التليفزيونية التي تنادي بمحاكمة بوش. ولا ريب أن مثل هذه الاضطرابات هي ردود أفعال طبيعية للهجمات الإمبريالية الأمريكية، إلا أن كل ذلك يجب ألا يعزز ما نعيشه من وهم يتمثل في أن الولايات المتحدة في تراجع دائم وأن سقوط العاصمة واشنطن دي سي قد أصبح مسألة وقت.

ولو لم يكن هناك آلية متأصلة للإصلاح، لكانت الإمبراطورية الأمريكية قد انهارت تحت أعباء خطاياها الثقيلة، لكن النقد المتزايد الموجه إلى الإدارة الأمريكية من أنها قد ضللت الرأي العام في القضية العراقية، والطريقة التي ظهر بها العديد من المفكرين من رجال الإعلام، والأكاديميين، والسياسيين، وجماعات حقوق الإنسان على الملأ لحماية حريتهم قد أعطى مجالاً كافيًا لتصحيح أخطاء النظام. ومن هنا تأتي قوة الديمقراطية الأمريكية التي تضفي على المجتمع الأمريكي حيوية وقوة دائمة، مما يجعل واشنطن دي سي هي عاصمة العالم في المستقبل المتوقع.

لقد دفع سقوط الاتحاد السوفيتي بعض المفكرين في الولايات المتحدة إلى اختيار الإسلام على أنه الخطر الجديد الذي يهدد المستقبل، وقد لعبت بعض جماعات الجهاد والمنظمات الإسلامية دورًا في تعزيز فكرة أن الإسلام في أساسه وجوهره مناهض للغرب، وكانت تلك الجماعات والمنظمات الإسلامية قد غرتها الأماني الحالمة؛ واعتقدت خطأً أنها لم تقم بهزيمة الاتحاد السوفيتي فقط، ولكنها كانت السبب وراء تفككه أيضًا، كما رأت أنه إذا كان قد أمكنها إجبار السوفييت على مغادرة أفغانستان، فلماذا لا تقم بتدمير القوى العظمى المتبقية والمتمثلة في الولايات المتحدة؟ وفي غضون ذلك الحماس، تجاهلت تلك الجماعات والمنظمات أنه بالإضافة إلى الموارد البشرية التي أمدت بها الأمة الإسلامية أفغانستان، كانت هناك عوامل أخرى على نفس الدرجة من الأهمية تقف مسئولة عن هزيمة الاتحاد السوفيتي. وتجدر الإشارة إلى القصص الأسطورية التي كنا نسمع عنها خلال الحرب الأفغانية، حيث يروى أن العديد من المعجزات كانت تحدث في أرض المعركة، حتى أن الناس قد رأت الملائكة تهبط من السماء، وكما يقال من أن جثث الشهداء كانت تملأ الهواء بأذكى الروائح الطيبة. ورغم أن هذه القصص قد ساهمت في رفع الروح المعنوية للمحاربين، إلا أنها قد غرست في أذهان شبابنا رؤية مستقبلية حالمة. ثم كانت هناك الأساطير الإسلامية التي وجدت لها طريقًا في الفكر الإسلامي السائد، فأسطورة المهدي التي نشأت في القرن الثاني الهجري قد أصبحت جزءًا من النظام الشائع لعقيدتنا، ورغم الأصل الغريب لهذه الأساطير، إلا أن أسطورة (المهدي والمسيح والمجدد) قد اعترضت ظهور وجهة النظر المنطقية بين المسلمين، فلم يكن هجوم جهيمان العتيبية وأتباعه على الحرم المكي في أوائل القرن الخامس عشر الهجري إلا لوقوعه ضحية للفكر المسيحي. كذلك تسبب الحديث الذي نردده دائمًا والذي يروي أن الله ﷻ يرسل إلى هذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها في حدوث العديد من الكوارث في تاريخنا. وفي الوقت الذي اقترب فيه الجيش الأحمر من جر أذيال الهزيمة، وعندما كانت إيران والعالم الشيعي يشهد نهضة غير مسبوقة تحت قيادة الخوميني الذي ادعى بوصفه - له ولاية الفقيه - أنه يمهد الطريق لظهور إمام الغيب، كانت النظرة إلى المستقبل في غير محلها. إن الجهاد في أفغانستان قد جمع الإسلاميين من كل أنحاء العالم في المناطق الحدودية لباكستان، وبعد هزيمة

السوفييت، نظر الإسلاميون إلى أنفسهم باعتبارهم فاتحين، وبدلاً من القيام بتحليلٍ منطقي للحرب الأفغانية، لجأوا إلى الأسطورة التي صنعوها بأنفسهم. وعلى الرغم من وجود دلالات كافية تؤكد على أنهم كمؤمنين كانوا لا يزالون كأمةٍ متفرقة تستحق على الأقل التأييد المطلق من الله ﷻ، ومع ذلك نظروا إلى أنفسهم كأمة مفضلة. وبعد استحواذ طالبان على كابول، استطاع الفكر الحالم أن يخطوا خطوات واسعة من خلال استخدام المصطلحات الرنانة مثل أمير المؤمنين، وبدا للعديد ممن كانوا تحت قيادة الملا عمر أن العالم الحديث يشهد صورة مطابقة لمدينة النبي ﷺ، حيث اجتمع الأنصار والمهاجرون من كل أنحاء العالم من أجل المعركة الحاسمة مع الكفر العالمي. ولم يسأل المفكرون المسلمون أنفسهم أين كانت تتجه العقول المؤيدة للأفغان، كذلك لم يكن المهاجرون والأنصار الجدد الذين يضمون بين صفوفهم خلاصة الإسلاميين من كافة أنحاء العالم على وعي بأنهم لا يعوزهم فقط التخطيط المطلوب لإسقاط نظام الكفر العالمي، ولكن تعوزهم أيضًا الرؤية العميقة في طبيعة الكفر نفسه. لقد كان أمير المؤمنين على الطراز المعاصر ومن حوله طائفيين في تفكيرهم القائم على الأساطير التي لا أساس لها، ولا ريب أن هؤلاء الناس بسبب رؤيتهم الأسطورية كانوا سببًا في العديد من الكوارث العظيمة وليس بزوغ فجر جديد.

لقد مضت أربع سنوات ونصف على أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ولم تفق الأمة من الأعراض التي كان يعاني منها بار كوخبة. وتعود هذه القصة إلى أن اليهود الذين كانوا يواجهون استبداد الإمبراطورية الرومانية قد وجدوا في بار كوخبة رجلاً طموحًا، أو وجدوا فيه المسيح المخلص، رغم أنه كان رجلاً يفتقد إلى الرؤية الواضحة، كما أنه لم يكن قادرًا على قيادة ثورة ناجحة ضد الإمبراطورية الرومانية، إلا أن الأماني اليهودية الحالمة هي التي جعلت اليهود تجتمع حوله، حتى أن رابي عقيبة والمعروف بفطنته السياسية وتدينه قد أيده على أنه هو المسيح. ومع وصول المسيح، ساد لدى اليهود قدر من التفاؤل والأمل غير مسبوق، واعتقدوا كما لو كانت مملكة سليمان وداود على وشك الرجوع، ولكن هيهات، فسرعان ما تلاشى الأمل، وتم إخماد ثورة بار كوخبة، وخيم جو من الكآبة واليأس على اليهود لعدة سنوات. وقد شهدنا موقفًا مشابها في العالم الإسلامي منذ فترة ليست بالقريبة، فمن فلسطين إلى

بيشاور، ومن إندونيسيا إلى المغرب، كان هناك خضم من الناس الذين أعلنوا بحماس تأييدهم لابن لادن، وبدا في بعض الأوقات أن العالم الإسلامي قد استيقظ وأن الوحدة على مختلف درجاتها يمكنها الآن أن تحقق المستحيل. إن العقول الأسطورية والأماني الحالمة التي ليس لها أدنى صلة بالواقع لا يمكن أن ينشأ عنها إلا بار كوخبة، وشبتاي تسفي، وجهيمان العتيبية، وبن لادن.

لقد أخذ انتقال عاصمة العالم من مدينة النبي ﷺ إلى واشنطن دي سي في العصر الحديث حوالي أربعة عشر قرنًا من الزمان. ومع ذلك، فإننا لا نحتاج إلى أن ننتظر هذا القدر من الزمان، إذا تمكّنا من تحديد العوامل التي جعلت الجزيرة العربية عاصمةً للعالم في القرن السابع، ولا ريب أن تحديد هذه العوامل وتصور النظرة العالمية الإسلامية الأصيلة أمر من الأهمية بمكان لمستقبلنا. وإذا اعتمدنا في بحثنا عن النظرة العالمية الإسلامية الأصيلة على الروايات التاريخية بصورة كبيرة، فنحن بذلك ربما نرتكب خطأً من خلال جعل الوحي الإلهي تابعًا للتاريخ. إنني أرى أن الوحي الإلهي يجب فهمه من جديد في إطار البيئة الزمانية والمكانية لعصر النبي ﷺ كما هو موجود بين دفتي المصحف. وأخيرًا وليس بآخر، نحن نحتاج إلى اكتشاف الأسباب التي جعلت واشنطن دي سي عاصمة العالم في القرن الواحد والعشرين بالرغم من انتهاكها السافر للعدالة. وباختصار، إننا لن نستطع دون فهم صحيح للعالم الحديث أن نعود مرة أخرى إلى عرش السلطة والهداية.

وفي البداية، نحتاج إلى خلق عقل مسلم جديد. لقد كان منهجنًا في القرون المتأخرة للإسلام منهجًا عقائديًا غير قائمٍ على البحث والتدقيق، كما تعاملنا مع ديننا على أنه مجموعة من الشعائر، وأصبحت العديد من حقائق الوحي مجرد تعبيرات مبتذلة نتيجة التكرار غير الواعي لها. إن إعادة تشكيل العقل المسلم سوف يمنح قوة وطاقة جديدة للعديد من التعبيرات العقائدية التي لا روح فيها. ويمكنني أن أوضح ذلك بإيجاز من خلال ما يلي:

1- إن القرآن كتاب كامل، ونص قطعي، وصالح لكل زمان. ويطلب القرآن منا ألا نكف عن التفكر والتأمل، كما يطالبنا بأن يكون محور اهتمامنا هو الوحي

المجرد. وعلى هذا الأساس، يجب ألا يستحوذ على خيالنا أي مادة تاريخية أو تفسيرية.

2- إن أتباع خاتم الأنبياء ﷺ حاملو رسالة عالمية، فالإسلام كما نزل إلينا هو نقطة التقاء للتراث النبوي بكامله، والنظر إلى الإسلام على أنه مقصور على الديانة المحمدية يناقض عالمية البعثة النبوية، إنها ملة إبراهيم كما بين القرآن، كما أن محمدًا ﷺ بشيرًا ونذيرًا للناس كافة.

3- نزل القرآن بلسانٍ عربي مبين، وعلى الرغم من أنه قد نزل على نبي عربي في بيئة عربية، إلا أن العروبة ليست هي عنصره الجوهري، فالقرآن الكريم يخاطب العالم كله ويتخطى كل الحدود الثقافية واللغوية والإقليمية. ويجب أن يقوم المجتمع الإسلامي المستقبلي على الطاعة والولاء وليس على الأحاديث الموضوعة التي تضع سلالة النبي ﷺ في قلب نظام الحكم المسلم، فالإسلام لا يميز بين الناس على أساس ثقافاتهم، أو ألوانهم، أو أنسابهم.

4- وبما أن المسلمين أتباع خاتم الأنبياء ﷺ، فقد عُهد إليهم بقيادة العالم إلى نهاية الساعة؛ ولذا يجب على المسلمين إعادة توجيه أنفسهم ليعملوا على ما فيه صالح الإنسانية بوجه عام، وعدم قصر أنفسهم على مجرد مشاريع مجتمعية. لقد عاش المسلمون طويلاً في ظل خداعٍ يتمثل في أنهم مثل أي أمةٍ أخرى، وهذا اتجاه يتناقض بشكلٍ مباشر مع النصوص القرآنية، كما أنه قد أدى إلى حرمان العالم الحديث من قيادة عادلة.

5- بما أن المسلمين هم أتباع الوحي الخاتم، فإنهم يضطلعون بدورٍ رئيسي يجب عليهم القيام به في مستقبل العالم. ومع ذلك، فإن أي مشروع عالمي للعدالة لا يمكن تنفيذه في معزلٍ، كما أن المسلمين لا يُتوقع منهم القيام بهذا، ولكن ما يجب علينا أن نفعله هو أن نجمع حولنا كافة الأمم المؤمنة التي يمكنها أن تدعمنا وتؤيدنا في كلمةٍ سواء. ولا ريب أن فتح الأبواب أمام المجتمعات الأخرى المؤمنة سوف يجعل من السهل علينا تحقيق أهدافنا.

6- لا يمكن لأمة أن تدعي أن بيدها وحدها الخلاص، وتلك قضية شائكة، طُلب منا أن نلتزم الصمت تجاهها. إن أحكام الفقه التقليدية التي تنكر خلاص العالم خارج إطار المجتمع المسلم الحالي، والتي ترى أن الآيات القرآنية التي تنافي هذا الرأي قد نُسخت، لا يمكن أخذها على أنها هي الكلمة الأخيرة. لقد وقفت الآراء التي حصرت الخلاص على الأمة الإسلامية حجر عثرة أمام تفعيل دور المجتمعات الإيمانية الأخرى لتقبل المبادئ الإسلامية في العدالة.

7- تم تهميش المرأة في المجتمع الإسلامي نتيجة بعض المفاهيم الثقافية البالية، ونحن نحتاج إلى فهم التشريع الخاص بلباس المرأة المحتشم كما جاء في القرآن الكريم، وبعيدًا عن التقيد باللباس الذي تفرضه العادات الثقافية. إن إنكار دور المرأة في المجتمع لا يعد فقط أمرًا مخالفًا للتعاليم القرآنية والعهود الأولى من تاريخنا، ولكنه قد أبقى على نصف قوى المجتمع بلا فاعلية لفترة كبيرة من الزمن. وإذا كان القرآن يأمرنا - مع الوضع في الاعتبار ضخامة الأجندة العالمية – بالتعاون مع أهل الكتاب، فكيف بنا أن نهمش دور نسائنا دون الاستفادة منهن؟

8- إن القرآن الكريم كتاب مفصل، ولا يدع مجالاً لأي مناورات تفسيرية، وأي قراءة للنص في سياق أسباب النزول لا تعد فقط أمرًا شبيهًا بوضع الوحي الإلهي تابعًا للتاريخ، ولكنها تقف أيضًا عائقًا أمام قراءة جديدة للنص انطلاقًا من وضعنا الخاص، لقد نقل الله ﷻ إلينا ما يريده، فهل الله في حاجة إلى مساعدة تفسيراتنا البشرية لجعل قصده واضحًا ومفهومًا؟ إن القرآن الكريم - كما أخبرنا الله - بيان للناس، ونحن جميعًا في حاجة إلى قراءته كدليل هداية وإرشاد بشكل يومي، وهذا الاتجاه وحده هو الذي يمكن أن يولِّد الحركة الجماهيرية القائمة على الوحي الإلهي.

9- يمكن تحقيق المبادئ الإسلامية في العدالة، والمساواة، والحرية عندما يدرك كل إنسان – رجلاً كان أو امرأة – بشكل كامل وفعلي أنه لا توجد واسطة بين العبد وربه. ويجب على علماء الإسلام التوقف عن القيام بدور رجال الدين، كما أن المواقف الشبيهة بمواقف الكنيسة والتي تسللت خلسة إلى جسد نظام

الحكم في الإسلام يجب أن تتوقف. إن القرآن يقدم النبي محمدًا ﷺ على أنه محرر العقل الإنساني من أغلال الأحبار؛ ولذلك يجب على المسلمين أن يتجنبوا جميع أشكال عبادة السلف. ولا ريب أن العقل المسلم الجديد الذي يعمل في إطار النموذج القرآني معرض لارتكاب الأخطاء، لكن تأكيد القرآن بشكل غير عادي على استخدام العقل لا يدع أمامنا خيارًا آخر.

إنني أرى أهمية توافر بعض المكونات الجوهرية للعقل المسلم الجديد من أجل أن نبدأ بداية جديدة، كما أقر في البداية أيضًا أنه لا يمكن الاعتماد كثيرًا على ما جاء في علوم التراث التقليدية، وعلى هذا الأساس، فإنه لا بديل عن إعادة قراء النص. لقد بذل المفكرون والعلماء المسلمون في الماضي جهودًا موحدة لتغيير طريقة تفكير العقل الأسطوري التقليدي، لكن ذلك قد أفضى بهم إلى فقدانهم لشعبيتهم وقبولهم لدى الناس، كما أن أعمالهم أصبحت الآن حبيسة أرفف المكتبات ينظر إليها على أنها تفردات العلماء العظام. وبناءً على ذلك، يجب أن يكون مصلحي العصر الجدد على حذر خشية ألا ينتهي بهم الحال إلى إنتاج نوع آخر من التفردات بدلا من أن يقوموا بقراءة إبداعية جديدة للقرآن. ويمكن القول باختصار أنه على الرغم من الدرجة الفكرية الهائلة للحركة الجديدة، إلا أنه يجب عليها الخروج من الأبراج العاجية الأكاديمية.

إن الثورة الفكرية القائمة على الوحي المتكامل تتطلب إشراك بعض أصحاب العقول العظيمة في وقتنا الحاضر الذين لا يؤمنون فقط بفعالية كتاب الله وأسوة نبينا الكريم ﷺ، ولكن يوجد لديهم في نفس الوقت رؤية ثاقبة تتعلق بالنظام العالمي السائد. وخلال السنوات القليلة الماضية، استهوت كتاباتنا عن هذا الموضوع عددًا كبيرًا من الناس من مختلف أنحاء العالم، كما أن عددًا من المفكرين والكتاب يصل إلى حوالي من ثلاثمائة إلى أربعمائة مفكر وكاتب، ممن يشاركوننا نفس الاهتمام، قد تعهدوا بمساعدتنا.

وقد اقترح بعض الأصدقاء من ذوي النية الحسنة إنشاء جامعة تعمل كمؤسسة تكون أساسًا لتلك المبادرة، لكن بعضًا من بغاة الخير قد أوضحوا أن إنشاء مؤسسة أكاديمية متكاملة من أجل هذا الغرض فقط قد يؤدي إلى امتصاص اللوجستيات الإدارية لكافة الطاقات الموجودة لدينا. وقبل أن نتخذ قرارًا بشأن تأسيس جامعة حديثة

قائمة على علوم الوحي، يجب أن نتساءل، لماذا لم تؤت أيًا من الجهود التي بُذلت في السابق ثمارها؟

وخلال القذف الأمريكي لأفغانستان مؤخرًا، وعندما لم تستطع الشجاعة الفائقة لطالبان أن تقاوم قاذفات بي 52، اتضح للعديد منا أنه ما لم تقم مدارسنا وحلقاتنا الدراسية باختراع شيء ما يكون أكثر فاعلية من قاذفات بي 52، فإننا بلا شك سوف نكون عرضة للهجمات الغربية. إن العيش في عالمٍ قام الغرب بتشكيله إلى حد كبير، ويمتلك فيه القدر الأكبر من التكنولوجيا التي تحيطنا، يجعلنا نقول إنه توجد طريقتين للاستجابة لهذا التحدي؛ أولاً، أن نتنافس معهم في الناحية التكنولوجية، أو نقوم على الأقل بامتلاك القدرات النووية المتاحة؛ ثانيًا، أن نستعمل أسلحتنا الأيديولوجية في المواطن التي فشلت فيها أسلحتنا العسكرية. ومع أن الاتجاه الثاني يبدو بعيد الاحتمال، إلا أنه الأقرب إلى الاستراتيجية النبوية، كما أنه قد أثبت فاعليته في العديد من المواقف في الماضي. إننا إذا قدمنا الإسلام - الذي يمثل الخلاص للجميع كما اعتاد أن يكون – في ظل الصياغة القرآنية التي تخاطب العالم كله، فسوف يجد له صدىً في أرقى طبقات المجتمع الغربي. لقد ألقى نهب بغداد عام 1258 قدرًا من الكآبة على الجميع، وبدا لهم كما لو كانت تلك الظاهرة التي تسمى الإسلام قد انتهت، ومن ثم فلا عجب، إذا أدت إماطة اللثام الآن عن الرسالة العالمية للإسلام إلى نتيجة مشابهة.

ومع الوضع في الاعتبار ضخامة هذا التحدي، فإن إنشاء جامعة عالمية قائمة على علوم الوحي سوف تكون تصغيرًا لحجم أفكارنا، إن ما نحتاج إليه أن نفكر بإمعان، وأن نعمل بشجاعة وثقة تامة